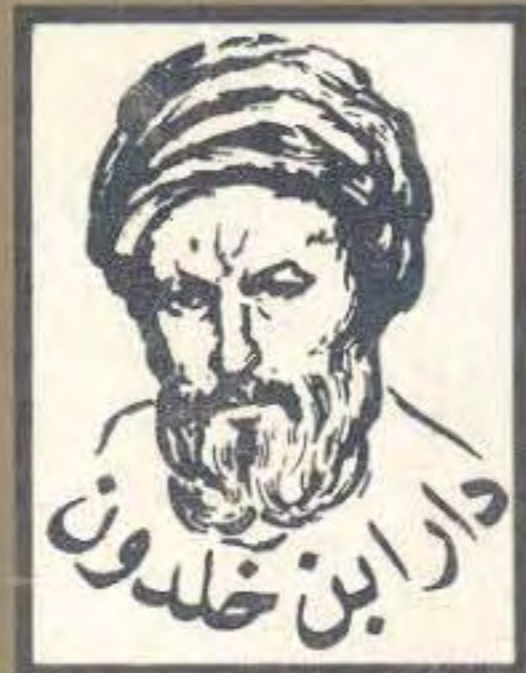


سای خَـرطَبِیل

السلطنة الحکمة



منتدی سور الاز بکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

اسطورة الجحيم

الطبعة الاولى
١٩٧٩/١١/١٥

سأ مي خرطبيل

اسطورة الحلاج

قاروا بن خلدون

حقوق الطبع محفوظة

دار ابن خلدون

كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر

بيروت هاتف ٣١٢٣٣٥

ص ب ١١٩٣٠٨

مقدمة

حول منهج الدراسة

تحتوي المكتبة العربية على العديد من الدراسات عن العلاج ، والتي تنطلق من منهج وفهم غيبي او مثالي لا يستقيمان مع الفكر والنهج العلميين . . . فالخبرة الصوفية بهذا المنهج من طبيعة لا تخضع للبحث العقلي ، وعلينا ان نسلم بالامور كبداهيات حاسمة ، فالصوفي اصبح خارج مجتمعه او فوقه مستهلك بالانوار الروحانية ، يتصل بالله ، ويكتسب من علمه وارادته اللا نهائيين زادا يطوح به مزيدا من الاطاحة خارج الواقع وبعيدا عن العقل ! . . ان هذه الدراسات تقع بالعديد من الاخطاء والتي اهمها : عزل الافكار عن السياق التاريخي والاجتماعي ، وعزل العقل عن اداء دوره التحليلي بالاستسلام لمجموعة ضخمة من الاوهام وبالتسليم غير المعقول لمجموعة ضخمة من الاخبار وباسم الخصوصية الفذة لهذه الخبرة .

ونقيض ذلك ، يقدم الفكر الماركسي عددا من الاطروحات

الاساسية لفهم القضية الدينية والصوفية ، والتي تشكل مرشدا
عاما للبحث ، ولعل من اهم هذه الاطروحات ما كتبه ماركس عن
وادي الدموع :

« ان الانسان يصنع الدين ، وليس الدين هو الذي يصنع
الانسان . يقينا ان الدين هو وعي الذات والشعور بالذات لدى
الانسان الذي لم يجد بعد ذاته او الذي فقدتها . لكن الانسان
ليس كائنا مجردا جائما في مكان ما خارج العالم . الانسان هو
عالم الانسان ، الدولة ، المجتمع ، وهذه الدولة وهذا المجتمع
ينتجان الدين ، الوعي المقلوب للعالم ، لانهما بالذات عالم مقلوب .
الدين هو النظرية العامة لهذا العالم ، خلاصته الموسوعية ، منطقته
في صيغته الشعبية ، موضع اعتزازه الروحوي ، حماسته ،
تكريسه الاخلاقي ، تكملته الاحتفالية ، عزائه وتبريره الشاملان .
انه التحقيق الوهمي للكائن الانساني ، لان الكائن الانساني لا يملك
واقعا حقيقيا ، اذن فالصراع ضد الدين هو بصورة غير مباشرة
صراع ضد ذاك العالم الذي يؤلف الدين نكهته الروحية .

« ان التعاسة الدينية هي ، في شطر منها ، تعبير عن التعاسة
الواقعية ، وهي من جهة اخرى احتجاج على التعاسة الواقعية .
الدين زفرة المخلوق المضطهد ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح
الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح ، انه افيون الشعب» (١) .
... ان هذا « المرشد » يخيّلنا الى الواقع لدراسته وتحليله
ولكشف قوانينه الخاصة والعامة في كل مرحلة من المراحل ، ولا
يحيل بطبيعة الحال الى آلية تطبق العام على الخاص تطبيقا آليا
او غير آلي . ان دلالة « المرشد » هي دلالة منهجية ، للبحث العلمي ،
وبما هي كذلك لا يمكن ان تضع « النظرية » كبديل للواقع ولجدليته
الواسعة .

وقد ظهرت في السنوات الاخيرة مجموعة من الدراسات

(١) حول الدين : ماركس وأنجلز ص ٣٢ و ٣٤ دار الطليعة ط ١ عام ٧٤ .

الرائدة التي تستند الى المنهج الماركسي لتحليل التراث ، وهي خطوة هامة لفهم فكرنا القديم بعيدا عن التزييف الغيبي والمثالي . .
الا ان عيب هذه الدراسات - عامة - كونها تطبق المنهاج والافكار تطبيقا ميكانيكيا ، على الرغم من التأكيد المستمر عند اصحابها ، على رفض هذه الآلية ، ان هذا التناقض ليس مجرد استسهال للآلية ولا هو مجرد ضعف بالتحليل ، لانه يعكس مفاهيم في المنهاج لا تزال بحاجة الى مراجعة لكشف اخطائها .

اولى هذه الاخطاء يدور حول فهم صيغة «المرشد» . انه وعلى الرغم من تكرار الحديث عن القناعة بدلالة المرشد ، فان ما نجده هو نقيض ذلك . اذ يصبح المرشد نظرية عامة مطلقة تبحث عن «تجلياتها» الخاصة في اي زمان وفي اي مكان ، مع التأكيد هنا على العمق والانفتاح واستيعاب الخصوصيات . ومن هنا نجد ان جل ما يصنع تكون حصيلته قياسية ارسطوية، تطبق القاعدة بسداجة آلية على الوضع الخاص . اننا نفهم من «المرشد» امرا آخر وهو ضرورة دراسة المجتمع او الافكار دراسة علمية تستند الى الواقع ، مثلما درس ماركس المجتمع بشموليته والذي عاصره او عرفه ، وهذه هي دلالة المادية .

وثاني هذه الاخطاء يدور حول الفهم «السكوني» والجامد لعلاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه . اننا في كل مرة نجد وكان الانسان الاول امامنا، في خضوعه لجدل الطبيعة ولجدل الانتاج! فالسياق التاريخي يحذف ، وتراكم المعرفة والخبرة تحذف، وجدل المفكر مع المجتمع يحذف ، وجدل الافكار ببعضها يحذف ، ليبقى جدل واحد هو جدل الطبيعة والانتاج المعكوسان على دماغ هذا الانسان الاول ! وهنا كذلك لا بأس بالحديث عن فهم معقد لعملية الانعكاس ، والذي لن يعني شيئا ما دام الجدل قد خثر وحذفت اهم عناصره ، وكان الانسان اصبح مجرد تراكم آلي لا اكثر وليس وجودا اجتماعيا وتاريخيا يتفاعل بما هو وجود وبما هو عنصر اجتماعي في هذه الحركية المتتابعة .

هنا نذكر بقول ماركس :

« . . ولكن ما يميز اسوأ مهندس عن اخبر نحلة ، منذ البداية هو انه شيد الخلية في رأسه قبل ان يشيدها في القفير . فالنتيجة التي يؤدي اليها العمل موجودة مثاليا ، مسبقا في خيال العامل ، لا لانه يحدث تبديلا في صورة المواد الطبيعية فقط ، بل لانه يحقق ، بالفعل ذاته ، هدفا خاصا يعيه ويحدد اسلوب تصرفه كقانون ، ويجب ان يخضع ارادته له . . » (١) .

ان هذا القول يحدد لنا دلالة العلاقة بين البنى ، ويحدد لنا دلالة الحديث عن كون الدين انعكاسا للواقع . ان اي توسيع او تفسير للانعكاس لا يأخذ بعين الاعتبار كون الانسان مفكرا وحاملا للاهداف ومبدلا للواقع ، هو تفسير قاصر يسقط في الميكانيكية . وبمعنى آخر ان هذا النص الاله ، يوضح لنا الفرق بين العمل الآلي الفريزي والعمل الواعي الذي يتميز به الانسان ، والفرق هو جدل الانسان مع الواقع بما هو حامل للافكار وحامل للاهداف .

ان ما يواجهنا في سياق التاريخ ليس الانسان الاول الخالي ، بل يواجهنا انسان حمل ثقافة وخبرة الماضي . هذا الامر البديهي يجب التاكيد عليه لكونه ينتسى عند الحديث عن الانعكاس ، مثلما ينتسى التفكير والتخيل ، ومثلما تنتسى الهدفية . اذ يصبح امامنا نمط معين من الانتاج يصنع افكارا تقابله . . مع التاكيد مرة اخرى على الاستقلالية النسبية للفكر ومع التاكيد على رفض الفهم الميكانيكي ، ولكن من دون ان يبدل هذا التاكيد شيئا ، بعكس التاكيد الذي نصر عليه ، والذي يعني ان الانسان في مجتمع ما وهو يجادل الانتاج انما يجادله عبر ارث الماضي كله وعبر اهداف المستقبل المتخيلة . ان ما نصر عليه بتاكيدنا هو انه من المحال ان يتساوى التطور الانتاجي مع تراكم الخبرات والثقافات والافكار

(١) راس المال : ماركس . الكتاب الاول ، الجزء الاول ص ٢٨٢ ت : انطون

حمصي دمشق ٧١ .

في زمن واحد ، ليصح ذلك الحديث العميق والمعقد او الساذج
عن انعكاس الانتاج في الفكر ذاك الانعكاس ..

ان نسيان تاريخية الانسان ، مثل نسيان اجتماعيته ، وافكاره ،
ومثل نسيان هدفيته ، انما يعني الفناء للجدل . لذا فان اية
استدراكات او اية محاولات لتعميق البحث للابتعاد عن السداجة
وعن الآلية - كما يتم الحديث - لن تكون الا باستعادة هذا الجدل
- عدا ذلك تبقى السداجة والآلية ، رغم كل الاضافات التي لا تبذل
شيئا ، ان لم تصب في هذه الرؤية الشاملة للجدل .

ضمن هذا السياق ، يأتي حديث لينين حاسما :

« حين الفهم (الانساني) يتناول الشيء الفردي يسحب منه
صورة (= مفهوما) ، هذا ليس فعلا بسيطا ، مباشرا ، ميتسا ،
ليس انعكاسا في مرآة ، بل فعل معقد ، ذو وجه مزدوج منكسر
- متعرج - فعل يتضمن امكانية الطيران الخيالي خارج الحياة ،
واكثر من ذلك ، انه يتضمن امكانية تحويل المفهوم المجرد ، الفكرة
(تحويل لا يدركه الانسان ، لا يعيه) الى خاطر خيالي ...
(في تحليل اخير = الله) .. » (١) .

وضمن هذا السياق ، وبحسب هذه المنهجية ، انما درسنا
الحلاج . مسترشدين بالحديث الماركسي عن الانسان الصانع
للافكار ، بما هو كائن اجتماعي في مجتمع محدد ، يبحث عن
تعزية في وهم متخيل ، بطريقة فردية ، كادت ان تصل الى
طريقها الصحيح في خاتمة الامر . ومسترشدين بالحديث اللينيني
عن امكانية الطيران الخيالي .. وما افضله من حديث ونحسب
نتناول اسطورة الحلاج .

وضمن هذا السياق ، وبحسب هذه المنهجية ، نزيد الامر
تحديدا ، بالاسترشاد مرة اخرى بكلمات لينين :
« لقد اكتسبت الماركسية اهميتها التاريخية العالمية بوصفها

(١) الدفاتر الفلسفية : لينين ج ٢ ص ١٥١ ت الياس مرقص - دار الحقيقة

ايدولوجية البروليتاريا الثورية لان الماركسية لم تطرح جانبا على الاطلاق ائمن مكتسبات العهد البرجوازي بل ، بالعكس، استوعبت واعادت صياغة كل ما كان ذا قيمة في تطور الفكر البشري والثقافة البشرية خلال اكثر من الفي سنة « (١) .

ان هذا المرشد المنهجي يوضح اهمية الاستفادة من المناهج المختلفة - على هذا الصعيد الذي نتحدث فيه - لاغناء الموضوع المدروس وكشف جوانبه المتعددة والمتباينة . من هنا لم نجد غضاضة بالاستعانة بالمنهج النفسي ، والمنهج التحليلي ، والمقارن ، والتاريخي . الى جانب ما ذكرناه عن المنهج الجدلي وعلى النحو الذي يكشف تعقيدات الموضوع المعالج من دون اضافة اوهامنا الى المجموعة الهائلة من الاوهام المتصقة به ، ومن دون احالات مبتسرة وغير مقنعة تقولب الاشخاص والمراحل في القوالب الجاهزة الصنع !

ان القاعدة الاساسية التي ننطلق منها هي محاولة فهم اتجاه الجدل وعناصره الفاعلة والمتفاعلة من دون السقوط بالفهم الآلي ، والاهم من دون السقوط بالفهم المثالي .

ان هذه الدراسة ، استنادا الى ما تقدم ، تجهد ، لكشف جدلية الخاص والعام ، وجدلية الذات والموضوع وجدلية الفكر والواقع . لقد استطاع الحلاج بشخصيته الفذة وبتجربته الدينية الفريدة وبفكره ان ينبو ، تارة بالاستناد الى خصوصية نفسيته القريبة ، وتارة بالاستناد الى عمق تجربته الصوفية ، والتي رحل بعيدا فيها متسلقا حينا وطائرا اكثر الاحيان بخياله ، بل وبفكره الذي لا يقل ابداعا عن خياله ، حتى ليفدو ، وكأنبه اصبح خارج مجتمعه وخارج التاريخ ! مضيئا الى اغتراب نفسه واغتراب تجربته واغتراب فكره ، الاغتراب الاشمل ، اي اغترابه في التاريخ عن التاريخ ، وقد اصبح اسطورة ، حتى وهو يتلمس التاريخ والحياة ، انما يتلمسهما في لحظة تؤكد هذه الغربة ،

(١) مختارات المجلد ٢ الجزء الثاني ص ٨٣ (عن الثقافة البروليتاريا ، ١٩٢٠).

بعلاقة غريبة تبدأ بالسجن وتنتهي بقصر الخليفة ، وبفكر جديد عن الانقلاب وعن التغيير ، ليصب كل ذلك في بحر الاسطورة ، فتزداد اشتعالا وهو مصلوب مقطع الاوصال !

ان الاغتراب الاجتماعي ، ليس منظورا ، لانه لا يشكل الا بداية ، ولانه لا يشكل الا نقاطا على الطريق . . ثم يأتي الخيال ، ليقوم برحلته ، مشيرا الى اغترابه الاجتماعي ، وليخلق مجموعة جديدة من الاغترابات الهائلة ، يصبح معها ذاك الاغتراب الاول هينا ، صغيرا في لوحة تاريخية وفوق تاريخية ، تتجادل الافكار فيها بشكل شبه منفصل وكأنها عالم متكامل بحد ذاته ، والذي لا يمكن رده الا لذاته كنسق يخرج عناصره من بعضها بعضا .

اخيرا : ان اعتماد هذه الشمولية ، بطبيعة الحال ، ليس مجرد تركيب وتلفيق ، اذ يبقى الاساس الواضح فيها ، وهو استنادها الى الجدلية التاريخية ، وبمعنى اخر ان الاستفادة من تراث الانسانية يجب ان لا ينسنا ان على الباحث وهو يستوعب هذا التراث ، وهو يعتمد على مكتسبات الانسانية ، عليه ان يعيد صياغتها بما ينسجم مع مرشد العمل ومع المنهج المادي ، بدءا من الخاص باتجاه العام ، وليس العكس !

كتب هذا البحث عام ١٩٦٥ . وقد تم ادخال تعديلات طفيفة عند دفعه الى الطباعة الان . وخلال هذه السنوات برز اهتمام واسع بالحلاج ، وظهرت عدة كتب عنه ، ما هو اساسي فيها ، يمتح من تحليلات ماسنيون واستنتاجاته ، لذا لم نتعرض لهذه الكتب ، ما دام هذا الكتاب بين اخطاء هذا المستشرق بشكل تفصيلي ، والمكررة عند المتأثرين به او الناقلين عنه . ان هذا لا يمنع بطبيعة الحال ، الاشادة على نحو خاص ، باستيعاب شخصية الحلاج الفريدة في النصوص الشعرية او المسرحية التي ظهرت ، والتي حاولت كشف مناخ اخرى من تجربته .

الؤلف

موجز حياته

اضطراب الروايات - رواية ابنه حمد مع اضافات منن
المراجع الاخرى - ولادته ونشأته - اساتذته : التستري ، المكي ،
الجنيد - حجه الاول واختلافه مع المكي - تركه للجنيد - رميه
الخرقة الصوفية - رحلاته - استقراره في بغداد - هربه -
صلبه سنة ٣٠١ هـ - سجنه وقتله سنة ٣٠٩ هـ .

ما نعرفه عن حياة الحلاج ، يكتنفه الغموض والاضطراب، كما في امر يخصه او ينسب اليه، وهناك رواية لولده يعرض فيها موجزا لحياة والده ، وهي رواية مبسطة، لا تتعرض للمناحي المثيرة ، وانما تمس المواضيع مسا خفيفا ، مبتعدة عن كل شائك في قصة الحلاج ، فلتعرض هذه الرواية مكملين بعض ما فيها من نقص من المراجع الاجزى ، كمدخل لما سنعرض فيها بعد عن كل الامور المتصلة بهذه الشخصية القريبة (١) .

ولد الحسين بن منصور (٢) سنة (٢٤٤ هـ - ٨٥٧ م) في البيضاء في موضع يقال له الطور (٣ من قرى فارس) وكنان جده مجوسيا (٤) يدعى محمى .

- (١) توجد رواية ولده في الاصول الاربعة : الترجمة الثالثة : تحقيق ماسنيون، وفي تاريخ بغداد للخطيب ٨-١١٢ .
- (٢) في صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد ان له اسما اخر هو محمد بن احمد الفارسي : ص ٦١ .
- (٣) يذكر ابن نديم في الفهرست ص ١٩٠ ان بلده نيسابور او مرو او الطاقان او من الجبال !!
- (٤) عند برو كلمان ان جده كان زرادشتيا : تاريخ الشعوب الاسلامية ٢-٨٤ .

ولا ندري الا النذر اليسير عن طفولته ، فقد نشأ بتستر حيث انتقل مع اهله، وحفظ القرآن في الثانية عشرة من عمره ، ليتلمذ عند سهل التستري سنتين بعد ذلك .

وفي الثامنة عشرة من عمره (١) سافر الى البصرة ، وفيها تلمذ على عمرو بن عثمان المكي وهناك اصبح الشاب صوفيا، بعد ان لبس الخرقة ايذانا بذلك. وهناك تزوج ايضا ، بنت ابي يعقوب الاقطع ، واثمر هذا الزواج بعد ذلك ثلاثة بنين وابنة واحدة ، وكفل والد زوجته معيشة عائلته ، الا انه غب الزواج بتبدل شيخه، وحدث نزاع شديد بينه وبين حميه . فتضايق الحلاج وتألم، ثم ذهب الى بغداد ليستشير الجنيد كبير المتصوفة في عهده، عارضا عليه ما يلقاه من اذى بسبب الصدام بين شيخه المكي ووالد زوجته الاقطع ، فكان شيخ الملة يأمره بالسكون والصبر .

وبعد سنة ونصف من الاقامة في البصرة ، غادرها الى بغداد ، وفيها تخلف الى الجنيد ، ثم غادره الى مكة حاججا ، فجاور سنة كاملة ، منقطعا للعبادة . وفي مكة حدثت القطيعة الكاملة بينه وبين شيخه المكي الذي اشاع عنه الدعاوي العريضة ومنها قوله « هو ذا اعارض القرآن » (٢) وما مائلها من كلمات . لكن هذه المخاصمة لم تتوقف عند هذا الحد ، اذ بدأ الشيخ بمهاجمة تلميذه ، متهما اياه بالكفر ، ومنكرا على الاقطع تزويجه ابنته ، وكأنه يسعى لتطليقها منه !

ورجع الحلاج الى بغداد (٣) ، وفي بغداد حدثت القطيعة بينه وبين الجنيد ، ونسبه شيخ الملة الى الادعاء ، واصبح واضحا

(١) في الاصول الاربعة (١٥ سنة) وفي المنحى الشخصي لماسنيون (عشرون سنة) ص ٦٩ .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير ١١ - ١٢٥ .

(٣) في المنحى الشخصي لماسنيون ص ٦٦ انه عاد مباشرة من مكة الى الاهواز ، فهو بذلك لم يمر ببغداد ولا بتستر . وكان وعظه في الاهواز .

ان على هذا المدعي ، ان يسير في طريقه وحيدا ، فانتقل الى تستر (١) واعظا ، واقام سنة ، فلقى قبولا ، الا ان كتب شيخه المكي كانت تتالى فيه متهما اياه بالعظائم ، مشككا بعقيدته . واذا بالحلاج يتمرد ، وبحركة انفعالية يرمي الخرقاة الصوفية ، منطلقا على هواه ، مبتعدا عن الشيوخ ، مرافقا ابناء الدنيا .

اما المرحلة الثانية من حياته ، فهي مرحلة سفر وتنقل من مكان الى اخر ، تبتدىء برحلة طويلة دامت خمس سنين ، اذ غاب في خراسان وما وراء النهر وسجستان وكرمان ، ورجع بعد ذلك الى فارس . ثم انتهى الى الاهواز ، واتى بأهله اليه ، ثم خلفهم هناك ، وخرج الى البصرة (٢) فأقام مدة يسيرة ثم حج مع عدد كبير من تلامذته ، وشاع هناك اتهامه بالشعوذة ، فرجع الى البصرة واقام شهرا ثم جاء الى الاهواز واخذ اهله ورجع الى بغداد ، واقام بها سنة ، ثم ترك اهله ، وذهب برحلته الثانية الى بلاد الشرك . فقصد الهند وخراسان وما وراء النهر حتى وصل الى تركستان ثم تعداها الى الصين .

ثم حج للمرة الثالثة ، وفيها قال « تهدي الاضاحي واهدي مهجتي ودمي » (٣) . ليعود الى بغداد بنفسية جديدة ، متمثلا بهذا القول !

فهي مرحلة سفر مستمر من مكان الى اخر ، حج فيها مرتين عدا حجته الاولى وقام فيها برحلتين طويلتين ، عدا عن تنقلاته المستمرة بين تستر والاهواز وبصرة وبغداد .

بعد حجه الاخير ، كان الحلاج يختتم عقده الخامس ، فاستقر في بغداد وبنى دارا ، وتغير عما كان عليه في الاول . واذا بالاستقرار يخفي نزعتة الوثابة التي تظهر بشكل اخر ، واذا به يستقر في المقابر ليلا مصليا بالقرب من ضريح ابن حنبل! وفي

(١) راجع الهامش السابق .

(٢) في المنحنى الشخصي ص ٦٧ انه عاد من الاهواز الى بغداد وليس البصرة .

(٣) المنحنى الشخصي ص ٦٨ عن الديوان ٥١ .

النهار يدور في الاسواق صارخا وباكيا ، مطالبيا الناس بقتله ، فهو يريد ان يموت كافرا .

وراجت اجابته للشبلي : «انا الحق» . فطالب القاضي محمد بن داود ، وهو فقيه سني ظاهري ، بمحاكمته ، وطالب بقتله ، الا ان احد الشيوخ الشوافعة ، وهو ابن سريج ، رفض طلبه ، لان الالهام الصوفي لا يخص المحاكم الشرعية .

ولما اتى الوزير ابن الفرات ، غب ثورة ابن المعتز الفاشلة سنة ٢٩٦ هـ ، اصدر امرا بالقاء القبض على الحلّاج وتلامذته . لكن الحلّاج هرب على الرغم من طلبه الموت بتلك الصورة الاستعراضية المثيرة في اسواق بغداد .

وفي المرحلة الرابعة من حياته ، والتي استمرت كسابقتها ثلاث سنين ، او اربع ظل مختفيا ، يتحرك سرا ، الى ان القسي القبض عليه سنة ٣٠٠ هـ في سوس من الاهواز ، فانكر ان يكون الحلّاج ، لكن الشرطة تعرفت عليه ، واحضر الى بغداد .

كان الوزير انذاك هو علي بن عيسى ، الذي امر بمناظرته ، فنوظر وصلب سنة ٣٠١ هـ بتهمة القرمطة والحولية والسحر ، ثم اودع السجن .

ومن سنة ٣٠١ هـ الى سنة ٣٠٩ هـ قضى الحلّاج هذا الشطر متنقلا من سجن الى سجن . وكان عدد من حاشية الخليفة قد سمعوا به واصبحوا من اتباعه ، وعلى رأسهم نصر القشوري ، فحموه واكرموه في سجنه الى ان نقل الى دار السلطان بعد ان عظم شأنه .

وفي سنة ٣٠٣ هـ ادخل على الخليفة وشفاه من علة به ، فلقي قبولا ورضا ، وكانت والدة الخليفة تحابيه وتؤمن بورعه . ولما عاد ابن الفرات وزيرا (٣٠٤-٣٠٦) لم يفتح قضيته من جديد ، وفي سنة ٣٠٥ هـ شفى الحلّاج ببغاء لولي العهد او احياه بعد موته ! وقد عظم امره وكثر الحديث فيه وفي اقواله وافكاره . واثت وزارة جديدة على رأسها علي بن عيسى الذي صلبه

في المرة الاولى ، والوزير حامد الذي القى القبض عليه في سوس ، اتت هذه الوزارة سنة ٣٠٦ هـ بعد ازمة مالية ، وخلال ذلك احيل الحلاج الى الوزير لينظره من جديد ، فلم ينظره ، فأحيل الى حامد سنة ٣٠٨ هـ بعد ان كثرت الاقوال في سحره وادعائه الالوهية وبعد ان شاع الحديث عن تلامذة له يعبدونه . فاستلمه حامد وقدمه للمحاكمة التي رأسها القاضي المالكي ابو عمر الحمادي المعروف بتملقه لرؤسائه . واحضر عددا كبيرا من الشهود ، ونوظر الحلاج ، فثبت ، وانكر الدعاوي ضده ، الى ان وقع في قضية فقهية تمس الحج وتبدل معناه ، فأدانه القاضي واحل دمه ، ووقع بقية القضاة . وفي ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ - ٩٢٢ م جلد وصلب وقطعت يداه ورجلاه ثم قطع راسه واحرق جثمانه !

شخصية الحلاج

صورة الحلاج - حساسيته - انسانيته - انفعاله وسرعة
غضبه - سرعة تأثيره - الجرأة والتحدي - حيويته - تقلبه -
جديته - تجربته الوجدانية واسلوبه الغريب - قلة كتابته - اراء
حول انه مصروع ومجنون ومهستر - رد ذلك - هو اقرب الى
مرض البارونيا - رفض وصمه بالمريض لان هذا لا يتلف مع كل
حياته - شخصيته : دموية او غضبية - شخصيته التاريخية
والاجتماعية.

كيف كان الحلّاج ؟

نهى الاسلام عن التصوير ، وخاصة تصوير ذوي الارواح، بيد انه يمكن الاستعاضة عن ذلك بالاعتماد على الوصف الحسي للتكوين الشكلي ، وان كان هذا لا ينوب عن الصورة الفعلية تماما. وبالنسبة للحلّاج ، لا نجد صورة له ، وكذلك لا نجد اي وصف حي لشكله وما بأيدينا عنه لا يتعدى بضعة كلمات لا غير .
واول وصف له نجده وهو شاب ، وهو وصف مقتضب جدا ، وفيها نرى الشاب حسن الوجه والمنظر (١) .
ويذكر الخطيب ان له « حسن عبارة وحلاوة منطلق » (٢) ولا بد ان ابن كثير نقل عنه مع تبديل طفيف بالعبارة اذ يقول «وقد كان الحلّاج في عبارته حلو المنطق» (٣) . ويذكر لنا الخطيب

-
- (١) اخبار الحلّاج : تحقيق ماسنيون وكراوس ص ٣٨ .
 - (٢) تاريخ بغداد : الخطيب ٨-١١٢ .
 - (٣) البداية والنهاية : ابن كثير ١١-١٣٣ .

صفة اخرى بقوله « كان حسن العشرة ، طيب الصحبة » (١) .
وينقل ابن كثير رأي والد زوجة الحلاج به فيقول « زوجته ابنتي
لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده » (٢) .

ثم يغيب الحلاج ، ولا نقع على وصف اخر له الا عندما
يزوره محمد بن خفيف في السجن وكان الحلاج انذاك عجوزا،
فيذكر هذا قائلا « فرأيت حسن الوجه ، لطيف الهيئة عليه الهبة
والوقار » (٣) .

وكل هذا لا يقدم لنا صورة واضحة عن تكوين الحلاج، لكن
بالاستطاعة ان تكون صورة واضحة عن شخصية الحلاج باستقراء
اخباره ، فهذه الاخبار تقدم لنا صفاته بصورة جيدة ، وان لم
تقصد الى هذا ، مما يلقي ضوءا على تصرفاته وتجربته .

- ٢ -

الحلاج انسان رقيق النفس ، شديد الحساسية ، سريع
التأثر ، واول ما نلمحه شابا نجده بهذه النفسية الهادئة والسمحة
والرقيقة .

لننظر في حادثة العدا بين شيخه عمرو بن عثمان المكي ووالد
زوجته ، فهي حادثة عادية وبسيطة جدا : الشيخ غير راض عن
الزواج ، متنكر له ، وينازع الاقطع ، ويتراشق معه التهم
مظهرا الكراهية ، فاذا بالحلاج حزين مهموم ارق ، يسعى لازالة
هذا البفض ، شاكيا امره الى الجنيد ، وكأنه لا يستطيع السكوت
او الرضا عن هذا النزاع بين استاذه وحميه وان كان الكره لا
يصيبه ، فينصحه الجنيد بالصبر ، فيصبر مدة الا انه لم

(١) تاريخ بغداد : ٨ - ١٢٠ .

(٢) البداية والنهاية : ١١ - ٣١٥ .

(٣) اخبار الحلاج : ص ١٠٢ .

يستطع الاستمرار فذهب الى مكة بعد ان شعر ان الكره انتقل اليه ايضا .

ولننظر اليه بعد عودته من الحج نجد شابا خجولا متأدبا ، والذي يسمع الكلام ساكنا دون ان ينطق فاذا سأل كان عميق التفكير ، بعيد الغور ، تؤرقه المسائل المتناقضة في هذا الكون ، فاذا ما صدم من رد ، انسحب الى نفسه ، مستكينا الى وحدة عجيبة في مقبرة ، متألما للرد العنيف ، ومتألما لانه لا يجد ما يشبع نهمه ، فاذا ما هدأت شجونه رد بكبرياء ورجولة ، ذاك ان شدة الحساسية ورقة النفس لا تتنافيان بل تتناغمان مع الكرامة وعزة النفس .

قصد الجنيد ، وجلس امامه سويعة صامتا ، ظانا نفسه في مأمن لدى شيخ الملة الجليل واذا بهذا ينظر اليه النظرة ذاتها ، دون ان يتفهم روحه المتعطشة للمعرفة ، حاسبا اياه انسانا مدعيا ، لا ينتظر منه شيء كثير .

سأله الحلج :

— ما الذي باين الخليفة عن رسوم الطبيعة ؟

فاذا بالشيخ يحثد منتهرا :

— ان في كلامك فضولا ، لما لا تسأل عما في ضميرك من الخروج والتقدم على ابناء جنسك . ولا بد ان الحلج وجم لهذا الهجوم غير المتوقع فطأ رأسه الما ، دون ان يلبث هذا من جذوة الجنيد الذي قال في غضب :

— اية خشبة تفسدها .

فخرج الشاب متألما مفتربا ، دهشا من عنف الشيخ ! ودخل الحلج احدى المقابر « وقعد في زاوية ووضع رأسه على ركبتيه » يفكر بمصيره القاسي الذي يسير فيه ، ويتأمل هذه النكسات التي تتعقبه ، فلا صديق ولا شيخ يقف بجانبه ويشد ازره .

وفي صمت المقبرة، هذا الصمت الموحش رات عيناه الطريق

الموحش الوحيد الذي عليه ان يسير فيه منفردا ، ولكن كيف يفعل العلاج ذلك وهم يعلم ان من لا شيخ له فالشيطان شيخه ؟
اعتذر القاص عنه للجنييد فقال العلاج :

— ليس له الا منزلة الشيخوخة ، وانما منزلة الرجال تعطى ولا تتعاطى « (١)

انه لم يقرر ترك الشيوخ الا لانه يعرف بأن الطريق بين القمم وفوقها لا يسلكه الانسان التابع ، بل الانسان الرائد الذي يكتب بدمه ما يريد . الانسان البعيد عن نحيب وغرور الاخرين ، والذي يخلف السفن الهينة خلفه ، منفردا عن القطيع ، ليصل الى حبيبه الاول ، راميا عنده بعواطفه وافكاره ، مستسلما له وحده ، لانه وحده من يستحق العناء والجهد . اما سواء فتركهم وان كان يضيق به ويتألم منه فهو ضروري وواجب .
ومما يمت الى هذه الحساسية الوجدانية حبه الالهي الذي حطم من خلاله كل القيود ليكون حبا خالصا لا تشوبه شائبة ، كما ان صداقته لابن عطاء مثلا صورة عن هذه العواطف النبيلة النزيفة والتي لا يحدها حد .

ومن يملك هذا الوجدان الرقيق سيكون شعوره الانساني واضحا ، وليس المعنى بذلك التسامح الديني ، بل ما هو اشد انسانية بعمقه ، الا وهو الاخوة البشرية التي تجعل البشر كلهم اخوة لان اصلهم الالهي واحد ، والتي تجعل الدين اي دين هو المحبة ، لذلك ، ما من فرق بين مسلم ونصراني لان كل الاديان تسعى الى هدف واحد من الصفاء النفسي والعلو الروحاني ، ولذلك لا يسأل الانسان — كما يقول — عن دينه بل يسأل عن اصله الالهي وكم استطاع ان يصعد في تحقيق هذا الاصل الرفيع !

(١) انظر الى القصة كاملة في اخبار العلاج ص ٣٨ .

سمع احدهم يهين يهوديا فنظر اليه شزرا ، ولما اتاه هذا
اعرض عنه الى ان اعتذر فقال له :

« يا بني ، الاديان كلها لله عزوجل ، شغل بكل دين طائفة
لا اختيارا فيهم بل اختيارا عليهم ، فمن لام احدا ببطلان ما هو
عليه فقد حكم انه اختار ذلك لنفسه وهذا مذهب القدرية
(يقصد المعتزلة) « والقدرية مجوس هذه الاممة » واعلم ان
اليهودية والنصرانية والاسلام وغير ذلك من الاديان هي القاب
مختلفة واسام متفاوتة والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف
ثم قال :

تفكرت في الاديان جدا محققا

فالفيتها اصلا له شعب جما

فلا تطلبن للمرء ديننا فانه

يصد عن الوصل الوثيق وانما

يطالبه اصل يعبر عنده

جميع المعالي والمعاني فيفهما (1)

وهذه الابيات تذكر بأبيات ابن عربي المماثلة في معناها :

لقد صار قلبي قابلا لكل صورة

فمرعى لفرلان ودير لرهبان

وبيت لاوثان وكعبة طائف

والواح توراة ومصحف قرآن

ادين بدين الحب انى توجهت

ركائبه فالحب ديني وايماني

الا ان الفرق الجوهرى بين هذين الصوفيين ، يتمثل بأن

الحلاج عاش افكاره تماما ولذا نجده يعني ما يقول ، بينما نجد

ابن عربي ، ولو كتب مثل هذه الابيات الجميلة والزاهية الا ان

اخبار حياته تنبهه الى كونه شديد التعصب ضد الاديان

الاخرى !!

(1) اخبار العلاج ص ٧٠ .

على ان شدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، والنفس الرقيقة
تسلمنا الى صفة بالحلاج اهم وابعد اثرا ، وهي التي تميز
شخصيته الانفعالية .

عيناه كشعلتا نار (١) تنفذ في الاجساد وتكشف ما فسي
النفوس ، عالما باسرار والخفايا ، مشاهدا مكنون ما غاب
وخبىء (٢) !

وهاتان العينان هما عينا انسان محب ايضا ، بهما يبكي
هجر حبيبه وابتعاده ، وما اكثر ما بكى ، يبكي فيبكي الناس له ،
فاذا سكن اخذ يزعم ويصيح ثم يضحك ضحكات عالية مرة تكون
ضحكة الساخر ، ومرة ضحكة المتكبر ، ومرة ضحكة الحائر
او الخائف او المتمرد الذي يلذ له ان يستأثر باهتمام الاخرين ،
ويلذ له ان يحير عقولهم البسيطة وهو يرى نفسه يطوي آفاقهم
بعيدا . يبكي ويضحك ثم يصبح متواجدا ، ليثب راقصا في
وسط الحلقات ، مرسلا كلماته العجيبة ومنشدا اشعاره
الاعجب ، ولا فرق عنده اكانت الحلقة في بيت صوفي يحيط به
اهل المراقع او في جامع اجتمع حوله المعجبون او المنكرون ، او
في الاسواق وقد تحلق حوله العوام مستغربين !

« وعن ابن الحداد المصري قال : خرجت في ليلة مقمرة الى
قبر احمد بن حنبل رحمه الله فرايت هناك من بعيد رجلا قائما
مستقبلا القبلة ، فدنوت منه من غير ان يعلم ، فاذا هو الحسين
ابن منصور وهو يبكي ويقول . . . فلما احس بي التفت وضحك
في وجهي ورجع وقال لي : يا ابا الحسن ، هذا الذي انا فيه
اول مقام المريدين ، فقلت متعجبا ما تقول يا شيخ ! ان كان هذا

(١) اخبار الحلاج ص ١٤ .

(٢) انظر الى احدى قصص فراسته في اخبار الحلاج ص ٧١ .

أول مقام المريدين فما مقام من هو فوق ذلك ؟ قال : كذبت هو
أول مقام المسلمين ، لا بل كذبت هو أول مقام الكافرين ، ثم زعق
ثلاث زعقات وسقط وسال الدم من حلقه . وأشار الي بكفه ان
اذهب ، فذهبت وتركته فلما أصبحت رأيته في جامع المنصور
فاخذ بيدي ومال بي الى زاوية وقال : بالله عليك لا تعلم احدا
بما رأيت مني البارحة » (١) .

فهو في حالة عجيبة ، يجلس في مقبرة باكيا ، فاذا ما
شعر بمراقبة ضحك ! ثم اذا به يذكر هذه الكلمات
المتناقضة ، ليزعق صارخا في انفعال عجيب ، فاذا ما هدا في
اليوم الثاني خاف ورغب بالتستر !

وحالات انفعاله هذه كثيرة ، منها ما هو في الاسواق
كما في سوق القطيعة » ثم بكى حتى اخذ أهل السوق في
البكاء ، فلما بكوا عاد ضاحكا وكاد يفهقه ، ثم اخذ في الصياح
صيحات متواليات مزعجات . . » (٢) وما اكثر صراخه في
الاسواق !

ومنها ما هو في حلقات الشيوخ : « فقال القوال وطاب
وقت القوم . ووثب الحلاج وسطهم وتواجد تواجدا تلالا منه
انوار الحقيقة (٣) .

على ان شدة انفعاله تتبدى اذا ما سئل في موضوع خطر ،
فاذا بوجنتاه تحمران (٤) مجيبا بجرأة دون تلوؤ !

ويأخذ انفعاله في بعض الاحيان صورة عجيبة : « قال
بعضهم : رأيت حسينا الحلاج وقد سمع قارئنا يقرأ فأخذه وجد
فرايته يرقص ورجلاه مرفوعتان عن الارض » (٥) او كما يذكر

(١) اخبار الحلاج ص ١٩ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٥٤ .

(٣) اخبار الحلاج ص ٥٩ وص ١٤ .

(٤) اخبار الحلاج ص ٧٤ .

(٥) اخبار الحلاج ص ١٢٣ .

آخر « فرأيته قائما » على هامة رأسه .

وربما قيل ان هذا الذي ذكرته عن انفعاله والمتبدي في بكائه
وضحكه ورقصه انما هو رد فعل على تلك الحالة الروحية
التي وصل اليها الحلاج ، فلا يمكن ان نوصم شخصيته بوسم
يلتصق بساعات من الوجد دون غيرها . بيد ان شخصية الحلاج
الانفعالية تتبدي في نواح اخرى .

من ذلك ان الحلاج دخل اصفهان وكان علي بن سهل يتكلم
في المعرفة ، فاذا بالحسين يقول له بفضب :

- يا سوقي ، تتكلم في المعرفة وانا حي (١) !!

مما اكسبه عدوا جديدا ، ومما سبب طرده من اصفهان، اذ
اجتمع الناس واخرجوه منها .

ومن ذلك ايضا ان صديقا للشبلي سألوه وهو مصلوب : ما
التصوف ؟ فاذا به ينظر اليه شزرا (٢) ليرد بتعال وسخرية
لا مبرر لهما .

واما قمة انفعاله فهي تلك الحركة الانفعالية في اول
شبابه ، عندما رمى الثياب الصوفية ردا على مهاجميه ، وهي
حركة تدل على النزوع الوجداني القوي دون حساب ودون
تفكير . وهي بلا شك تشير الى نفسيته السريعة الغضب ، التي
تنفجر كالبركان دون اهتمام بالعواقب !

اذ انه بعد الاصطدام بالجنيد ذهب الى تستر ولقي قبولا
واستحسانا هناك ، فارتفعت مكانته وعظم شأنه لكن نفسه المتوثبة
لم تجد الهدوء ولم تعثر على السلوى ، وأن له هذه الروح
المتأججة ان تعرف الاستقرار ونعمة الراحة بعيدا عن القلق
والاضطراب ، واولئك اعداؤه وهم شيوخه بالامس يزكون لفح
اللهيب ، مرسلين الرسائل تتكلم فيه بالعظائم ، محرضين

(١) اخبار الحلاج ص ٢٨ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٢٧ .

الناس عليه دون أن يتركوه سليما ، وكأنه في قمته لا يثير في الاغيار غير الحسد والغيرة بدل ان يبعث وجوده تفتحا في النفوس وسموا في الاخلاق : هذا زنديق فاسجنوه ، هذا كافر فاقتلوه وتضطرم النيران في نفسه فيرمي ثياب الصوفية نابذا الخرقة منصرفا عن دلالة هذا اللباس الى مصاحبة ابناء الدنيا .

وهي خطوة ضخمة في ثورات الحلاج ، وقمة تحول فسي احساسه بل ووعيه . انه بعد اصطدامه بالشيخ ونبذه لهم ، شعر بزيف ونفاق هذه الفئة ! فلو انهم كما يدعون ارباب صفاء واصحاب وجد لفهموا احواله ولاحلوه مهجهم عوض الاعراض عنه ومهاجمته وبدل ملاحظتهم له بالتحريض المدرى . انهم يغالطون والرمز في هذه المغالطة هو هذا اللباس الذي قدم له ، فكان لا بد من نبذه كما نبذهم ! انها عملية خطيرة جدا ، الا ان نفسه الانفعالية لم تعبأ ، فرماه وانطلق في الشارع على هواه ، ليشرع في نسج رؤياه كما يريد دون قيد ، ناطقا بما يشعر دون خوف او تقية ، فلا اسرار في الوجد !!

ومن جانب آخر . ان الحلاج بحيويته المتدفقة ، فكرا وارادة وانفعالا ، لم يستطع ان يكون مرآة لغيره ، ولا يرغب الاساتذة من تلاميذهم الا هذا ، ان يكونوا مراياهم ، يرون فيهم وجوههم التي نالها التعب ، فيمتثلون نشاطا وهم يرون هذه الدماء الحارة ترفد اجسادهم ! ولم يكن الحلاج بقادر وهو على ما هو من القوة والانفعال ان يمثل هذا الدور الصغير فاختر طريقه ، وحلت عليه لعنتهم . وما كان له ان يقتل انفعالاته ارضاء لشيخه فيسكت عن هجومهم ويعترف بخطئه انقاء لفضبهم . فهو قد حطم اغلاله ، وسار غير مهتم ، يقفز هنا وهناك ، ثائرا ، باحشا ، صاعدا في مقامات رحلته الروحية حتى وصل القمة ، ناظرا الى الجميع باحتقار ، فقد خلفهم في الاودية القاحلة والجافة !

فهو سريع الانفعال اذا ، كثير البكاء ، غضوب ، توجهه

انفعالاته وتسيطر على افعاله واقواله .

ويجدد بنا ان نلتفت الى تقلب انفعالاته ، فهو يبكي ثم يضحك ، وربما كان في عبادته او صلاته ، مغمورا ، منهكا لا يشعر بأحد ، فاذا ما شعر بأحدهم ضحك . فما تعليل ذلك؟ هل يسخر الحلاج من معاصريه ؟ الا يدل هذا على مكره !؟ ان الطفل الذي يبكي ثم ينقلب للضحك سريعا ، تسيطر عليه انفعالاته . والحلاج لم يكن طفلا ، اذا فهو هذا الانسان الذي يشعر بقيمة نفسه ، ويدرك اي مرتقى وصل ، ويعرف الوضع الذي وضع نفسه به !

فهو غريب الاطوار ، غريب التصرفات لهذا التعالي الذي يدركه ، ومما يتصل بذلك صلة قوية انفراده ووحدته ، كيف لا، وهو اذا استوحش انفرد الى جانب قبر . انها غربة النفس ، المنسحبة الى ذاتها ، المتوقعة داخل شرنقتها ، من نفسها تتغذى وفي نفسها تجد السلوى ، بعيدا عن الجميع !

- ٤ -

والجراة ثم التحدي من الصفات المقترنة بالانفعال، والحلاج الانفعالي كان جريئا في خطواته محبا للتحدي بأعلى صورته . فمن جراته وتحديه عدم اهتمامه بالآخرين ، من كبر منهم ومن صغر ، اكان استاذا اتصل به كعمر المكي ، او شيخا كبيرا كالجنيد ، او صديقا كالشبلي ، وهؤلاء الثلاثة من اعلام الصوفية الذي يستشهد بهم بكل أمر .

واول بادرة نلمحها من جزاته وجسارته وتحديه ، اذا صح ما ذكره المكي عنه اذ قال : « كنت اماشي الحلاج في بعض ازقة مكة ، وكنت اقرا القرآن فسمع قراءتي فقال : يمكنني ان اقول مثل هذا ففارقته » او يمكنني ان اؤلف مثله واتكلم به ، وفي رواية ثالثة ان عمرا بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة

- ٢٩ -

وهو يكتب شيئاً في اوراق ، فقال له : ما هذا . فقال له : هو ذا اعارض القرآن (١) !!

فأي تحد أكبر من هذا ، والفتى لم يتجاوز بداية العقيد الثالث ، فاذا به في مستوى النبوة ، بل في مستوى ارقى . ساخرا من استاذة سخرية لاذعة . كمن يقول له : انني تعديتك وتعديت علمك وشخصيتك وحلقت فوقك . . ولا عجب بعد ذلك ان يفهم المكّي هذا واكثر من هذا فينبري له بقوة ، بل اننا لنقع عليه وهو يتهمه بسرقة احد مؤلفاته ويهرب بها ، متجنيا عليه (٢) . وكان تلك السخرية والتحدي والجرأة ملأت قلبه بالكراهية الشديدة ، وجعلته لا يسكت عنه ابدا ، مطلقا اشاعته في كل مكان ، مرسلا الكتب وراء الحلاج ، مهاجما ومكفرا .

وهذه السخرية من الشيخ فيها الغرور مثلما فيها الجرأة المخيفة والتي كان الحلاج يمتلكها . وفيها يعلن خروجه عن دينه ! ويضع نفسه في موضع ما تخيل احد ان يتطلع اليه لذا يمكن ان ننعته بأنها جرأة انفعالية ، وكأنه اراد بها ان يشبع نهم فكرة وردت الى ذهنه ، اكثر مما اراد ان يقيم هذا الامر الخطير في نفسه ، فهو - بذلك - يجري الكلام دون تحديد او تفكير عميق . ولا نعتقد ان الحلاج وهو في حوالي العشرين ، يمكن له ان يفكر التفكير العميق بهذا . ولذا فهو يرسل ما في قلبه الى لسانه بان دفاع وسرعة ، فصفر سنه يساعده على ذلك ، عدا عن طبعه الذي يمكنه من ذلك .

ومن مظاهر جراته وتحديه ، تعرضه لشيخه الجنيد ، وقد

(١) الاصول الاربعة : تحقيق ماسنيون . الاصل الثاني . تاريخ بغداد ١٢١/٨ البداية والنهاية ١٣٥/١١ وفي المنحنى الشخصي لماسنيون اورد ان قول الحلاج كان : هو شبيه بالقرآن .

(٢) وردت قصة اتهامه بالسرقعة في اللمع للطوسي ص ٤٩٩ .

كان يخطب على المنبر ، فاذا الحلاج يقول له : يا ابا القاسم ان الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده في العلم ، فان كنت في العلم فالزم مكانك والا فانزل . فنزل الجنيد ولم يتكلم على الناس شهرا (١) .

ولا ادري ما الذي اثار الحلاج ، ليقف هذا الموقف ، ويجعله يتحرك هذه الحركات ، ان لم تكن شخصيته الانفعالية المتميزة بالتحدي والجرأة .

ومن مظاهر تحديه ايضا موقفه من الشبلي ايضا ، الا ان الجرأة تصبح هنا ذات مدلول خاص ، نعتها المتصوفة بكشف الاسرار وفضحها ، وهو مما لا يجوز ان يصنعه الصوفي ، وبمعنى آخر ، ان الصوفي يعبر خلال مرحلته الروحية مراحل عدة ويرى اشياء واشياء ! وعليه ان يكتف ما رأى ويستتر عما وقع له من الانوار الالهية ! والحلاج كان من الاشخاص الذين لا يعرفون للسر معنى ، وهو لا يكتف شيئا من تجربته ، ما في قلبه على لسانه ، وكم عاب المتصوفة عليه هذه الجرأة وهذا الكشف .

والروايات حول ذلك مختلفة الا انها متقاربة ، فهو يقول « انا الحق » للشبلي « وقد اخفى عينيه نصف اخفاء بطرف كفه » (٢) فرد الشبلي : أنت بالحق .

او قال له « انا الله » فقال الشبلي : أنت بالله . ستفسد خشبة . فنفض كفه في وجهه وأنشد . الخ (٣) .

فهي صورة اخرى من هذه الجرأة غير الخائفة ولا الوجلة ، بله اخفاء عينيه ونفض كفه بوجه صديقه غاضبا ، والتي تشير

(١) الحلاج : طه عبد الباقي سرور ص ١١١ . ولم يذكر المؤلف مرجعه برواية القصة

(٢) المنحنى الشخصي : ماسنيون ص ٧٠ .

(٣) اخبار الحلاج : تحقيق ماسنيون ص ١٢١ وانظر الى القصة كاملة ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

كذلك الى انفعاله السريع .

ذلك ان الجراءة توصل الى التمرد ، وليس للتمرد حدود ،
والحلاج تمرد على التقاليد المرعية عندما رمى الخرقنة
الصوفية منطلقا على هواه ، ومبتعدا عن اساليب الصوفيين ،
هاربا من صورة العالم المؤثر في مستمعيه بما يعيد عليهم من كلام
الفوه ولا يملونه لانه زاد نفوسهم التي تبحث عن الاطمئنان ،
ومبتعدا صورة الشيخ الوقور الذي يلقي القبول والاستحسان لما
يظهره من ادب وتواضع .

تمرد وثار ، ومكنته من ذلك شخصيته الانفعالية ، وساعده
استسلامه للجراءة والتحدي ليمضي في الطريق الى نهايته ، وقد
مضى !

ولم تكن جراته بادية في صعود هذه القمم الخطيرة
والمهلكة فحسب ، بل انه كان جريئا على الحكام ايضا ، فهو
يصرخ بالوزير ابن عيسى قائلا : « قف حيث انتهيت ولا تزدد
عليه شيئا ، والا قلبت عليك الارض » !

ولا ندري كيف سيقرب الحلاج الارض ، الا ان المؤرخ الذي
اورد هذا الكلام تابع قائلا « فتهيب علي بن عيسى مناظرته
واستعفى منه !! (١) .

ومن جراته ايضا وقوفه الطويل امام الوزير حامد وقضائه
خلال المحاكمة الطويلة التي دامت شهورا ، وهو يرد على التهم
مفتندا بعضها ، قابلا لبعضها مما ادى الى احلال دمه .
وقد لخص ابن نديم هذا الحديث الذي ذكرناه عن جراءة
الحلاج بقوله :

« وكان جاهلا ، مقداما ، متدهورا ، جسورا على
السلطين ، مرتكبا للعظائم يروم اقلاب الدول ، ويدعي عند
اصحابه الالهية ويقول بالحلول .. » (٢) .

(١) صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد ص ٦١ .

(٢) الفهرست : ابن نديم ص ١٩٠ وتجارب الامم ، ابن مسكويه .

وصفة الحيوية تطبع شخصية الحلاج بطابع مميز تضاف الى غيرها من الطبائع ، وقد مر معنا شيء من حيويته ونشاطه الواضح بكثرة عباداته ، وانصرافه اليها اكثر وقته ، غير ان صفة الحيوية تظهر على نحو اوضح في هذه التنقلات المستمرة من مكان الى مكان ، فهو لا يكاد يستقر في مكان حتى ينتقل الى غيره ، وهو وان استقر في مكان شغل الناس وشغل نفسه بحركاته ورقصه وبكائه واقواله وافعاله .

والسياحة صفة ملتصقة بالعديد من الصوفيين ، فهم لا يستقرون في مكان ، واكثر ما كانوا يتوجهون نحوه هو البيت العتيق ، الا ان احدا منهم لم ينافس الحلاج في سياحاته . فقد حج ثلاث مرات ، وجاور سنة ثم سنتين . وانطلق مرتين في رحلة طويلة الى الشرق الاقصى دامت اولاهما خمس سنين ولا احسب ان الرحلة الثانية استهلكت زمنا اقصر . وقبلهما وبينهما وبعدهما كان دائم الترحال من بغداد والبصرة والاهواز وتستر ، وغيرهم من المدن . ومن سخرية القدر انه في الفترة التي استقر بها مجبرا عندما سجن ، كان دائم التنقل من سجن الى سجن ايضا . وعدا هذا لا نجد الا فترة استقرار دامت اربع سنوات تقريبا قبل ثورة ابن المعتز سنة ٢٩٦ ، ولا احسب انه عندما فر هاربا كان مستقرا في مكان بعينه خلال الاربع سنوات تقريبا التي كان مختفيا فيها اثر ذلك الى ان قبض عليه سنة ٣٠٠ هـ في سوس .

والسياحة لها اسبابها ، وبالنسبة للحلاج تعددت اهدافه فهو مرة يذهب ليتعلم السحر ! ومرة يريد التبشير بدين الاسلام في بلاد الكفر ! ومرات يهرب من مهاجميه او مطالبيه من رجال الحكم او عندما يكثر الكلام فيه . لكن ان نظرنا الى الموضوع على نحو اعمق وجدنا السبب في انفعال الحلاج وحيويته ، فهو قد

حج للمرة الاولى بعد ان ازداد الالم به من جراء المخاصمة - بسبب زواجه - بين شيخه المكي وحميه الاقطع . وسافر من بغداد الى تستر بعد اصطدامه بالجنيد ، وسافر من تستر الى بلاد الترك بعد كثرة الهجوم عليه ورميه الخرقه الصوفية . وكل هذه الاسباب انما كانت بسبب موقف الحلاج وانفعاله وسرعة غضبه وسرعة تأثره او كما يقول ابن نديم عندما وصفه بالتهور . فهو لم يكن يسبح بل كان يشرد في البلاد يمينا وشمالا كما ذكر ابو يعقوب الاقطع (1) اذ حج للمرة الثالثة لما كثرت عليه الاقاويل، وطرد من اصفهان لما هاجم شيخها مخاطبا اياه : يا سوقي . ولقد هرب عندما طلبه الوزير ابن الفرات . فهي تنقلات اضطرارية اذا ، صنعتها مواقف الحلاج وشخصيته .

ولقد كان بإمكان الحلاج - رغم كل شيء - ان يبقى في مكانه ، لكن نفسيته ما كانت تستطيع الركون والسكوت ، انه يريد الحركة والانطلاق ، لا يصبر ، لا يحتمل ، حساس ، انفعالي فائض القوة ، مختزن بالحيوية . وهذا بالطبع يعكس صفة جديدة تضاف وتكمل باقي صفاته ، الا وهي انه انسان متقلب .

- ٦ -

ولقد كان الحلاج متقلبا ، لا يدوم على حال ، من ابسط الامور الى اعقدها واقواها ، من ملابسه ، الى اسمائه ، الى طلبه امرا وارثداده عنه ، الى اعتناقه فكرة والتنصل منها اذا صحت كل تلك الاخبار عنه .

« كان الحلاج يتلون في ملابسه فتارة يلبس لباس الصوفية وتارة يتجرد في ملابس زرية وتارة يلبس لباس الجند ويعاشر

(1) البداية والنهاية ١٢٥/١١ .

ابناء الاغنياء والملوك والاخيار (١) . وكان الحلاج في بدايته يلبس مرات المسوح ومرات الثوب ومرات الشاشية (٢) وفي مرجع آخر و « مرة يلبس المسوح واخرى يمشي بخرقتين مصبغتين او الدراعة والعمامة او القباء (٣) . ومرة نفهم انه يهتم بمظهره وشكله ومرات لا يهتم ولا يعبا ، اذ لا يبدل مرقعته وبرنيس رأسه خلال سنين سبع ، وكلما قدم له ازار تصدق به ، فاذا ما اتى العيد لبس السواد قائلا هذا لباس من يرد عليه عمله (٤) .

والانسان الان يستغرب لما هذا الحديث عن التلون ، الا يحق للانسان ان يلبس ما شاء وهل اذا بدل ملابسه اعتبر متلونا ومتقلبا ؟ لكن الان غير الامس . والظاهر انهم كانوا يشددون على الملابس ، فمن ذلك ان المتوكل «نهى عن استعمال اهل الذمة في اعمال السلطان على ان يخرجوا بلباس خاص . .» (٥) و « ان يركبوا الحمير والبغال في مراكبهم فقط دون الخيل » (٦) وكان لكل جماعة نوع من اللباس يعرفون به ، فما بالك بالشيـوخ، الذين لهم الى الان لباسهم الخاص ، فما بالك بشخصية تلفت النظر كشخصية الحلاج الصوفي ! وهذه الكثرة في التبديل ! حتى في اسمه كان متقلبا ، ففي كل ناحية له اسم ولقب، فهو المغيث والمقيت والمميز وابو عبدالله المزاهد ، وحلاج الاسرار، والمجيب ، والمصطلم (٧) . وبالنسبة لنا هو : الحلاج ، « الحسين بن منصور ، ابو حمد » وعند ابن كثير ابو المغيث ، وعند عريب

(١) البداية والنهاية ١١-١٢٤ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٠٠ .

(٣) الاصول الاربعة : الاصل الثالث .

(٤) اخبار الحلاج ص ٤٦ و٤٥ .

(٥) الكامل : ابن اثير ٧-٥٢ اخبار سنة ٢٢٥ .

(٦) الكامل : ابن اثير ٧-٧١ اخبار سنة ٢٢٩ .

(٧) الاصول الاربعة : الاصل الثالث ، تاريخ بغداد ٨-١١٢ .

ان له اسما اخر هو : محمد بن احمد الفارسي (١) .
وفي كل هذا دلالة خارجية ، وربما كانت دلالة بسيطة الى
حد ما ، لكن العلاج في قلبه لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه
الى ما هو اعظم شأنًا . . لقد عاد سنة ٢٩٢ هـ تقريبا الى بغداد ،
ويروي ابنه بأنه تغير عما كان في الاول اذ اقتنى العقار وبنسى
دارا ودعا الناس الى معنى لم يقف عليه (٢) !
وفي اخباره نجد شيئا عن هذا المعنى ، اذ كان يطالب
الناس بقتله لانه لم يبق يستطيع البقاء بعيدا عن الله ، ولانه
يشعر بضرورة موته مقتولا .

فهو يصرخ بالناس داخل جامع المنصور :
— اعلموا ان الله تعالى اباح لكم دمي ، فاقتلوني .
فيبكي من حوله ويسأله احدهم :
— يا شيخ ، كيف تقتل رجلا يصلي ويصوم ويقرأ القرآن ؟
فرد :

— يا شيخ المعنى الذي به تحققن الدماء خارج عن الصلاة والصوم
وقراءة القرآن ، فاقتلوني تؤجروا واستريح . (٣)
وفي نص آخر يخبر عن قصده قائلا بعد ان حض الناس
على قتله في السوق :

« ان تقتل هذه الملعونة » ، وأشار الى نفسه (٤) !
وكل هذا يوضح بصورة مؤلمة حالة العلاج الوجدانية ،
حالة انسان يطلب الموت . لكن العلاج الذي جعلنا نتعاطف معه
ونتألم لآلمه يخيب املنا ، ونكاد نجزم بأن كل هذا ما هو الا

-
- (١) صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد ص ٦١ .
(٢) الاصول الاربعة : تحقيق ماسنيون : بالاصل الثالث . وتاريخ بغداد
للخطيب ١١٣-٨ .
(٣) اخبار العلاج ص ٧٥ .
(٤) اخبار العلاج ص ٨٢ .

استعراض عجيب . اذ ان احد الفقهاء بدأ يهاجمه ويطالب بمعاقبته على كلماته لما فيها من كفر ، وتدخل آخر فمنع تلك المحاكمة ، الا ان الوزير ابن فرات بعد ان جاء الى الحكم سنة ٢٩٦ هـ طلب الحلاج ، فاذا به يهرب ويختفي ، فأبي تبدل حدث ؟ لم يحدث شيء ، الا انها نفس الحلاج المتقلبة الالهواء . فهو يطلب الموت ويحض الناس عليه مخلصا ، فاذا ما جاءه الموت فر بشكل مخز .

ونجد مثل هذا التقلب اثناء محاكمته كما سيرد فيما بعد اذ انكر كل الدعاوي التي صرخ بها ، كما ان بعض المراجع تذكر كلمات يفهم منها انه تاب عن تلك الدعاوي وانه اخطأ عندما اعتقد بها كما سيرد في حينه .

ومن ذلك ايضا ، ان بعض المراجع تفالي في ذكر تقلباته . كما في قول الصولي عنه : « جالست الحلاج ، فرأيتة جاهلا يتعاقل ، وعييا يتبالغ ، وفاجرا يتزهد ، وكان ظاهره انه ناسك فاذا علم ان اهل بلد يرون الاعتزال صار معتزلا ، او يرون التشيع تشيع ، او يرون التسنن تسنن » (١) .

فتقلبات الحلاج انعكست على مؤرخيه ، فصوروه انسانا متقلبا ليس في شخصيته كما بينت ، بل في آرائه كذلك . ومن ذلك رأي ابن نديم فيه ايضا :

«ويدعي عند اصحابه الالهية ويقول بالحلول ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، وفي تضاعيف ذلك يدعي ان الالهية قد حلت فيه ، وانه هو هو ، تعالى الله جل وتقدس عما يقول هؤلاء علوا كبيرا » (٢) .

وهذا متفق مع تنمة ما يقوله الصولي في الحلاج اذ يتابع قائلا :

(١) شفرات الذهب : ابن العماد ٢-٢٥٥ .

(٢) الفهرست : ابن نديم ص ١٩٠ .

« وكان يعرف الشعبذة والكيمياء والطب ويتنقل في البلدان ويدعي الربوبية ، ويقول للواحد من اصحابه انت آدم ، ولذا انت نوح ، ولهذا انت محمد ، ويدعي التناسخ ، وان ارواح الانبياء انتقلت اليهم » (١) .

ففي هذين النصين تهجم ومبالغة . على انهما يوضحان ان تقلب الحلاج انعكس على آرائه ، فاذا به متقلب بها ايضا . بيد ان اعظم الاثر في تقلب الحلاج انما يظهر في تقلب الناس في آرائهم فيه ، كتبدل النهرجوري وابن خفيف وابن عطاء والشبلي وغيرهم . كما ان تقلب الحلاج سوف ينعكس على اختلاف الناس في تقويمه منذ عصره الى الان كما سيوضح فيما يلي من الفصول . فمن مكفر له ومن منكر ومن مقدس . الخ . . !

- ٧ -

وللوهلة الاولى يبدو ان التقلب يتعارض مع عدم المرونة، فالمتقلب مر ن جدا ، لكن هذا يصدق في الامور الاجتماعية ولا يصدق في الحالات الفكرية ، ولذا سوف ادعو الصفة الجديدة في الحلاج بالجدية حتى لا يختلط الامر ، واعني بالجدية التزام الوجدان بالحدود الفاصلة وعدم تبييه للحدود الوسطى . فاذا طلب امرا سعى اليه بكل كيانه ، واذا رفض امرا ابتعد عنه بكل جوارحه ، ولا بأس بعدها ان ينقلب الى اتجاه جديد .

والناس في هذا نوعان ، احدهما يتلاءم مع الجو السليبي يعيش فيه ومع الافكار التي يؤمن بها ، فيعطي لكل امر ساعة من وقته دون ان يشعر بالتعارض او التناقض ، فهو يتعبد مصليا صائما وبالوقت نفسه يتاجر وينعم بالملذات ، ولن نتعرض لنهله

(١) شذرات الذهب : ٢-١٥٥ .

المحرمات وهو جائز ومتفاوت بين هذا النوع من الناس . اما النوع الثاني فلا يستطيع اذا ما اندفع نحو شيء الا ان يسلم نفسه بكليتها منصرفا نحو هذا الشيء ، دون ان يجد لذة لطعام او شراب الا اذا انتهى من امره ، والحلاج من هذا النوع الاخير ، فهو يتجه نحو غايته بجدية دون ان يعرف راحة او هدنة ، ودون اي انحراف بته .

ذهب الى الحج ، فاذا به يجاور سنة ، آخذا نفسه بأقصى انواع العبادات ، ناسيا كل امر عدا ذلك .

في مكة ، ذاك الاتون الذي تتوقد فيه الرمال ، وحيث يهب الهواء السام ساخنا لافحا ، فاذا ما انقلب هب باردا ينخر العظام محييا فيها الآلام المبرحة . في تلك البقعة ، وفي صحن المسجد ، في العراء ، جلس الحلاج متعبدا ، سنة كاملة . لم يبرح من موضعه الا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من شمس ولا من مطر ، وكان يحمل اليه في كل عشية كوز ماء وقرص من اقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات او اربعا فيحمل من عنده (١) ! .

والقصة فيها بعض المبالغة ، اذ ان بعض المراجع تعطينا صورة اخرى عن شدة جديته في العبادة في السنة نفسها ، فهو يجلس بجبل ابي قبيس قرب مكة على صخرة في شدة الحر ، وفي الهاجرة ، حافيا ، مكشوف الرأس ، والعرق يسيل منه حتى ابتلت الصخرة والارض من عرقه (٢) ! .

انما القصد من الروايتين تصوير الحلاج في اخذه الامور دون توسط ، متوجها بكليته نحو هدفه غير ملتفت الى اي عائق سواء كان حرا او بردا ، ومهما عظم اكان ذلك داخل المسجد او على جبل ابي قبيس .

(١) اخبار الحلاج ص ٤٣ ، والكامل ٨-٧ ، والبداية والنهاية ١١-١٢٢ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٠٤ ، الكامل ٨-٧ ، والبداية والنهاية ١١-١٢٢ .

فالحلاج ذو وجدان جاد لا يعرف الانحراف وان كان متقلبا
كثير الرحلات . هو دائم العبادة ، كثير الصوم ، قليل النوم ،
غير مكترث بملبس او مآكل او جاه . حتى ان ابن نديم وهو
الذي اشتد في ذم الحلاج وفي تسويد صفحته لا يسعه الا ان
يقول :

« وكان يأكل اليسير ويصلي ا لكثير ويصوم الدهر » (١) .
وهذا يأتلف مع اخباره التي تصور شدة زهده ، وغاية الامر
انه انسان كان يأخذ من المذاهب اصعبها واشدها كما يقول (٢)
رافضا اي شاغل يشغله عن حبيبه « فعلامة العارف ان يكون فارغا
من الدنيا والآخرة » (٣) .

وهذا يفسر لنا موقفه من المال ، من ان يحصل عليه حتى
يسرع الى الفقراء ليوقظهم من نومهم موزعا عليهم ما في كيسه
دون ان يبقي لنفسه شيئا صفر المبلغ او كبر .

ومن الاخبار التي تدل على هذا السلوك الوجداني نقاشه
المتواصل مع الشبلي بعد ان بدأت الاتهامات تتوجه نحو الحلاج .
كان من رأي الشبلي ان يقف موقفا وسطا فتجربته لا غبار عليها
الا انه عليه ان يكتف ، فيرد الحلاج بذلك . فهو لا يعرف هذه
الحلول الوسطى ، ولن يتكتم ولن يتستر ، بل سينطلق على
هواه ، فهو لا يخشى شيئا ولن يقبل بالتنازل على الاطلاق عن
حقه في ان يتكلم عما يشاء ، في بيته وفي السوق وفي المساجد
واينما وجد وليحدث ما يحدث بعدها !

وقد ابنت منذ قليل على ان في موقفه جراءة وتحدا ، وها
هنا اقول بأن في موقفه جدية صارمة لا تعرف الانحناء ، ولولا
خوف التكرار لابنت ما في الحديث نفسه من انفعال وغيرها .

(١) الفهرست ص ١٩١ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٩ .

(٣) اخبار الحلاج ص ١١٢ .

ذاك ان هذه الصفات تترادف في شخصية الحلاج وهي شخصية
من نوع معين تتركب من هذه العوامل ، بشكل متكامل .

- ٨ -

وسوف نرى خلال دراسة تجربة الحلاج الصوفية ، انها
تجربة وجدانية ، فما التصوف عنده الا انشاء الروح بالحب، وهو
لم يطلب حبيبه بتواضع الصوفي وخشوعه . ولم يتجه نحو
بهذوء وبساطة ، بل اراد تحطيم كل الحدود دفعة واحدة ليتصل
بحبيبه في حب عنيف ، لا يرضى بالقليل ، ولا يعرف الحلول
الوسطى ، حب يفنيه عن نفسه فيشبهها ، فاذا به صاحب الدعاوي
الضخمة !

وما يهمنا هنا هو طريقة تعبيره عن هذه التجربة ، وهو
تعبير وجداني ايضا ، اسلوبه منطلق ، ونفسه قصير ، مقل
بالتأليف ، وقليله جمل اقل . نعم ان ابن نديم يذكر له مؤلفات
عدة ، ويمكننا ان نستنتج من اخباره وما بقي من كتبه على انها
مؤلفات قصيرة ، فالطواسين لا يتجاوز العشر صفحات ، اذا نسخ
باليد وهو احد عشر فصلا او كتابا ، ولا اظن ان شخصية
كشخصية الحلاج عندها صبر على التأليف الطويل كابن عربي
مثلا الذي ترك مئات الصفحات ، فالحلاج صرف فعالته بتجربته
بينما صرف ابن عربي والغزالي وقتها بالتعبير عن افكارهما .
وسنتناول الطواسين بالدراسة فيما بعد ، وهو كتاب
كثير السجع ، ولا احسب انه قصد من ذلك التزيين والزخرفة
وحدهما متلاعبا بالالفاظ ، بل يبدو ان رنين الالفاظ عنده ذو
اهمية لا تتعلق بالاسلوب ولا بالتعبير عن فكرة معينة ، وكأنه
يكتب بحالة غريبة ، رنين الالفاظ وحده هو صلة الربط بين
المعاني . فاذا بالكتاب متنافر وغامض ، وعندما لا تسعفه
الالفاظ يلجأ الى التكرار فينوب هذا السجع عن الربط .

- ٤١ -

وهذا مثال يوضح غرابة اسلوبه ، وقصر نفسه ، والحالة الوجدانية الغريبة التي يكتب خلالها ، وهو الذي يكتب كتابا فكريا موضحا آراءه عن التوحيد ، فاذا به بعيد عن كل فكر ، وكأنه لغز ، عدا عن كونه يكتب بعاطفته !

« الاسرار منه فارغة ، واليه فارعة لانه وازغه .

« ضمير التوحيد ضمائره ، لاني مضمير بل ضمير المضمير «هاؤه» ، هاءه !

« ان قلت « واه ، قالوا « آه ؟ » .

« الوان وانواع والاشارة . .

« الى المنقوص لا يلوص « كأنهم بنيان مرصوص » .

ويكفي لتأكيد ما ذكر ، وعرض مثال آخر ، وفيه سنجد فكرة اخرى تضاف الى نوعية اسلوبه ، فكان الرمز كذلك غير مقصود ، بل القصد هو الاغراب وعدم الافهام ، وكأنني بالحلاج ذاك الضاحك عندما يشعر بمن يراقبه بعبادته ، نعم هو نفسه الذي يكتب هذا الكلام :

« ياخي سمي عزازيل لانه عزل وكان معزولا في ولايته ، ما رجع من بدايته الى نهايته لانه ما خرج من نهايته .

« خروجه مقلوس في استقراره تأريسه مشتعل بنار تعريسه ونور ترديسه !! واخه محيل ممصص ، مغابصه فعيل رميص ، شراهمه برهمية ، ضواريه مخيليه عماياه فطهمية !!

« يا اخي لو فهمت لترحمت الرحم رحما وتوهمت الوهم وهما ورجعت غما وفنيت هما . .

ولذلك يضيف كأنه يبرر هذه الاحاجي ، مدركا عجز الناس عن فهمه .

« فصحاء القوم عن بابه خرسوا والفرقاء عجزوا عجز الناس درسوا » . . (١) .

(١) المثال الاول : الطواسين ص ٦٠ ، المثال الثاني : الطواسين ص ٥٤-٥٥ .

ولا يجب من تحليل هذا ان نعلم فنقول ان سجع الكتاب كله يهدف الى هذه الحالات اذ لا بد ان طريقة السجع التي غلبت آنذاك حتى في كتب الخليفة وكتب الوزراء (١) ناهيك عن الادب، كانت هي الطريقة المفضلة بالتعبير .

- ٩ -

يقول ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي :
« فقال ناس : ساحر ، فأصابوا ، وقال ناس : به مس من الجن فما ابعدوا لان الذي كان يصدر منه لا يصدر من عاقل او ذلك موجب حتفه ، او هو كالمصروع او المصاب الذي يخبر بالغيبيات ولا يتعاطى بذلك حالا ، ولا ان ذلك من قبيل الوحي ولا الكرامات . وقال ناس من الاغنام : بل هذا رجل عارف ولي لله صاحب كرامات فليقل ما شاء ، فجهلوا من وجهين . الخ » (٢)
وما يهمنا من قول بن العماد الحنبلي هو وصفه للحلاج بأنه مصروع او مجنون ، فالى اي حد كلامه صحيح ؟
ويقول الاستاذ احمد امين :

« ويظهر انه حاد المزاج ، غريب الاطوار ، يشبه الناس الذين عندهم هستيريا » (٣) فهل كان الحلاج هستيريا ؟
لقد ظهر فيما سبق ان الحلاج كان حساسا ، سريع الانفعال ، وهو جريء ومحب للتحدي حيوي ، كثير التنقل ، متقلب بأدنى الامور واعلاها ، جدي وصارم في حدود بعيدة عن التوسط . اسلوبه غامض ، ووجداني ، وكتاباته قليلة . فهل هذه الصفات

(١) الحضارة الاسلامية : متر ص ٢٢٧ نقلا عن كتاب الوزراء للصابي ص ٢٣٧ و ٢٧٧ .

(٢) شذوات الذهب : ج م ص ٢٥٤ .

(٣) ظهر الاسلام : ج ٢ ص ٦٩ .

تدل على انه مصاب بالجنون او الصرع او الهستيريا ؟؟

ان الطب النفسي والعقلي تقدم تقدما كبيرا - وما يعرضه الطب عن هذه الامراض لا يتفق ووضعية العلاج ، او ان صفات العلاج التي تقدمها المراجع لا تدل على وجود هذه الامراض عنده . فالهستيريا تقتضي اصابة عضوية كالرعدة والتشنجات والتقلصات والشلل والبكم عدا عن المظاهر الاخرى . والصرع له اعراض هي النوبات الصرعية (١) ، ولا نجد في اخبار العلاج ما يثبت مثل هذه الاعراض او المظاهر . .

بيد انه يبقى هذا التعميم الخطر ، وهو كون العلاج مجنوناً . فأي انواع الجنون يقصد ؟ اذا شئنا ان نتعقب رأي صاحب الشذرات دون ان نلتفت الى الاسباب التي دعت الى الاطلاق ، الا وهي كون العلاج ليس بصاحب حال ، وكأن صاحب الحال اذا صدر ما صدر عنه اعتبر سوياً والا فهو مجنون ! اذا تعقبنا الامراض العقلية سنجد البارونيا مما ينطبق على العلاج ، والبارونيا فصام من الذهان ، ويمتاز الفصام عامة بالانطواء واضطراب الشعور ، اما البارونيا فتمتاز بوجود ضلالات اضطهادية يصاحبها ضلالات العظمة ، ويرافق ذلك هلوسات وشك ، مع الاحتفاظ بالذاكرة والذكاء والتفاعل العاطفي (٢) . لقد كانت هذه الاعراض موجودة عند العلاج ، فهو يطالب بقتل نفسه ، وهو يدعي انه وصل الى مرتبة عالية فوق مرتبة اساتذته واقرانه ، مارا بهلوسات دعيت كرامات او سحرا ، هاربا من الناس نحو نفسه ، لتستمر شخصيته من حيث الذكاء والذاكرة .

(١) راجع حول الامراض النفسية والعقلية : مبادئ الامراض النفسية : د. عمر شاهين ود. يحيى الرخاوي .

(٢) مبادئ الامراض النفسية : د. عمر شاهين . ود. يحيى الرخاوي : كلية الطب - جامعة القاهرة : راجع حول الفصام والبارونيا ص ١٨٩-٢١٤ .

فهل يمكن ان نقول مصداقا لقول ابن العماد ان العلاج كان مريضا بعقله ؟

ان اثبات مرض العلاج على هذا النحو مغالطة علمية، واذا كانت الاعراض تستقرىء من المرض، فاثبات المرض انما يكون بتشخيص واقعي لا بقياس منطقي ، والا لكان كل صوفي مختل الشعور ، بل لاصبح كل انسان مريضا ما دام يلمس بعض الاعراض عنده . والتشخيص الواقعي لكل هذه الفئات القريبة الهدف والحياة سيظل معلقا لحكم التاريخ والواقع . . وليس خاضعا لحكم القياس . ناهيك عن انه لا يمكن تجاهل حياة هؤلاء ، وهي حياة انسان مغمور بعقيدته الدينية، سابحا بأجوائها! ومما يتعلق بهذا ، وهو من اطرف ما قيل دون شعور ، ان مؤلفين ارادا الاستشهاد على احد الحيل اللاشعورية وهي التقمص ، فوجدا بيتا للعلاج يدل على ذلك : « انا من اهوى ومن اهوى انا » ففي هذا البيت عندهما يعبر العاشق عن هذه الحيلة اصدق تعبير (١) . وعلى المنوال نفسه نتساءل عن قيمة مثل هذا القياس في الوصول الى كون العلاج يستخدم هذه الحيلة اللاشعورية ؟!

اعتقد ان مثل هذه الوصف هو الى التجني اقرب منه الى الحقيقة ، فكيف نستخلص من بعض الاعراض او من بيت واحد على ان الشخصية كلها مريضة او مصابة بالتقمص ؟
الا ان هذا الاعتراض لا ينفي ، بل يؤكد ان امامنا انسانا غريب الطباع ، غريب التصرفات . وقد حاولت المراجع ، المؤيدة له او المعارضة ، تصويره كإنسان عجيب . تسيطر عليه الانفعالات والتقلبات ، وتوجهه احواله النفسية . ملصقين به كل ما شذ عن المعقول وبعد عن السوي . وهو بذلك اقرب ما يكون الى الطبع الغضبي (٢) او المزاج الدموي بانفعاله وفعالته وترجيحه

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .

(٢) راجع حول هذا : علم الطباع : د. سامي الدروبي .

القريب ، لكنه مع هذا القرب الى التصنيف ، فانه يبقى نابيا وناثئا يابى مثل هذه «القوالب» . وكان امامنا ما هو اكثر من انسان عادي ، وكان امامنا انسانا رفع عند مؤيديه ومعارضيه ليتشكل بالذهن صورة عجيبة لشخصية عجيبة ، لتحقق عند هؤلاء جميعا اهدافا فكرية واجتماعية محددة !

وهو ما نجده عند شخصية اخرى مشابهة ، اعني شخصية السهروردي المقتول . قال فخر الدين المارديني عنه :
« ما اذكى هذا الشاب وافصحه ، لم اجد احدا مثله في زمانى ، الا انى اخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره ، وقلّة تحفظه ان يكون سببا لتلفه (١) . »

- ١٠ -

سنستكمل في الفصول اللاحقة عرض جوانب شخصية العلاج الاخرى : الصوفية والفكرية والسياسية . وهي تؤكد من جديد هذه الشخصية الفردية والنادرة . بيد ان هذا التفرد وهذه الندرة ليسا الا زيادة بالدرجة ، على نحو مميز ، «لنمط» توضح وتاصل في القرن الثالث ، بحثا عن «الحل» بهذا التنكر للحياة ، وبهذا الانعزال عن المجتمع ، للتدرج باحوال فردية ، سلبية ، وللوصول الى سعادة روحية تتحقق بمقدار النفي والسلب ، وبمقدار الخلو من كل الهموم والمشاكل ، وقاعدة هذا الهروب مجموعة من النصوص الدينية ، فصلت عن سواها - لما تحده في هذه الاتجاه - واولت لتستوعب كل الدين كدرجات لهذا النمط الذي يتوجها كمطلب اعلى .

وفي الفصل القادم سنستعرض جوانب التجربة الصوفية، والنمط الذي تلح عليه ، وهو ما سعى العلاج للتمثل به . بيد

(١) راجع «السهروردي» : سامي الدهان .

ان الحلاج بشخصيته التي صنعها ، والتي شارك مجتمعه المعاصر له والتالي عليه بصنعها ، ليس مجرد صوفي عادي يحاول تحقيق ذلك التمثل فحسب . انه بشخصيته الفردية والنادرة يحقق «نموذج» هذا «النمط» في حده الاعلى . انه بشخصيته الفردية والنادرة «المثال» الفذ لهذا «النمط» سواء عند مؤيديه او معارضيهم ! ولذا فان محاولة «تنقية» هذه الشخصية بعيدا عن المبالغات التي رأينا بعضها او الاضافات وغير ذلك ، هي محاولة فاشلة وخاطئة ، لان هذه الشخصية «المتأصلة» لا تعبر عن تلك الفردية فحسب ، ولا تعبر عن نهج ذلك النمط فقط ، وانما تعبر عن ذروة هدف ، لا ينتظر التحقيق في المستقبل ، لانه تحقق في الماضي ، اسوة بكل الفهم الحضاري انذاك ، والذي علق الابصار في الماضي ، والحنين الى هذا الماضي ، المنسحب الى الوراء حتى الازل . ان الحلاج بذلك مشجب علقت عليه كل اوهام الخيال عبر تلك الحضارة !

ان الصفات الفردية المتطرفة عند الحلاج انما جاءت لتوهج هذا النمط ، ولتعلو به نحو ذرواته العليا ، سلوكا وفكرا . لقد تفاعل الحلاج بتكوينه النفسي المعروض آنفا مع التكوين الفكري الخاص بالمسلمين ، وما لحق هذا التكوين من عناصر خارجية ، بكل خصوبة ، ليجعل تجربته تلك التجربة الفذة . ان خصوصية فرديته انما صبت في هذا التفاعل لتدفع به نحو الحد الاعلى . وهذا هو امتيازه الشخصي في هذه المرحلة . وقد تساوقت هذه الخصوصية الفردية مع هذا النمط بطبيعة الحال ، ما دام هذا النمط بالاساس قائما على الحل الفردي ، لا كحل للمشكلة الفكرية او الدينية او السلوكية بل وكحل للمشكلة الاجتماعية والسياسية ايضا ! ان جميع انواع البؤس ، وجميع انواع التعاسة ، فكريا وواقعا ، وجميع انواع التناقضات ، بما فيها التناقضات الاجتماعية ، لن تجد حلها ، الا في تلك اللذات السماوية التي تحققها التجربة الصوفية والتي تمهد للذات في

الحياة الاخرى .

بيد ان هذا الموقف الفردي سرعان ما يتبدل عندما ينغمس الحلاج برؤية الواقع الذي ادار له ظهره . وسيتأخر هذا التبدل الى قبيل قتله . لكنه حدث ، وهو بين المساجين وبؤس المساجين وهنا ايضا يبرز الحلاج بتفرده وبصفاته الخاصة ليدفع هذا التبدل نحو الذروة كذلك . في السجن يتبدل الحلاج ، ويتصل بقصر الخليفة ويضع الرسائل السياسية لقلب الاوضاع ! فاذا كانت شخصيته قد دفعته الى طلب الذروة اسوة بمحمد فسي معرجه من قبل ، فان شخصيته تدفعه الان ليتجاسر على السلاطين ، وتدفعه «لقلب الدول» ! وهو ما سنتعرض له لاحقا. ان هذا التطرف هو ما سيقوده الى ذاك القتل المحزن . انه لم يحصل على الشهادة التي طلبها الا عندما انتقل من الحل الفردي والسلبى الى الحل الجماعي والايجابى . وبذلك اضيف الى «مثال» النمط ، بعد جديد، يكمل وينهي هذه الشخصية الفذة، كدرس وكقدوة لسواه في آن واحد . وقد وعى التالون عليه من الصوفية كلا الامرين معا في ذاك « المثال »! كما وعاه خصومه!

تجربة الحلاج الصوفية

- ١ - الوضع الفكري في عصره - الاضطهاد الفكري - رأي شيدر في روح الحضارة العربية - ادوار التصوف - المقام - الحال - الاحوال - غاية المتصوف - نتائج الرحلة الصوفية - السند الديني للمطلب الصوفي .
- ٢ - الفناء والبقاء - التلون والتمكين - الفرق والجمع وجمع الجمع والفرق الثاني - الصحو السكر - انا انت - الفناء والبقاء ليس اتحادا .
- ٣ - دلالات التجربة الصوفية : الفكرية - السياسية - الاجتماعية .
- ٤ - تجارب الصوفية قبل الحلاج : ذو النون - ابو يزيد - سهل التستري - الجنيد - رأي السهروردي الشهيد في هؤلاء - لانملك لوحة تاريخية لتطور تجربة الحلاج .
- ٥ - تجربة الحلاج : الله بعيد - الفراسة - مفتاح تجربته .
- ٦ - تحليل التجربة : الله بعيد - لا ثمرة لشجرته - رؤية الله - مفتاح لتحليل النصوص - الله قريب وبعيد - فناؤه عن نفسه - لا ترد لي نفسي - الله لا يتركه .
- ٧ - الالتباس - طلبه الموت وهربه - طلبه الالم والعقاب .
- ٨ - الرؤية مستمرة في كل لحظة .
- ٩ - نتائج . .
- ١٠ - اشعار في الحب الحلاجي .

عاد اهل السنة الى المقدمة ، بعد ان ابطل المتوكل تأييد المعتزلة من الدولة ، وامر بترك الكلام ، وان يعلى التسليم والتقليد ، وفي الوقت نفسه اضطهد كلا من المعتزلة والشيعة . وقد كان مغاليا في تقديمه لاهل السنة والجماعة ، اذ طعن في علي وهدم قبر الحسين وسواه بالارض ونهى عن زيارته ، كما انه تعصب ضد المسيحيين - كما مر معنا - اذ اوجب عليهم لباسا خاصا ، وامعانا في الازلال منهم من ركوب الخيل واذن لهم بركوب الحمير فقط ، اذ ان الخيل خاصة بمن هو مسلم (١) !
فهو جو كبت واضطهاد ، خاصة ان الدعوة العلوية كانت تتداخل في السياسة على نحو ادى الى التنكيل بالرجال الثائرين او المنفصلين او الذين يخشى منهم ايضا .
وبلغ قتل حرية الفكر حده عندما منع المعتضد الوراقين من بيع كتب الفلاسفة ومنع التنجيم (٢) !

(١) الكامل ٧-٥٥ .

(٢) الكامل ٧-٦٨ .

وتصور لنا القصة التالية بعضا من هذا التعسف الذي بلغ حد التحجر : اذ ان الطبري ذكر ان احمد بن حنبل لم يكن فقيها وانما كان محدثا « فغضب الحنابلة وشاغبوا ضده ، ولما توفي دفن ليلا بداره لان العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا وادعوا عليه الرفض والاحاد » . ولما سمع بذلك الوزير علي بن عيسى قال « والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والاحاد ما عرفوه وما فهموه » (١) .

ولا نستغرب - بعد هذا - التنكيل بالصوفية ، وطردهم من البلاد ، حتى من كان معتدلا مثل الجنيد ، ناهيك عن شخص ذي شطحات مثل ابي يزيد البسطامي الذي اخرج من بلده بسطام سبع مرات (٢) ولكن ابا يزيد نفسه كان مقبولا - على الرغم من ذلك - عند الكثيرين ، حتى ان ابن تيمية في طريقته الصلبة كان يحسن ويؤول مواقفه . فكيف يكون الحال مع تلك الشخصية الدموية ، التي كانت تؤلب الصديق والعدو ، والقريب والبعيد . لقد دفع الحلاج حياته ثمن تجربته بعد طول اضطهاد، لكن قبل ان اعرض لهذه التجربة ، لنستعرض تجارب الصوفية قبله .
فما هي هذه التجربة الصوفية ؟

يرى شيدر ان روح الحضارة العربية تتمثل في السعي للظفر بالقداسة والنجاة (٣) واضيف الى هذا ، ان هذا السعي بلغ اوجه لدى المتصوفة .

والتصوف الاسلامي مر بمراحل عدة : بدأ نزوعا قويا نحو الزهد والتقوى ، ثم اصبح تجربة عاطفية ، قطباها النفس والله ،

-
- (١) الكامل ٨-٩ و ٥ .
(٢) شطحات الصوفية ص ٤٨ عن مرآة الزمان لسبط بن الجوزي : مخطوط بباريس . تحقيق عبد الرحمن بدوي .
(٣) روح الحضارة العربية : هانز هنييري شيدر : ترجمة عبد الرحمن بدوي ص ١٢ .

وتتدرج هذه التجربة بحسب نوعية المتصوف وبحسب المقامات والاحوال التي يجتازها ، متمثلا دائما بشخصية الرسول . وقمة هذا التمثل تجربته في المعراج . ثم تحولت هذه التجربة لتصبح مذهبا دون ان تستغني عن الجانب الوجداني ، ولكن ذلك لم يتم الا على يد ابن عربي وتلامذته في القرن الثالث عشر .

وما تهمنا هنا هي المرحلة الثانية ، اي تجربة الصوفي العاطفية ، حيث ينتشي شعوره بارتقاء نفسه باتجاه الله . فهي تجربة وجد وحب بين الانسان وربه ، وقيمتها فناء الانسان عن الشعور بذاته ليدوم شعوره بالاله !

وهناك بديهيات كانوا ينطلقون منها ، فالانسان مكون من روح وجسد ، والجسد بمطالبه وشهواته يقيد الروح ويبعدها عن العالم العلوي ، اذن فالتحرر يكون بترك الشهوات المادية ، وباخضاع الجسد ونزواته ، وبالانسلاخ عن مباحج الحياة ولذاتها ، وتصفية القلب من كل الصفات غير الحميدة وملئه بكل الصفات الحميدة ، ثم الركون للعبادة والذكر حتى تقترب النفس شيئا فشيئا من خالقها .

واقام الصوفية طرقا متشابهة لهذا المسمى ، وسموا هذه الطرق بالمقامات والاحوال وهي تتفاوت من مدرسة الى مدرسة ، ومن صوفي الى صوفي ، لكن الجوهر واحد لا يتبدل ، وان نقصت عند هذا او زادت عند ذلك .

يعرف الطوسي المقام بقوله «معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانتقطاع الى الله عز وجل (1) .

وقريب من هذا تعريف القشيري ، فالمقام عنده « ما يتحقق به العبد بمنزلته من الاداب ، وما يتوصل اليه بنوع تصرف

(1) اللمع : لابي نصر السراج الطوسي ، تحقيق عبد الحليم محمود وزميله

سنة ١٩٦٠ مصر : ص ٦٥ .

ويتحقق به بضرب تطلب ، ومقامات تكلف، فمقام كل واحد موضع اقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له (١) .
وعد أبو النصر السراج الطوسي المقامات التالية : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك ، والمقامات عند الحلاج اربعون ، وعند غيره غير ذلك .
اما الحال فيعرفه الطوسي بقوله « فهو ما يحل بالقلوب او تحل به القلوب : من صفاء الازكار . ويروي عن الجنيد انه قال : الحالة نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم . وكذلك قوله ان الحال هو الذكر الخفي . . وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات التي ذكرناها » . والاحوال عنده مثل المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والانس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك (٢) .

وعند القشيري المعنى مشابه : « والحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب او حزن او قبض او شوق او انزعاج او هيبة او احتياج . . فالاحوال مواهب والمقامات مكاسب . . الخ (٣) .
الا ان القشيري يختلف عن السراج في توسعه بدوام الحال، فعنده اذا لم تدم الحال فهي لوائح وبوادر ولم يصل صاحبها بعد الى الاحوال ، فاذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى حالا (٤) .

ولو تدرجنا مع السراج في احواله ، لفهمنا تلك التجربة، وان كانت هذه الامور لا تناقش نظريا كما ذكر كل الصوفية ، فهي امور تجريبية وذوقية . ولن نتعرض للمقامات ، لانها اقل مرتبة ، ولان الانسان يحصل عليها بالمجاهدة . . فنحن الان مع

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف للقشيري ، طبعة مصر ص ٢٢ .

(٢) اللمع ص ٦٦ .

(٣ و ٤) الرسالة القشيرية ص ٢٢ .

ذاك الانسان الذي سلك المقامات . واصبح في حال من ينتظر الدرجات القادمة ، لان الاحوال مواهب ، اي توهب ولا تؤخذ، تعطى ولا تكتسب ، فلنلج معه طريقه :

واول حال هو حال المراقبة ويليه حال القرب ويكون بطاعة الله ودوام ذكره وينتج عنه حالان ، الاول هو حال المحبة، ويكون بادراك محبة الله للعبد وادراك عناية الله به ، فيحبه لمعرفة اسراره . اما الحال الثاني فهو حال الخوف لمعرفة هيبة الله، وخوفا من قطيعته . ويقترن الخوف بحال الرجاء اي رجاء رحمة الله وثوابه وكرمه .

والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق ، وهو التبرم بالبقاء شوقا الى لقاء المحبوب ، او هو هيمان القلب عند ذكر المحبوب . ويلي ذلك حال الانس وهو الاعتماد على الله والسكون اليه بعد كمال الطهارة وصفاء الذكر والبعد عن كل ما يشغل عن الله من عوارض او خواطر .

ثم حال الطمأنينة وهي حال عبد رجح عقله وقوي ايمانه وثبتت حقيقته ورسخ علمه وصفا ذكره فأطمأن الى اجابة دعواه ورضي بقضاء الله وصبر على بلائه وركن الى كون الله معه ثم حال المشاهدة وهي ان يعبد العبد ربه كأنه يراه ، وهي ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ، فهي مشاهدة قلبية ، او ليست عيانا ولا وجدا ، وهي اما مشاهدة بعين الفكر او مشاهدة الله فحسب فلا يبقى في الوهم او السر شيء غير الله ، واعلى المشاهدة مشاهدة الله بكل شيء ، ومشاهدة كل شيء به .

واخيرا حال اليقين ، وهو المكاشفة ، وهو ثلاثة وجوه: مكاشفة العيان بالابصار يوم القيامة - اي رؤية الله بالبصر - ومكاشفة القلوب بحقائق الايمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد . ومكاشفة الآيات باظهار القدرة للانباء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات ولغيرهم بالكرامات والاجابات . ونهاية اليقين : تحقيق التصديق بالغيب بازالة كل شك

وريب ، ونهاية اليقين الاستبشار او حلاوة المناجاة وصفاء النظر الى الله تعالى ، بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بازالة العلل ومعارضة التهم (١) .

فغاية الاحوال اليقين ، وبمختصر العبارة ، غاية الصوفية ان يصلوا الى مشاهدة الله ، فلا يرون سواه ، وعندها يكونون مثل الانبياء : مثل موسى عند شجرته ، ومثل محمد في معرجه . وكذلك يكونون كهؤلاء الانبياء لهم معجزاتهم وان سميت كرامات . اما كيف نرى الله ؟! وما هي هذه الرؤية ؟! وما هي هذه الانوار التي تسطع داخل النفس اذا صفا ذكرها ؟! وما هي هذه اللذات الروحية التي تصل اليها ؟! فالجواب ان لا جواب !!

وبنوا على ذلك نتائج اعتبروها لازمة لمن يصل الى هذه الدرجات الروحية ، فاذا بالمتصوف ، يسيطر على بدنه ، يجوعه الايام . ويعطشه الشهور ، ويوجهه حسبما اراد فيرى عن بعد ، ويرى الاسرار عن قرب ، ويحطم الزمان ، ويطوي المكان ، ويلقي القوانين المادية عندما يشاء . فمئات الاميال يقطعها بشوان ، طائرا او ماشيا على الماء ، مما يزيد التجربة تعقيدا ولا معقولية . وهم في ذلك ، كأنهم يهونون الامر ، يردون هذه الامور السيى مكاشفتهم الله واتصالهم به!! يقول السهروردي الشهيد في ذلك : « وفي الجملة الحكيم المتأله هو الذي يصير بدنه كقميص يخلعه تارة ويلبسه اخرى ولا يعد الانسان في الحكماء ما لم يطلع على الخميرة المقدسة وما لم يخلع ويلبس ، فان شاء عرج الى النور ، وان شاء ظهر في اي صورة اراد ، واما القدرة فانها تحصل له بالنور الشارق عليه ، الم تر ان الحديد الحامية اذا اثرت فيها النار تشبه بالنار وتستفيء وتحرق » (٢) ؟

(١) انظر هذه الاحوال في اللمع ص ٨٢ الى ١٠٤ ، وقد حاولت في اعلاه

تلخيص هذه الاحوال بعيدا عن التفاصيل والاستشهادات والاصطلاحات .

(٢) مجموعة في الحكمة الالهية : تحقيق كوربين المجلد الاول . استانبول

١٩٤٥ ص ٤٣ .

اذن فالصوفي باتصاله بالله يصبح مثله ، بقدرته وبكماله ،
مثلا تصبح الحديدية المحماة مضيئة ومحرقة كالنار !!
وهم في ذلك ينهلون من الدين الاسلامي قبل كل شيء ،
وفي القران وفي الحديث العديد من الآيات والابخار التي تؤيد
ما ذهبوا اليه . وهم وعلى الرغم من خضوعهم للكثير من التيارات
المذهبية كالافلاطونية والافلوطينية والغنوصية والمذاهب الايرانية
والهندية بله المسيحية ، الا انهم ظلوا يتطلعون الى الرسالة المحمدية
يستمدون منها عقيدتهم ، اكثرين من الاستشهادات التي تؤيد
وتزكي اقوالهم وتجاربهم ، وحسبي ان اذكر هذا الحديث عن
صحيح البخاري ، وهو حديث قدسي ، لعب دورا هاما في
حياة الصوفية واحوالهم .

« من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي
عبي بمثل اداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبي يتقرب الي
بالنوافل حتى احبه ، فاذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به
وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي
بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألتني
لاعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه ، وما ترددت عن شيء انا فاعله ،
ترددني عن قبض نفس عبد مؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا
بد له منه » .

بل اقول ، ان غاية الصوفي ان يكون هذا الولي الذي يحيا
بالله وبقدرة الله !!

- ٢ -

والصوفية ، بعد ذلك ، اصطلاحات خاصة ، يطلقونها على
حالاتهم ومراتبهم وهم يتنقلون من حال الى حال ، حتى يصبحون
فوق كل حال . وهي اصطلاحات عديدة وفي الوقت نفسه متشابهة
ودقيقة ، ثم انها متداخلة ، لانها تكون مجموعات ، تبتدىء كل

- ٥٦ -

مجموعة من حالة المرید وتنتهي عند الخواص او خواص الخواص .
من ذلك التواجد والوجد والوجود ، ومن ذلك ايضا اللوائح
واللوامع والطواع وغير ذلك كثير . ولا بد لنا من التعرض لبعض
هذه الاصطلاحات قبل ان نصل الى تجربة العلاج ، فعلى ضوءها
يمكن ان نفهم ما يقصد ، فلنختار اذن بعضا منها ، مما يتصل
اوثق الاتصال بموضوعنا ، ومما سيرد معنا في هذا البحث ،
ومما يزيدہ ايضا .

فالعبادة والتوجه الى الله بالكلية تجعل الصوفي يفنى ،
ولفنائہ انواع ، يبدأ بازالة وافناء كل الافعال الذميمة والشهوات
الدنيوية والرغبات الانسانية ، ثم يفني احساسه بكل شيء حوله
ويفني احساسه بنفسه وجسمه ، فاذا به غافل عن وجود
الاشياء وعن وجود ذاته ، ثم يرتقي فيفني عن رؤية فنائه ، فلا
يدرك انه فني !

وكل هذا الفناء يقتضي انواعا من البقاء ، فاذا فنت واعدمت
الصفات المذمومة بقيت الصفات الحميدة ، واذا زال الحسد
والحقد والغضب والكبر بقي التوكل والرضا والمحبة وغير ذلك .
واذا بطل احساسه بمن حوله وبنفسه بقي ما يشاهده من جريان
القدرة الالهية ، وهو ان فني فهو يشاهد الاشياء او الآثار او
الرسم او الطلل بقي بالحق ، فهو مستهلك بأنوار الهية لا يشعر
بسواها . ثم يليه الفناء المطلق حتى عن الشعور ، ولا يبقى عندها
الا الله فهو صمت مطلق ، فيه غيبوبة تامة ، ولا وجود الا للحق
فيه (١) .

وشبيه بهذا التعبير - الفناء والبقاء - قولهم في التلوين
والتمكين ، فالتلوين صفة المتنقل من حال الى حال ، وهي صفة
موسى . والتمكين صفة اهل الحقائق ، وهي صفة محمد ، وهو
الذي وصل واتصل ، وامارة انه اتصل انه بالكلية عن كليته

(١) الرسالة القشيرية : راجع ص ٢٧ .

بطل (١) .

وهناك كذلك مجموعة اصطلاحات هي الفرق والجمع وجمع الجمع والفرق الثاني ، وهي متدرجة كذلك . فالفرق ادنسى المراتب ، وهو اثبات الخلق او ما ينسب اليهم ، مما هو كسبب من اقامة العبودية ، باطاعة الله ، وهو كذلك شهود الاغيار لله . اما الجمع فمرتبة اعلى وهي شهود الاغيار بالله ، وهي اثبات للحق ، او ما يسلب عن الخلق ، فتكون من قبل الحق بما ويليه من افعال نفسه : وفي جمع الجمع يكون الصوفي مختطفا عن شهود الخلق ومستهلکا بالكلية وفانيا باحساسه بما سوى الله وذلك عند غلبة الحقيقة ، فهو مأخوذ بكليته وقد استولت عليه الحقيقة . ولكن هل يستمر في هذا الاصطلام ؟ لا . بل انه يصحو عند اوقات اداء الفرائض ليؤديها ، وهذا هو الفرق الثاني ويكون رجوعا لله بالله لا للعبد بالعبد ، فالعبد يطالع نفسه في هذه الحالة في تصريف الحق ويشاهد مبدأ ذاته واحواله بقدره الله ومشيتته (٢) .

وتتصل بهذه المجموعة ، مجموعة مشابهة هي الصحو والسكر ، فالصحو رجوع الى الاحساس بعد غيبة . فكأنها الفرق الثاني ، والسكر غيبة جديدة اقوى ، وتجربة موسسى سكر (٣) .

ولكن قد لا يعود الصوفي من رحلته وعندها يعبرون عن ذلك بمجموعة المحو والاثبات والمحق . . فالمحق لا يبقى اثرا ، وغاية همة القوم ان يحققهم الله عن شاهدهم ثم لا يردهم اليهم بعد ما حققهم عنهم (٤) .

وفي هذه الحالة يكون الشطح ، حيث يذكر الصوفي كلمات غريبة مثل انا انت وانت انا ، او ما يعادلها كسبحاني سبحاني ،

(١) راجع الرسالة القشيرية ص ٤١ .

(٢ و ٣ و ٤) الرسالة القشيرية : راجع ص ٣٦ و ٣٧ - ٣٩ .

او انا الحق وغير ذلك . ويفسر الشبلي هذه الحالة بقوله « يا قوم هذا مجنون بني عامر كان اذا سئل عن ليلي ، فكان يقول: انا ليلي فكان يغيب بليلى عن ليلي حتى يبقى بمشهد ليلي، ويفيجه عن كل معنى سوى ليلي ويشهد الاشياء كلها بليلى . الخ . » (١) ولو دققنا النظر في كل هذا لتبين لنا عمق تجارب الصوفية . فهم وان اخذوا الفناء عن الفلسفة الايرانية والهندية الا انهم تعدوها بفكرة البقاء ، وهم وان كادوا يقعون في دعوى المسيحية عن الاتحاد او الحلول - وهذا ما استطاع المستشرقون فهمه - الا انهم يختلفون اكبر الاختلاف عن مثل هذه الدعوى فهم لا يتحدون بالله ، كما حسب نيكلسون عندما استبدل بالفناء وبالبقاء كلمة الاتحاد تارة وكلمة الحلول تارة اخرى ، لان ما يميز تجربتهم هو كونها تجربة عاطفية ، يفنى الاحساس بها ولا تبقى الا قدرة الله المسيرة لكل شيء !

ان عمق وابعاد القضية لا تتضح الا اذا وضعنا المجموعة بكاملها ضمن اطارها ، فالصوفي ليس ابن الله وصورته كما يذكر الكتاب المقدس ، بل هو انسان يملك شهوات ورغبات وتشغله عن الله علاقات اجتماعية ومالية وسواها . وحتى يتوجه الى الله يفنى في نفسه كل هذه الاشياء ليقف امام الله بكليته ، متأملا قدرته منتظرا عطاءه ، وعندما يفنى كل شيء امامه، حتى احساسه بنفسه ، لا نفسه ، ولا روحه ، فالباقي هو قدرة الله المسيرة للباقي من وجود الانسان .

هي علاقة محبة ، وهي عملية تسليم مطلق ، وليست نزول الله ليحل بالبدن وليست اتحادا يصعد بها الانسان الى السماء ليكون والله شيئاً واحداً . بل هي علاقة محب بحبيبه ، فالانسان منفصلان ، لكن قدرة الاول وارادته تصبح قدرة الثاني ومشيبته لا اكثر . فالحب هنا هو اقرار لارادة الله فحسب!

(١) اللمع ص ٤٣٧ .

ويزداد الامر تعقيدا ان صاحب التجربة ليس مؤلف فلسفة، يحاول ان يضع اصطلاحاته خلال تجربته ، فهو يصرخ ويرمسي كلماته، وهي كلمات رمزية، ولذلك تكثر الاستعارات والتشبيهات. ثم يأتي التابعون فينسون التشبيهات ويتقولون بما شاء لهم العقل والمنطق . . دون ان يفطنوا الى الاصل ، والاصل هو ان تجربة الصوفي في الدور الثاني ، تجربة ذوقية ، تجربة عاطفية وانفعالية ، وليست تجربة عقلية وليست تجربة نظريات فلسفية !

- ٣ -

ميز المتصوفة ، ومن بينهم الحلاج ، بين الظاهر والباطن، وبين العامة والخاصة ، بهدف وضع افكارهم وتجاربهم ضمن السياق الديني نفسه ، وليخلصوا الى ان هذه الافكار والتجارب انما هي ذروة الدين نفسه وقمته، بما هي باطنة في الدين نفسه، وبما هي خاصة الاكثر ايمانا والاكثر وعيا للدين . ان دلالة التمييز ليست بكونهم يصرون على ان نظرياتهم وسلوكهم جزء من الدين فحسب، بل هي بما تكشفه من الاستيعاب المتكامل لجوهر الدين . فمن ناحية يكون التسليم لله ، وتعليق كل الامور به ، بجبرية تامة تأبى اي حيز مهما صغر من الحرية والاختيار ، ومن ناحية اخرى ترسم حدود السلوك القطعية، للمؤمن المخلص ، بالسعي لاقامة الصلة مع هذا الاله . ومن ناحية ثالثة يتم استيعاب الفرق الاخرى والمفاهيم الاخرى جميعا ، سواء منها ما ورد في الدين نفسه او ما لحق به من تأويل او تفسير، كدرجات تعبر عن مدى الايمان ، والتي تتدرج من الحدود الدنيا ، والمطلوبة من العامة ، انتهاء بالحدود القصوى التي يصل اليها المتصوف ، مرورا بالمتحدثين والفقهاء والمؤمنين على تنوع ادراكهم بل والمتألهين على تنوع مقاماتهم واحوالهم . ان هذا

- ٦٠ -

الترتيب بطبيعة الحال ، يعيد ترتيب الاوضاع والاشخاص ، على اسس مغايرة للوضع الاجتماعي الموجود فعلا . فهنا السلاطين والوزراء والقادة والمهتمين بجميع احوال الدنيا المادية يكونون في الدرك الادنى ، وهنا ايضا يكون الفقراء - والصوفي هو الاقفر ، اذ تحرك وتخلي عن كل ما هو دنيوي - والتعساء في درك اعلى ، وهنا كذلك يكون الصوفي الاكبر هو في أعلى الدرجات ، بما يمتح من علاقته مع الله ، وبما يصيره من عمل الله به كما جاء بالحديث القدسي . ان اعادة ترتيب الزمن والفئات على هذا الاساس يتضمن عدة دلالات هي :

فمن الناحية الفكرية ، يبلغ جدل الافكار بعضها مداه التام ، ضمن سياق يتكامل انسجامه ، وبتأثير الافكار الفلسفية الاجنبية ، والتي تأتلف مع هذا السياق الديني المحدد اصلا في النصوص الدينية . ان معراج محمد الخاص اصبح هدفا ، ولم يبق **تخصص محمد** ، بما هو نبي ، خص بامتياز فريد . ان نمو الفكر هنا ليس مجرد تعميم لهذا الخاض فحسب ، بل هو نمو جاء نتيجة لكل ذلك الجدل الذي بحث في اشكالات الدين . وحدد جذورها ومداهها . من هذا الجانب ، يكون الفكر الصوفي ، اشد الافكار التزاما وتزمتا ، واكثر المذاهب تصلبا تجاه المسائل الرئيسية . لكن وفي الآن نفسه ، يكون الفكر الصوفي اكثر المذاهب انفتاحا ، بما يشق من طرق فردية ، لا معيار لها ، ما دام يقوم على عنصرين هما الحالة الفردية والشخصية تماما ، والحالة الوجدانية غير العقلانية بل والرافضة للمنطق وللعقل . ان المدى الاقصى للفكر الديني عموديا باعلائه من الخيال ، ومداه الاقصى افقيا بافساحه المجال ليكون كل انسان صاحب تجربة خاصة ، يسلم هذه التجربة تسليما غير محدود لذلك الانفتاح على الوهم وعلى اللامعقولية !

ومن الناحية السياسية ، تؤسس هذه التجربة ، تلك العلاقة المتوترة مع السلطة ، والتي قد تصل الى تازمات باكرة .

ان التناقض الذي وضحناه بين تزمت الصوفية وانفتاحهم يكشف اسباب هذه العلاقة المتوترة . ان التزمت بطبيعة الحال يرضي السلطة ومنظروها من الفقهاء واصحاب المذاهب . كما ان الحل الفردي الذي تقدمه التجربة الصوفية ، وبما يتضمنه من عناصر سلبية تحتقر الحياة وتزدري مباحثها وتنزل عن التعاطي بمشاكلها وبهمومها يرضي السلطة واعوانها اكثر . . بيد ان التجربة يحد ذاتها وعبر اعادتها لتقييم المؤمنين على اساس من درجة تقواهم ودرجة احوالهم الذوقية ، وعبر هذا التأكيد على الحل الفردي الذي لا معيار يقيده ، انما يرسم حدود التصوف بما هو مولد لعناصر تتنافى مع الانصياع للسلطة وطاعتها . ان التصوف بما هو هروب فردي من الحياة نحو سعادة وهمية وبما هو سعي نحو لذات سماوية متخيلة ، يشكّل عنصر استقرار ، فيما لو بقي في حالاته الدنيا ، كمطلب للزهد وللتقوى وللطاعة ، لكنه يصبح عنصر **اغلاق** ، ما دامت حدوده منفتحة وتقود الصوفي لان يرتقي الى درجات يكون فيها ومعها ارادة الله وعلمه . ما الوالي امام الولي؟! وما القائد او الوزير او الخليفة امام قطب احبه الله ، فاصبحت كل القوانين رهن اشارته؟! وتاريخ الصوفية يكرر احاديث عن صدام يستوعب من قبل السلطة حيناً ، عبر رضوخ جزئي امام واقعة ما لصوفي يحتد ويحتج وينذر ويهدد . كما يكرر احاديث عن صدام لم يستوعب مما ادى الى اضطهاد للصوفي المحتج والمنذر ، مثلما يكرر احاديث اكثر عن صوفية قنعوا ورضخوا للسلطة ، بعد ان استوعبوا كلية ضمن اطر النظام ، الذي سيفسح لهم مجالاً خاصاً بهم ضمن اطره المبوبة وتلك كانت نهاية التصوف كعنصر **اغلاق** .

ومن الناحية الاجتماعية ، تؤسس هذه التجربة ، الحل الفردي ، لكل تعاسة الواقع ، وبؤس هذا الواقع ، بالركض فردياً وراء وهم يتلوه وهم . وليس عبثاً ان تكون الكرامات

المنسوجة والمخترة تدور حول الطعام والحوار وغير ذلك من اللذات المنتفاة من الواقع ، سواء لضبط الحياة الاجتماعية او لاختيار الصوفي لهذا الحرمان بارادته . ان التصوف على هذا النحو لا ينظر للبؤس والفقير فحسب ، بل هو يدعو للبؤس والفقير والحرمان ، ويعتبر هذه التعاسة ذروة السعادة ، والتاج الذي يجب البحث عنه بكل القوى والطاقات . فالسعادة ليست بالمتاع ولا بالملذات ، بل ان هذه الامور تكبل النفس وتمنعها من الحصول على لذاتها الحقيقية ، وانما السعادة بمقدار التخلي عن كل شيء ، وبمقدار ادامة العبادة والتجهد ، للوصول الى تلك الصلة مع الله وحبه . فالتعاسة تطرد بتوهم السعادة ، والعقل يطرد بخيال جامع يتحرك من دون قيد خلف قصص غير معقولة وغير واقعية ، تمتلىء بخداع النفس قبل ان تمتلىء بخداع الاخرين . لقد شبع المتصوفة من خبز اللذات المتوهمة ، وارتووا من ينبوع خيالاتهم غير المعقولة ! ولما جاء الحين الذي تطور فيه التصوف من بحث فردي الى بحث جماعي ، كانت السلطة قد اوجدت التكايا لتستوعب هؤلاء ولتطفئ اي عنصر شغب فيهم ، عبر اشرافها وعبر تقديمها للخبز وللماء الحقيقيين لهم مجانا .

لقد استطاع الخيال الصوفي ان يبحر بعيدا عن التعاسة الواقعية ، ودخل غياهب مدن اتقن صناعتها بتفوق رائع وبديع . ونسج عوالم متتابعة من خيوط الغيم والضباب ومن خيوط الاشعة ايضا ، محصنا منعزلا ، وكان هذا العالم هو الوهم ، وقد كان هذا العالم هو الوهم عندهم !

كما استعان الخيال اخيرا بالعقل ، محاولا عقلنة اطراف من الحالات الوجدانية واطراف من اوهامه وعوالمه ، لكنه ورغم ذلك ، لم ينخدع بهذه العقلانية المستعادة والتي نظمت جزءا من التجربة ، اذ ظل التأكيد مستمرا بان احوال الروح ، او احوال الخيال الصوفي ، تنبو فوق العقل ، بنوع من الازدراء لذلك العجز عن

الوصول الى تلك النشوات السامقة . وفي الان نفسه ، لقد كان الامر مريحا ، بابقاء العقل بعيدا ، ليتحرر الخيال من اي عائق يكذب او ينفي او يقيد ، وليمضي هذا الخيال حرا بابداعه على ما شاء وكيفما شاء !

- ٤ -

اذا ، كانت المرحلة الثانية للتصوف ، مرحلة تذوق ونشوى ، ومرحلة مقامات واحوال يتدرج خلالها الصوفي حتى يصل الى الله ، فيكون به ، مثلما يكون الحبيب بمحبوبه ، به يعيش وبه يفكر ، وبه يتخيل ، وما اكثر الخيال في هذه التجارب ، بل انني ارى انه اذا كان الفكر اليوناني يقوم بالعقل ، فالفكر الصوفي يقوم بالخيال ، فهي تجربة خيال في الاول والاخر ، وفي الظاهر والباطن . ولذا صعب منطقة هذه التجربة ، لا لتعاليتها فحسب ، بل لانها في كل اركانها تصفع العقل في تطاول لا يلحق به الا خيال مشابه . ومما كان مؤرخو التصوف ليلهثوا خلف هذه القوى غير المنظورة ، ما لم يملكو خيالا آخر احاط بالاول ونظمه في عقد غير منظم .

ولن نحاول الاحاطة بكل التجارب السابقة على الحلاج لنرى تجربته ، وهي تجربة عاطفية وانفعالية لشخصية عاطفية وانفعالية ، فحسبنا ان نمر على النماذج الهامة قبله ، واهم هذه التجارب تجربة ذي النون المصري ، وابي يزيد البسطامي ، والجنيد وسهل التستري .

وذو النون المصري اول من صنع المقامات والاحوال ، وهو شخصية غريبة ، ادعى قراءة الهيروغليفية ، وما ظنه معرفة كان خطأ ، الا انه كان يتقن السيمياء ، ويروى انه حول الحصى الى احجار كريمة . ثم اتهم بالزندقة (١) واحضر من مصر الى

(١) اللع ص ٤٩٨ .

بغداد مكبلا بالحديد في عهد المتوكل ، ثم برأت ساحته واعيد
مكرما . وكان معاصرا لابي يزيد ، وكان يخاطبه بأخي ، فهو
يسير على الطريق نفسه ، وان زاد عليه سياحاته الغريبة بين
الأثار الفرعونية ، وبمحاولاته السيمائية الاعجب !

عرف الصوفية بقوله : هم قوم آثروا الله تعالى على كل
شيء فآثرهم الله على كل شيء (١) .

وله في المقامات اقوال منها قوله في التوبة : توبة العوام من
الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة (٢) . وفي التوكل : ترك تدبير
النفس والانخلاع من الحول والقوة (٣) . وفي الرضا : سكون
القلب بمر القضاء (٤) .

وفي حال المحبة يقول : حب الله الصافي الذي لا كدره فيه:
سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا يكون فيها محبة ،
وتكون الاشياء بالله ولله ، فذلك المحب لله (٥) .

وسئل : بماذا عرفت الله تعالى ، فقال عرفت الله بالله ،
وعرفت ما سوى الله برسول الله عليه الصلاة والسلام (٦) .
وسئل عن الفقير الصادق فقال هو الذي لا يسكن الى
شيء ، واليه يسكن كل شيء (٧) .

ومما يروى عن وجده انه لما دخل بغداد اجتمع اليه جماعة
من الصوفية ، ومعهم قوال يقول ، فاستاذنوه بان يقول شيئا بين

(١) ص ٤٦ .

(٢) ص ٦٨ .

(٣) ص ٧٨ .

(٤) ص ٨٠ .

(٥) ص ٨٨ .

(٦) اللمع ص ١٤٥ .

(٧) اللمع ص ١٥١ .

يديه ، فأذن لهم ، فابتدا يقول :

صغير هواك عذبنى فكيف به اذا احتنكا
وانت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
اما ترثى لمكتئب اذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه
ولا يسقط على الارض ! الى آخر تلك القصة (1) .

فكلمات ذي النون المصري لا تغرب ، وهو متمسك بالزهد ،
ومتمسك بتلك « الباء » التي ستزول عند من يليه . فهو راكن
بالله ، وبالله يقوم كل شيء ، وحسبه ان يترك ما عداه ، ليكون
به .

اما من يلفت النظر اكثر ، فهو ابو يزيد البسطامي ،
فتجربته مشابهة تمام المشابهة لتجربة الحلاج ، وان كانت
الشخصيتان مختلفتين على نحو كبير ، فالبسطامي ساكن
في بلده ، قليل الترحال ، هادىء النفس اذا قورن بصاحبه وان
كانت له هيجانات ضخمة . الا ان الهم من ذلك ، فهو تقدير
اهل السنة ، بل المتصوفة له ، واستشهادهم جميعا بكلمات
ابي يزيد وتجربته الصوفية ، ورضاهم عنها وعن احواله ، بل
واعذارهم عن اقواله التي تغرب ، حتى تصبح كقرا ظاهرا ،
وهي اقوال غير مختلفة البتة عن كلمات الحلاج . وكم يصبح
الامر عجيبا عندما تؤول تلك الشطحات التي فاه بها ، مع
اعتبارها احوالا عالية لنفس عابدة مؤمنة ، بينما ظلت اقوال
الحلاج تعتبر دليلا على الكفر والاتحاد وظلل المؤرخون
والفقهاء والصوفية يستشهدون بها كدليل على فساد العقيدة
بانتحال الحلول او الاتحاد ، وان كانت الكلمات واحدة كما
سوف نرى !

وفي تجربة ابي يزيد البسطامي نلاحظ تدرجا من الزهد

(1) انظر الى القصة كاملة في اللمع ص ٢٤٦ .

الى تلك الحالة النفسية التي يصبح فيها هو وحببه شيئاً واحداً .

قيل له باي شيء وجدت هذه المعرفة فقال بطن جائع وبدن عار (١) .

وسئل عن الزهد فقال ليس له منزلة ، ثم ذكر ابتداء زهده ، فقال : كنت في الزهد ثلاثة ايام ، ففي اليوم الاول ، زهدت في الدنيا وما فيها ، وفي اليوم الثاني ، زهدت في الآخرة وما فيها ، وفي اليوم الثالث زهدت فيما سوى الله ، فلما كان في اليوم الرابع لم يبق لي شيء سوى الله ، فهتف بي هاتف : يا ابا يزيد ، انك لا تقوى معنا فقلت هذا الذي اردت ، فقال : وجدت ، وجدت . (٢)

وقد قضى ابو يزيد السنوات العديدة زاهداً ، يجوع نفسه ويستأصل منها كل شهوة ، حتى اذا ما تيسر له ذلك ، فني عن نفسه ، ولم يعد يرى الا الله .

وقال : للخلق احوال ولا حال للعارف لانه حجبت رسومه ، فلا يشاهد في يقظته ونومه غير الله تعالى (٣) .
وقال : ان لله عبادة لو احتجب عنهم في الدنيا او في الجنة لحظة ، لاستغاثوا كما يستغيث اهل النار من النار (٤) .
والاعتقاد بان رؤية الله في الدنيا غير وارد عند اهل السنة وجائز في الآخرة ، اما عند المعتزلة فرؤية الله غير حاصلة لا في الدنيا ولا في الآخرة .

(١) شطحات الصوفية : تحقيق عبد الرحمن بدوي (ص ١٦٦ و١١٨) ، والكتاب يشمل كتاب مناقب ابي يزيد ، وما كتبه سبط ابن جوزي في مرآة الزمان تحت عنوان مناقب سيدنا ابي يزيد السبطامي وغيرهما . .

(٢) ص ١٦٦ .

(٣) ص ١١٧ و١٢٨ .

(٤) ص ١٦٩ .

اما عن فنائه عن نفسه فيروى انه سئل : انت ابو يزيد؟
فقال : ومن ابو يزيد ؟ ليتني رأيت ابا يزيد . فلما سمع ذلك
ذو النون بكى وقال « ان اخي ابا يزيد فقد نفسه في حب
الله تعالى فصار يطلبها مع الطالبين » (١) .

ومن الاخبار التي تصور تجربته انه قيل له : انت من
انت ؟ قال : انا من ليلي ومن ليلي انا (٢) .

ومن كلماته قوله : سبحاني ، سبحاني ما اعظم شأني (٣)
وقوله : ارقى صفات العارف ان تجري فيه صفات الحق
ويجري فيه جنس الربوبية (٤) .

وفي حوار طويل نجده يتصعد بكلماته من كونه عبدا الى
كونه الله ، فيخاطبه بـ يا انا (٥) الى آخر الكلمات التي تذخر
بها اخباره . عدا عن ذلك تعاليه الضخم كما في قوله الذي
سيلعب دورا هاما في تفضيل الولي على النبي فيما سيلبي
من القرون :

« تا الله ان لوائي اعظم من لواء محمد صلعم ، لوائي من نور
تحتة الجن والجن والانس ، كلهم من النبيين » (٦) .
وهي كلمات خطيرة ، لذا دعيت بالشطحات ، ويعرف
الطوسي الشطح في اللمع : « عبارة مستفربة في وصف وجد
فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته » (٧) أو هو : « كلام
يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى الا ان

(١) ص ٧٣ و ١١٧ .

(٢) ص ١١٧ .

(٣) ص ٧٨ .

(٤) ص ٨٢ .

(٥) ص ١٣٨-١٤٠ .

(٦) شطحات الصوفية ص ٢١ .

(٧) اللمع ص ٤٥٣ .

يكون صاحبه مستلبا او محفوظا « (١) . وهو يرد الكلمة الى الحركة ، فمن فاض وجده ، كان كالنهر يفيض من حافتيه ، فيترجمها اللسان بعبارات مشككة ، يستغربها قوم ، اما القوم الذين يدركون علم الحقائق هذه ، فيفسرونها على انها معان لا لبس فيها . وقد سمي الطوسي هذا الجزء من كتابه بكتاب تفسير الشطحات ، والكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم ، وذكر فيه كلمات لابي يزيد ، وذكر تأويل الجنيد لها ، ثم عقب على التأويل بتأويل آخر من عنده ، وهو يقول :
« وقد فسر الجنيد رحمه الله شطحات ابي يزيد رحمه الله : ولو كان ابو يزيد رحمه الله في ذلك عنده معلولا ما فسرهما » (٢) .

اذن فكلمات ابي يزيد شطحات لا يؤاخذ عليها ، ولا تنقص من قدره ، لذا بقي موضع اعجاب وتقدير . وظل مقبولا دائما . وهذه احدي تفسيرات الجنيد (٣) .

(١) اللمع ص ٤٢٢ .

(٢) اللمع ص ٤٢٣ .

(٣) في شطحات الصوفية ص ٦٨ ما يلي : « قيل لابي القاسم الجنيد بن محمد ان ابا يزيد يسرف في الكلام ، فقال وما بلغكم من اسرافه في كلامه ؟ قالوا سمعناه يقول : سبحاني ، سبحاني ، انا ربي الاعلى . فقال الجنيد : ان الرجل مستهلك في شهود الاجلال فنطق مما استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته اياه فلم يشهد الا الحق تعالى ، فنطق به ، ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه فلنا من الحق به الم تسمعوا مجنون بني عامر لما سئل عن اسم نفسه فقال : ليلي . فنطق بنفسه ولم يكن من شهود اياه فيه . اما اللمع الذي حققه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، فالقصة فيه مختلفة وتناقض القصة الروية انفا . فالطوسي ينكر ان يكون ابو يزيد قال ((سبحاني . . سبحاني . وسبوح)) ثم انسه لا يذكر شيئا عن تأويل الجنيد للكلمات ، ثم انه يؤولها بنفسه على اساس انها وصف لله او قراءة لها مقدمات . راجع ذلك في اللمع ص ٢٧٢ و٢٧٣ .

« ذكر عن ابي يزيد انه قال : رفعتني مرة فأقامني بين يديه
وقال لي : يا ابا يزيد ، ان خلقي يحبون ان يروك .
« فقلت : زيني بوحدانيتك ، والبسني انانيتك ، وارفعني
الى احديثك، حتى اذا رأني خلقت قالوا رايناك ، فتكون انت ذلك،
ولاكون انا هنا . .

« فان صح عنه ، ذلك فقد قال الجنيد رحمه الله ، في
كتاب تفسيره لكلام ابي يزيد رحمه الله : هذا كلام من لم يلبسه
حقائق وجد التفريد في كمال حق التوحيد ، فيكون مستغنيا بما
البسه عن كون ما سأله .

وسؤاله لذلك يدل على انه مقارب لما هناك ، وليس المقارب
للمكان بكائن فيه على الامكان والاستمكان .
« وقوله : البسني وزيني وارفعني : يدل على حقيقة ما
وجده مما هذا مقداره ومكانه ولم ينل الخطوة الا بقدر منا
استبانته » (١) .

ثم يتابع الطوسي التفسير ، مؤولا الكلام حتى يصبح
صحيحا ومستقيما . والحلاج اتصل بالجنيد ، ولما بدأ تجربته
المشابهة لتجربة البسطامي ، نسبه الجنيد الى الادعاء ثم الى
السحر والشعوذة ، وهو الموقف نفسه الذي سوف يفقه معظم
الشيوخ منه . فهل كان الجميع يرددون موقف الجنيد ،
ويسرون خلفه معظمين البسطامي ولا عين الحلاج ؟!

وعلى النقيض من ذلك ، عاب الحلاج موقف ابي يزيد، وعاب
عليه زهده العنيف الذي اتخذه مرقاة للوصول وقنع به (٢) ،
فالزهد ليس غاية للصوفي مثلما هو ليس سبيلا له . ومما
يتصل بهذا ان ابن سالم كان يكفر ابا يزيد لقوله : سبحاني،
سبحاني (٣) !!

(١) اللمع ص ٤٦١ .

(٢) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي : طه عبد الباقي سرور ص ١٠٢ .

(٣) راجع رأي ابن سالم في اللمع ص ٤٧٢-٤٧٧ .

اما الجنيد ، فهو ابو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وامامهم . وهو معزز عند الجميع حتى عند رجال الفقه ، ذلك انه سار في طريق الاعتدال ، وركن الى الصمت فيما يتصل بتجربته فليست له شطحات يؤاخذ عليها ، لذا كان مقبولا عند جميع الفرق .

وهو شديد الزهد ، قال « ما نزعتم ثوبي للفراش منذ اربعين سنة » (١) . وقال ايضا « ما اخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع الممولات والمستحسنات » (٢) .

ولعل خطه المتوسط يظهر في اقواله المعتدلة التالية :
« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الامر ، لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » (٣) .
« الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر الرسول عليه الصلاة والسلام » (٤) .

« النقصان في الاحوال هي فروع لا تضر ، وانما يضر التخلف مثقال ذرة في حال الاصول ، فاذا احكمت الاصول لم يضر نقص في الفروع » (٥)

« اتفق اهل العلم على ان اصولهم خمس خلال : صيام النهار ، وقيام الليل ، واخلاص العمل ، والاشراف على الاعمال بطول الرعاية ، والتوكل على الله في كل حال » (٦)
وكانت له كرامات ، والظاهر انها كانت كرامات هينة من

(١) تاريخ بغداد ٧-٢٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٩ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٩ .

(٥) اللع ص ٢٨٩ .

(٦) اللع ص ٢٨٨ .

جنس قوله في العارف ، فهو « من نطق عن شرك وانت ساكت » (١) .

ولذلك كان اصطدامه بالحلاج عنيفا ، فاتهمه بالادماء والسحر كما ذكرت . ولكن المدعي ما اهتم بنقد شيخه المرير ، ومضى في تجربته ، ولعله لاحظ تلك المحاباة التي اوضحناها سابقا ، فشيخه يرضى عن ابي يزيد رغم غلو ما يقوله ، بل هو يحسن تلك الاقوال على حين كان يهاجمه بعنف !

وسهل التستري استاذ الحلاج الاول ، كان يمتع من التجربة ذاتها ، ويذكر بروكلمان ان سهلا اغراه بالانفصال عن الجنيد ، بما ادخله في روعه من انه قد انتهى الى حال الاتحاد بالله ! تلك الحال التي كانت لا تزال هدفا يتطلع اليه شيخه الجنيد (٢) .

والتستري احد ائمة القوم ، ويذكر القشيري انه لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع وكان صاحب كرامات (٣) ويذكر صاحب اللمع انه كان يصبر على الطعام سبعة ايام يوما (٤) !

من اقواله « التوبة فريضة على العبد مع كل نفس » (٥) فهاج عالم العامة ضده وكفره ونسبه الى القبائح ، حتى وثبوا عليه ، فخرج من تستر الى البصرة . وقال : مولاي لا ينام وانا لا انام (٦) .

وقال : اذا دفنت نفسك تحت الثرى وصل قلبك فوق

(١) الرسالة القشيرية ص ١٩ والبداية والنهاية ١١-١٠٤ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية : بروكلمان ٢-٨٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٤ .

(٤) اللمع ص ٤٠٦ .

(٥) اللمع ص ٤٩٩ .

(٦) اللمع ص ٤٧٦ .

العرش (١) .

وقال : للنفس سر ما اشاعها الحق الا على لسان فرعون ،
فقال : انا ربكم الاعلى (٢) .

ولعل ما يلفت النظر ، ان السهروردي الشهيد يضع العلاج
الى جانب ابي يزيد وذي النون والتستري وغيرهم من يسميهم
باصحاب الحكمة الاشراقية او الحكماء المتألهين ، ولا يورد الجنيد
فيمن يورد من الجماعة التي يعتقد بأنها التي وصلت الى
الفهم الصحيح .

وفي هذا مغزى واضح بعد هذا العرض لتجارب هؤلاء ،
وبقي ان نعرض تجربة العلاج . وهي لا تخرج عن تجارب اخوانه ،
بيد انها تجربة قاسية ومؤلمة وشاهقة وفريدة ، تصور مدى
ما يلقاه الصوفي وهو يتدرج نحو الله من عذاب شديد ! .

على اننا لا نملك صورة تاريخية لهذه التجربة ، تصور
لنا تدرجه من حال الى آخر اذ اننا ومنذ البداية ، وهو
لا يزال في العشرين من عمره تقريبا ، نسمع الآخرين يقولون
انه وصل الى اعلى المراتب . ومع ذلك يمكننا ان نؤلف من اخباره
هذه الصورة على نحو تقريبي ، وليس القصد من ذلك ، ان نقدم
صورة متكاملة عن تطور تجربته الصوفية عبر حياته ، بل ان
نبين اساس وجوهر هذه التجربة .

ولنتذكر دائما ونحن نقرأ العلاج ونقرأ عنه ، قول احد
الحكماء : « لا يبلغ المتحابان حقيقة المحبة حتى يقول الواحد
للاخر يا انا » . ولنتذكر الحديث القسدي الانف الذكر
« . . . ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا
احبته كنت سمعه الذي يسمع به . . » والحديث التالي « اتقوا
قراءة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى » . ففي هذه الدائرة
يدور العلاج .

(١) اللمع ص ٤٣٤ .

(٢) اللمع ص ٤٣ .

كان الحلاج شديد الزهد ، كثير الصلاة والصوم . لكنه لم يكن من هؤلاء الذين يرون ان الطريق الى الله يكون بكثرة العبادة ، « من ظن انه يرضيه بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمنا » (١) . انما يتلمس الله بالتوجه اليه كلية ، فبالحب وحده نصل الى الله . وهذا يأتلف مع شخصية الحلاج الدموية . فكأن بعض النفوس تملك استعدادا خاصا لمثل هذه الجولة ، فاذا ما سلكت طريق الزهد ، والزهد هنا ترك ما في الدنيا ، وصلت الى تلك الحالة العجيبة . ومما يؤكد هذا قول الحلاج :

« من التمس الحق بنور الايمان كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب » (٢)

وبالطبع اذا كان الله لا يلمس بالايمان والعبادة ، فانه لا يلمس بالعقل ، وفي ذلك يقول :

من رامه بالعقل مسترشدا اسرحه في حيرة يلهو
قيد شاب بالتلبيس اسراره يقول من حيرته هل هو (٣)

اذاً ، فما هو الطريق الذي سلكه الحلاج خلال تجربته ليصل الى الله ؟ من حوار مع خصم للحلاج هو النهرجوري ، نفهم مسلك الحلاج .

قال له :

- وان ورد عليك بعض اشارة ورمز ، فلولا ان تكون الواردات متصلة ، والاحوال مشتبهة مشتركة في المنزلة لما تقابلت الواردات ولا تساوت الحالات ولا علمت الخافيات .

قال :

- اذهب فعندي من الانباء ما فيه مزدجر ، وعن غد يأتيك الخبر .

(١) اخبار الحلاج ص ٦٦ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٩٤ .

فقال :

– يا شيخ قد اعلمني العلم بعد ان اخبرني المخبر .

فقال :

– لا اعلمك اطلاعا الا اذا ثبت لك عن اخبار كان اوله

سماعا .

فقال :

– يا شيخ انتج الاخبار شيئا على سبيل الفراسة ، فلم اثق به حتى اطلعت مع الوارد على الامر اطلاعا ، وعقدت اخباره على علمي ، فتقرب العلمان وتلاقى الخاطران وتساوى الفهمان، ولكني انكر ان يكون الاطلاع من غير اخبار اقوى والاستضاءة من غير نظر اضوا (١) .

انه في البداية يمسك طرف الخيط بالفراسة وبما يرد عليه من الاشراق الروحي وما حصل عليه متساويسا في الحالتين ونتائجها واحدة . فالطريق اذا كما بينت تكون باستعداد نفسي خاص ببعض النفوس (الفراسة هنا) والطريق تكون بهذه المقامات والاحوال الصوفية ايضا .

ولكن ما هذه الالغاز التي يدور حولها العلاج في تجربته؟ بمختصر العبارة انها الاتصال بالله . وان مفتاح هذه التجربة ، ومفتاح فكره – كما سنرى – ايضا هو هذه الجملة :

« تنجلي علي حتى ظننتك الكل وتسلب عني حتى أشهد بنفيك » (٢) .

فلنحاول ان نلحق بالعلاج راكضين خلفه من بلد الى بلد، والجين بستان حياته ، لنجده لا يخرج عن هذه الجملة ، انه في رحلته الروحية يصل الى النشوة فيحسب نفسه الكل ، فاذا ما انتهت لحظات النشوة وغابت ومضات الرؤية عاد فلم يشعر الا بجسده وكيانه ، فكأن الله بعيد جدا .

(١) اخبار العلاج ص ١٠٠ .

(٢) اخبار العلاج ص ١٤ .

سئل : اين اطلب الله ؟

فاحمرت وجنتاه وقال :

— الحق ، تعالى عن الاين والمكان ، وتفرد عن الوقت والزمان ، وتنزه عن القلب والجنان ، واحتجب عن الكشف والبيان ، وتقديس عن ادراك العيون ، وعما تحيط به اوهام الظنون . تفرد عن الخلق بالقدم كما تفردوا عنه بالحدث ، فمن كان هذه صفته كيف يطلب السبيل اليه .

ثم بكى وقال :

فقلت اخلائي هي الشمس ضوءها

قريب ولكن في تناولها بعد (١)

ففي اول الطريق ، كم الله بعيد ، وكم الله متعالى ، حتى ان استعمال اسم الاستفهام في حقه لا يصح ، لانه متعال على هذا الاستفهام والادراك ، منزله عن الطلب والكشف والبيان .

لكن لنتابع الطريق معه لنرى كم سيبقى الله بعيدا ؟

» يروى عن مسعود بن الحارث الواسطي انه قال : سمعت الحسين بن منصور الحلاج يقول لابراهيم بن فاتك وانا اسمع وكنت منزوعا :

— يا ابراهيم ، ان الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الابصار ، ولا تمسكه الاماكن ولا تحويه الجهات ، ولا يتصور في الاوهام ، ولا يتخايل للفكر ، ولا يدخل تحت كيف ، ولا ينعت بالشرح والوصف ، ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتنفس الا وهو معك ، فانظر كيف تعيش .

... وهذا لسبان العوام ، واما لسان الخواص فلا نطق له .
والحق حق والعبد باطل واذا اجتمع الحق والباطل فيضرب

(١) اخبار الحلاج ص ٨٠ .

(الحق على الباطل فيدفعه فاذا هو زاهق ولكن الويل مما تصفون) (١) .

فالله بعيد جدا ، لكنه ان اجتمع مع الصوفي يفنيه عن نفسه ، والويل لمن يصف هذه الحالة . بيد ان الحلاج يمضي مع ذلك في تجربته ، فاضحا اسرار وجدته ، وتبلغ قمة تجربته في اسواق بغداد بعد عودته من حجة الثالث حوالي سنة ٢٩٢ هـ . وكان امره قد اشتهر ، لذلك تكثر اخباره بعد هذا التاريخ .
ها هو ذا في سوق القطيعة في بغداد قائما على باب مسجد وهو يقول :

« ايها الناس ، اذا استولى الحق على قلب اخلاه عن غيره ،
واذا لازم احدا افناه عن سواه ، واذا احب عبدا حث عباده
بالعداوة عليه ، حتى يتقرب العبد مقبلا عليه .
« فكيف لي ولم اجد من الله شمة ، ولا قربا منه لمحة ،
وقد ظل الناس يعادونني .

« ثم بكى حتى اخذ اهل السوق في البكاء ، فلما بكوا عاد
ضاحكا وكاد يقهقه ثم اخذ في الصياح صيحات متواليات
مزعجات وانشأ يقول :

مواجيد حق اوجد الحق كلها
وان عجزت عنها فهوم الاكابر
وما الوجد الا خطرة ثم نظرة
تنشئ لهيبا بين تلك الشرائر
اذا سكن الحق السريرة ضوعفت
ثلاثة احوال لاهل البصائر
فحال يبيد السر عن كنه وصفه
ويحضرة للوجد في خال صائير

(١) اخبار الحلاج ص ٥٦ .

وحال به زمت ذرى السر فائنت
الى منظر افناه عن كل ناظر « (١) .

انه متردد ، هل يفشي سره ام لا ؟ فهو لم يجد من الله
شمة ولا لمحة ومع ذلك يتكلم عن هذا الوجد الذي يعجز الشيوخ
عن فهمه ، انه رؤية الله ، التي تبدأ بخطر ثم نظرة . فهل هو
حائر ؟ ام انه يتلاعب ، ام هو في حالة الفناء ؟ ثم ما هذا البكاء
الذي يليه الضحك والذي يعقبه صراخ مزعج ؟!

اشرت الى نواحي شخصيته فيما سبق ، وفي عرضنا
لتجربته سنجد تأكيدا لتلك النواحي من انفعال وتقلب وحيوية ،
كأجنحة تحيط بقلبه العاشق . اما ما يهمنا هنا فهو ان الله
اذا احب عبدا كشف له سره وقربه اليه وافناه عن اي شيء
آخر . وما يهمنا هنا كذلك ان العلاج في حديثه هذا وفي معظم
اخباره ، يبدأ بتنزيه الله عن اي شيء ، فاذا ما جاشت نفسه
بالانفعال ونسي نفسه ، او اذا ما اصبح في حالة غيبوبة ، او اذا
ما اطمئن الى من حوله عبر عن تجربته الحادة شعرا وفي بعض
الاحيان نثرا . وهذا الطابع الملفت للنظر يجب التوقف عنده
طويلا لانه غاب عن الكثيرين ، وفاتت العلاقة بين طرفي الحديث
على الكثيرين ايضا ، ولهذا تنقل بعض الكتب الاشعار لتدل على
ان العلاج حلولي او اتحادي ، وتنقل بعضها الاخر النثر لتدل
على ان العلاج تنزيهي .

وسوف اعرض عدة نصوص فيما يلي تبين مناحي هذه
التجربة واختلاف اثرها على نفسه وبالتالي على طلباته ، وفي
هذه الاخبار نجد العلاج مستهلكا في حالة اصطلام ، فهو يطالب
بالا ترد له نفسه ، ثم نجده يطالب بان ترد اليه نفسه ، ويبذل
اتينه فايته عندما يطالب الله بتخليصه من اسر جسده .

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .

اولا :

«وعن ابن الحداد المصري قال : خرجت في ليلة مقمرة!
الى قبر احمد بن حنبل رحمه الله فرأيت هناك من بعيد رجلا
قائما مستقبلا القبلة ، فدنوت منه من غير ان يعلم فاذا هو
الحسين بن منصور وهو يبكي ويقول :

أ - « يا من اسكرني بحبه ، وحيرني في ميادين قربه .

ب - « انت المنفرد بالقدم والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق .

أ - « قيامك بالعدل لا بالاعتدال ، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال ،

وحضورك بالعلم لا بالانتقال ، وغيبتك بالاحتجاب لا بارتحال .

ب - « فلا شيء فوقك فيظلك ، ولا شيء تحتك فيقلك ، ولا

امامك شيء فيجذك ، ولا وراءك شيء فيدركك .

أ - « اسألك بحرمة هذا الترب المقبولة والمراتب المسئولة : ان

لا تردني الي بعدما اختطفتني مني ، ولا تريني نفسي بعدما

حجبتها عني . . » الخ . (١) .

فهو سكران بمحبة الله ، فان عن نفسه في الله الذي يعلم

مقدار علوه وبعده . كما في المقاطع التي بدأها بالحرف ب ، لكن

الله رغم بعده يمكن ان يتصل بالعباد بالحب ، فيسكرهم ويقربهم

كما في المقاطع المبدوءة بالحرف (ا) ، وحتى لا نظن انه يقصد حلول

الله به او اتحاده معه يقول « حضورك بالعلم لا بالانتقال وغيبتك

بالاحتجاب لا بالارتحال » فالله يظهر ويرى نفسه للحلاج للحظات

ثم يتعد عنه محتجبا ، كومضات البرق . وانه لامر مستغرب

امر هؤلاء الذين يتحدثون عن حلولية الحلاج ، ترى ايقصدون

ان الله يحل به للحظات ثم يرتد عنه ؟ لا احسب ان هذا هو

المقصود بالحلول ، ولذا لم يكن الحلاج حلوليا ولا اتحاديا ، انما

هي تجربة فريدة ، فيها يقترب من الله ويراه ، الا ان هذا لا يدوم

اذ سرعان ما يعود الى نفسه ، فاذا الله محجوب ، لذا يسأل

(١) اخبار الحلاج ص ١٧ .

هذا الطلب موضحا هدفه الصوفي « لا تعدني الى نفسي ، وابقني معك وفيك وبك ايها الرب الى الابد » وكيف لا يطالب بهذا وهو الذي لما حصل على الحب ، استحقق به كل شيء دونه كما يقول: « وانا بما وجدت من روائح نسيم حبك ، وعواطر قريبك استحقق الراسيات واستخف بالارضين والسموات ، وبحقك لو بعث مني الجنة بلمحة من وقتي او بطرفة من اجر انفاسي لما اشتريتها ، ولو عرضت علي النار بما فيها من الوان عذابك لاستهونتها في مقابلة ما انا فيه من حال استتارك عني» (١) .

انه يريد الامساك بالزمان ، ليكون مع الله دائما ، انما الزمان كالدخان بالنسبة للطفل ، ما ان تضمه قبضة يده الصغيرة حتى يتلاشى ، فيعاود المحاولة مرة تلو المرة متعجبا ، كيف لا يمسك بالدخان ! والحلاج كهذا الطفل ، رأى الدخان ، فأراد الامساك به ، وامسك به للحظة ، ثم نظر فاذا بالدخان يبتعد، وانما تبدت طفولته المعذبة عندما اراد ان يجعل الحياة بأكملها لحظات انية كلها نشوة ، اراد ان يوقف الزمان ويجعله حاضرا دون ماضٍ ودون مستقبل ، فأصبحت حياته كلها تطلع وترقب ، ملؤها الصراع والقلق والخوف من هجران الحبيب ومن حرمانه من نعمة الوصال والحضور .

وهذا يفسر ما قلناه عن مفتاح تجربة الحلاج ، وهذا هو النص بأكمله عن هذا المفتاح :

« يا من لازمني في خلدي قريبا ، وباعدني بعد القدم من الحدث غيبا . »

« تتجلى علي حتى ظننتك الكل ، وتسلب عني حتى اشهد بنفيك . »

« فلا بعدك يبقى ، ولا قربك ينفع ، ولا حרבك يفني ، ولا سلمك يؤمن » (٢) .

(١) اخبار الحلاج ص ٦٨ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٤ .

فاله يتجلى عليه حتى يظنه الكل ، ويحتجب عنه حتى يشهد بأن لا وجود له ، فلا الرؤية تبقى ولا الاحتجاب يبقى . ولن نعيد تفصيل ما قلناه من جديد ، انما اريد ان الفت الانتباه في هذا التحليل الى كلمة «ظننتك» وهي هامة في تقرير تجربته بعكس ما يرى الذين يؤكدون حلولية العلاج المزعومة . وهذا الظن مكرر في تجربة العلاج ، ويشابهه التمثيل المكرر كذلك كما سيمر معنا كثيرا ، ولذا كان العلاج كثيرا ما يرد ان لسان حاله لا نطق له .

ثانيا :

« ... فلما خاض في الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذ عن نفسه :

« يا اله الالهة ، ويا رب الارباب ، ويا من (لا تأخذه سنة ولا نوم) رد الي نفسي لئلا يفتن بي عبادك .
« يا هو انا ، وانا هو ، لا فرق بين انيتي وهويتك الا الحدث والقدم .

« ثم رفع راسه ونظر الي وضحك في وجهي ضحكات ثم قال :

« يا ابا اسحق : اما ترى ان ربي ضرب قدمه في حدثي حتى استهلك حدثي في قدمه فلم يبق لي الا صفة القديم ونطقي في تلك الصفة ، والخلق كلهم احداث ينطقون عن حدث ، ثم اذا نطقت عن القدم ينكرون علي ويشهدون بكفري ويسبعون الي قتلي ، وهم بذلك معذورون وبكل ما يفعلون بي مأجورون » (١) .
في النص الاول يطالب بالآ ترد اليه نفسه ، وها هو الان يطالب بأن ترد اليه نفسه ، وذلك حتى يتخلص من معاداة الناس له ، وهو موقف سنتعقب نموه الى ان يبلغ قمته في طلبه الموت .
على ان تجربته ليست كلها استهلاك وحضور وسكر بالحب

(٢) اخبار العلاج ص ٢٠ .

وضيق بالبعد ، وتنزيهه لله بل هناك حالة تالية .
ثالثا :

« وقال احمد بن القاسم الزاهد : سمعت الحلج في سوق بغداد يصبح :

« يا اهل الاسلام اغيثنوني ، فليس يتركني ونفسي فانس بها ،
وليس يأخذني من نفسي فاستريح منها ، وهذا دلال لا اطيعه .
» ثم انشأ يقول :

حويت بكلي كل كلك يا قدسي

تكاشفني حتى كأنك في نفسي

اقلب قلبي في سواك فلا ارى

سوى وحشتي منه وانت به انسي

فها انا في حبس الحياة ممنوع

عن الانس فاقبضني اليك من الحبس(١)

وكلمة كأنك في نفسي ، اشرت اليها قبل قليل عند الكلام
عن الظن والتمثيل والمثابفة . انما المهم هذه الحالة الجديدة التي
يصيح فيها مستنجدا ، وهذا الطلب للموت حتى يتخلص من
حبس الحياة ، فيعائق الله في ابدته وازله !

وهذا الموقف هو ما يسميه في النص التالي «الحيرة» :

« وعن علي بن مردويه قال : سمعت الحسين بن منصور
قد سلم عن الصلوة فقال :

« اللهم ، انت الواحد الذي لا يتم به عدد ناقص ، والاحد
الذي لا تدركه فطنة غائض وانت (في السماء اله وفي الارض اله) .

« اسالك بنور وجهك الذي اضاءت به قلوب العارفين
واظلمت منه ارواح المتمردين ، واسالك بقدسك الذي تخصصت
به عن غيرك وتفردت به عن سواك :

« ان لا تسرحني في ميادين الحيرة ، وتنجيني من غمرات

(١) اخبار الحلج ص ٥٩ .

التفكر ، وتوحشني عن العالم ، وتؤنسني بمناجاتك ، يا ارحم
الراحمين .

« ثم سكت ساعة وترنم ، ورفع صوته في ذلك الترنم وقال:
« يا من استهلك المحبون فيه ، واغتر الظالمون بأياديه ، لا
يبلغ كنه ذاتك اوهام العبادة ، ولا يصل الى غاية معرفتك اهل
البلاد ، فلا فرق بيني وبينك الا الالهية والربوبية .
« وكانت عيناه في خلال الكلام تقطر دما . فلما التفست
الي ضحك فقال :

« يا ابا الحسن خذ من كلامي ما يبلغ اليه علمك ، وما انكره
علمك فاضرب بوجهي ولا تتعلق به ، فتضل عن الطريق » (١) .
اذا فهي تجربة خاصة ، يخشى منها على غيره لما فيها من
التباس وحيرة ووصال وفكاك !

- ٧ -

هل وجدت نفس العلاج الرضا وهي ترتعش لنسمات
الحب ، ولنظرات الوله الحنونة؟! لا لان الرضا محال ، فلحظات
الحب قصيرة ، اذ انه ما ان تتناوب الروح مشاعر النشوة واللذة،
فتتهاوى سكرى بخمرة لم تمر بكرم ، حتى تختفي الكؤوس ،
وتتلاشى الراح ، وتعود النفس الى قيودها ، فتحفر الكآبة
سراديبها امام الفرح وتتوجه بالقلق راکضة هنا وهناك ، باحثة
عن السراب ، مشرابة من جديد ، لتعود والحسرة تأكل القلب
كمن اضاع اعز ما يملك !

والعلاج عبر عن هذا الموقف ، فالقرب تلبيس ، والجمع
ورطة، والحب يولد الحيرة ، فلنستعرض هذه الاحوال التي
تقف عند قمة التجربة ولدى نهايتها .

(١) اخبار العلاج ص ٢٤ .

ها هو ذا يملي على بعض تلامذته :
« ان الله (تبارك وتعالى وله الحمد) ذات واحد قائم
بنفسه ، منفرد عن غيره بقدمه ، متوحد عن سواه بربوبيته .
لا يمازجه شيء ، ولا يخالفه غير ، ولا يحويه مكان ولا يدركه
زمان ولا تقدره فكرة ولا تصوره خطوة ، ولا تدركه نظرة ، ولا
تعتبره فترة .

» ثم طاب وقته وانشأ يقول :

جنوني لك تقديس وظني فيك تهويس
وقد حيرنسي حسب وطرف فيه تقويس
وقد دله دليل الحب ان القرب تلبيس (١)
وكون القرب تلبيس ، والحب محير ، نجد له شواهد
اخرى منها قوله :

« يا من لم تصل اليه الضمائر ، ولم تمسه شبه الخواطر
والظنون ، وهو المترائي عن كل هيكل وصورة ، من غير مماسة
ومزاج . وانت المتجلي عن كل احد ، والمتحلي بالازل والابد .
» لا توجد الا عند اليأس ، ولا تظهر الا حال الالتباس (٢) . .
وكما في قوله ايضا :

ظهرت لخلق والتبست لفتنة

على بعض خلق واحتجبت عن خلق
فتظهر للإبصار في القرب تـسـارة

وطورا عن الإبصار تقرب في الشرق (٣)
والالتباس عنده يأخذ معنى خاصا ، لأن الله بعيد جدا
عن العباد ، منزه لا تصل اليه الضمائر والقلوب ، فكيف يصل
اليه الحلاج ويدعي الحب المتبادل بينهما ؟ هذا احد معاني

-
- (١) اخبار الحلاج ص ٣٠ .
 - (٢) اخبار الحلاج ص ٢٢ .
 - (٣) اخبار الحلاج ص ٨٤ .

الالتباس ، وهذا يفسر حديثه المستمر ذا المضمونين ، تنزيه الله ،
ثم تجليه على الحلاج ، وهذا ما يجعلنا نرفض ان نقول ان الحلاج
كان حلوليا او اتحاديا ، فهو يرى ان الله منزه وما الصلة به
الا حال التباس !

ومن معاني الالتباس عنده كذلك ، ما يتصل بعلاقة الحب
ذاتها ، فالحب ملتبس لانه لا يدوم ففيه سرور سرعان ما يزول
ليحل فراق مهلك .
قال :

« نزول الجمع ورطة وغبطة ، وحلول الفرق فكاك وهلاك ،
وبينهما يتردد الخاطران اما متعلق بأستار القدم او مستهلك في
بحار العدم » (١) .

فالحب غبطة لكنه ورطة ايضا ، وشتان بين الموقفين ، بين
ان يكون مع الله وفجأة يجد انه في العدم .
وبسبب هذا الالتباس او ما سماه كذلك « الورطة والغبطة »
والفكاك والهلاك» نجد اضطراب انينه ، ففي كل مرة يرجو شيئا ،
ويسأل الله امرا مختلفا ، وهذا التناقض يعبر عن احواله المختلفة
التي نطق بها ، فقد مر كيف انه يطالب بالألا ترد اليه نفسه ثم بأن
ترد اليه نفسه ، والا يسرح في الحيرة ، لان القرب والبعد لا
يبقيان !

لكن للالتباس معنى ثالثا وهو الاخطر ، اذ ان الله منزه
ولا يمكن الاتصال به ، فكيف يدعي رؤيته وهي غير جائزة عند
المسلمين ، ثم ان حديثه باسم ربه وكأنه الرب يولد الالتباس
ويولد الشك في صدق تجربته وفي صدق عقيدته ، وما اسهل
ان يكفر بسبب ذلك في بيئة اسلامية متشددة . وبعض المتصوفة
لا ينكرون على الحلاج تجربته انما ينقدونه لانه اباح السر . وهو
نفسه كان يعتقد ذلك ، الا انه موقف ملتبس : لا يجب ان يبوح

(١) اخبار الحلاج ص ٥٠ .

به، ولا يستطيع الا ان يبوح . وفي ذلك يقول :
 من اطعوه على سر فباح بسـه
 لم يأمنوه على الاسرار ما عاشـا
 وعاقبوه على ما كان من زلـل
 وابدلوه مكان الانس ايحـاشا
 الا انه في حالة كحال الفاقد القدرة :
 القاه في اليم مكتوفا ، وقال : اياك ، اياك ، ان تبتل بالماء
 او كما قال ايضا :
 سقوني وقالوا لا تفن ولو سقوا
 جبال حنين ما سقيت لغنـت
 تمت سليمى ان اموت بحبها
 واسهل شيء عندنا ما تمنـت
 وقد مر معنا كيف انه يتعجب من الطالبين بقتله ، وكيف انه
 يطالب الله بأن يخلصه من سجن جسده ليكون معه الى الابد،
 على ان هذا الطلب يتخذ اشكالا اعنف واقوى .
 كان في داخل جامع المنصور فاذا به يقول :
 « ايها الناس اسمعوا مني واحدة ،
 « فاجتمع عليه خلق كثير ، فمنهم محب ، ومنهم منكر .
 « فقال : اعلموا ان الله تعالى اباح لكم دمي فاقتلوني ، فبكى
 بعض القوم . فتقدمت (عبد الودود بن سعيد بن عبد الغني
 الزاهد) من بين الجماعة وقلت :
 « يا شيخ ، كيف نقتل رجلا يصلي ويصوم ويقرأ القرآن؟
 « فقال : يا شيخ ، المعنى الذي به تحقن الدماء خارج عن
 الصلاة والصوم وقراءة القرآن ، فاقتلوني تؤجروا واستريح .
 « فبكى القوم وذهب فتبعته الى داره وقلت : يا شيخ ما
 معنى هذا ؟
 « قال : ليس في الدنيا المسلمين شغل اهم من قتلـي

.. الخ « (١) بل ان قتله اعز يوم عنده :

« ثم قال : يا بني ان بعض الناس يشهدون علي بالكفر ،
وبعضهم يشهدون لي بالولاية والذين يشهدون علي بالكفر احب
الي والى الله من الذين يقرون لي بالولاية فقلت : يا شيخ ولم ذلك؟
» فقال : لان الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم
بي ، والذين يشهدون علي بالكفر تعصبا لدينهم ، ومن تعصب
لدينه احب الى الله ممن احسن الظن بأحد .

« ثم قال لي : وكيف انت يا ابراهيم حين تراني وقد صلبت
وقتلته وحرقت وذلك اسعد يوم من ايام عمري جميعه .. ثم قال
لي : لا تجلس واخرج في امان الله .

وقد مر بناوند ، وكانت البلدة تحتفل ببداية العام ، بداية
شهر الشمس والزهور ، شهر الحب والخصب ، فاذا به يتأوه
بعد ان يعلم انه يوم نيروز ليقول :

« متى نورز ؟ متى اصلب ؟ »

فالالتباس قاده الى ان في تجربته نوعا من التناقض او
الخطيئة التي لا مفر منها اذ اجترا وفضح سره وهتك ستائر
محبوبه ! والالتباس قاده الى ان تجربته مرة لان القرب لا يدوم ،
لذلك طلب الموت .

في الموت حل وحيد ، فيه تنطلق الروح في الاجواء دون
 قيد في رحلة سماوية . الا ان العلاج وان اتفق مع سقراط في
ان الموت هو التخلص من اعباء الجسد ومطالبه ، الا انه يختلف
عنه في انه طلب الموت وحض الناس عليه ، ففيه السعادة والفرح
الابددي ، ولذلك كان مكفروه احب اليه من اصدقائه .

ولقد طلب الالم كذلك ، ففي العذاب ينبع الحب .

اريدك لا اريدك للشباب ولكنني اريدك للعقاب

(١) اخبار العلاج ص ٧٥ .

(٢) اخبار العلاج ص ١٤ .

فكل مآربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب
ولعل الحلاج في ذلك يشبه دستويفسكي الذي كان يجد
السعادة بالآلم ، لآثما اليد التي تصفعه على ما يذكر زفايج، ويشبهه
كذلك بتهوفن الذي كان يجد الفرح من خلال الآلم كما ذكر
رولان . الا ان الحلاج - كما اختلف عن سقراط فهو يختلف
عن دستويفسكي ، فدستويفسكي في تقبله لقدره احب قدره
واحب معه الحياة ، وكذا الامر بالنسبة لبتهوفن الذي رفع
صوت شلر عاليا في صلاته العذبة بتمجيد الفرح والحياة في
اخر السمفونية التاسعة ، بينما الحلاج لم يقدر الحياة ، لان
الحياة لا قيمة لها ، لذلك طلب الاحتراق ، فهو يمثل الذروة في
فكرة الخلاص .

ويصل الامر بالحلاج الى طلب ملح نستغربه ، وكأنه يكره
نفسه ، وها هو ذا يصفها بالملعونة طالبا الموت لها والقصة في
سوق بغداد ايضا :

« وعنه - الحسين بن حمدان قال : سمعت الحسين يقول
في سوق بغداد :

الا ابلى احيائي بانبي

ركبت البحر وانكسر السفينة

على دين الصليب يكون موتني

ولا البطحا اريد ولا المدينة (1)

«فتبعته ، فلما دخل داره كبر يصلي فقرا الفاتحة والشعراء
الى سورة الروم فلما بلغ الى قوله تعالى (وقال الذين اوتوا العلم
والايمان) الاية كررها وبكى ، فلما سلم قلت : « يا شيخ تكلمت
في السوق بكلمة من الكفر ثم اقامت القيامة ههنا في الصلاة،
فما قصدك ؟

(1) حاول بعض المتصوفة تلويل هذا البيت ، لكن ليس لذلك معنى . بل هذا
ياتلف مع طلبه الموت وكأنه يقول اني غيرت ديني فاقتلونني .

« قال : ان تقتل هذه الملعونة ، و اشار الى نفسه .
« فقلت : يجوز اغراء الناس على الباطل ؟
« قال : لا ولكني اغريهم على الحق ، لان عندي قتل هذه
من الواجبات وهم اذا تعصبوا لدينهم يؤجرون » (١) .
فهو يشعر بنوع من الخطيئة التي تجعله يكره ذاته ويصفها
بهذا الوصف «الملعونة» . ومن الواضح ان هذا الكره يعود لكون
هذه «الملعونة» تحول بينه وبين معشوقه وتبعده عنه ، ولذا يتمنى
الخلاص منها ايضا !

- ٨ -

لكن الم يكبر الطفل ام انه استطاع ان يمسك الدخان ؟! لقد
كبر وبالوقت نفسه عرف كيف يمكن الاحتفاظ بالدخان ! وبذلك
يكون العلاج قد ادعى ما لم يستطع الاوائل ولا الاواخر ان يصلوا
اليه !!
والقصة ايضا تجري في بغداد قبل هربه ، وهو يدعي فيها
انه يرى الله في كل لحظة وان الله لا يغيب عنه ابدا .
وهو بذلك قد حقق هدف رحلته ، ونال ما كان يرجوه وهو
البقاء مع الله الى الابد ، دون تحفظ ودون موارد !
« وعن ابي الحسن علي بن احمد بن مردويه قال : رأيت
العلاج في سوق القطيعة ببغداد باكيا يصيح :
« ايها الناس اغيثوني عن الله ، ثلاث مرات .
« فانه اختطفني منه وليس يردني علي ، ولا اطيق مراعاة
تلك الحضرة واخاف الهجران فأكون غائبا محروما . والويل لمن
يفيب بعد الحضور ، ويهجر بعد الوصل .
« فبكى الناس لبكائه حتى بلغ مسجد عتاب فوقف على

(١) اخبار العلاج ص ٨٢ و٨١ .

- ٨٩ -

بابه واخذ في كلام فهم الناس بعضه واشكل عليهم بعضه فكان
مما فهمه الناس انه قال :

« ايها الناس ، انه يحدث الخلق تطفأ ، فيتجلى لهم ، ثم
يستتر عنهم تربية لهم فلولا تجليه لكفروا جملة ، ولولا ستره
لفتنوا جميعا ، فلا يديم عليهم احدى الحالتين .

« لكني ليس يستتر عني لحظة فاستريح حتى استهلكمت
ناسوتيتي في لاهوتيته وتلاشى جسمي في انوار ذاته فلا عين لي
ولا اثر ولا وجه ولا خبر . . الخ » (١) .

اذا تم الامر واصبحت الرؤية مستمرة ، واصبح تجلي الله
دائما ، ولم يبق الا الله ، او لم يبق الا الحلاج - وهو الاصح -
فحق له ان يقول للشبلي: « انا الحق » . في تلك الايام نفسها !
هل اتحفت يا ابا المغيث ؟

« بلى ، اتحفت بالكشف واليقين ، وانا مما اتحفت به
خجل غير اني تعجلت الفرع » (٢) . هذا وقد ذكرت في بداية هذا
الفصل حديثا عن الرسول حول هذه التجربة نعيده لنقارنه بقول
الحلاج مستمد من الحديث ، ولعل الفارق الوحيد بين حديث
الرسول وقول الحلاج ، هو ان الحلاج يعطي حديث الرسول
ابعاده دون اي تهيب او وجل .

يقول الحلاج :

« من هذب نفسه في الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات
ارتقى الى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقى في درجات
المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه من البشرية
حظ ، حل فيه روح الاله الذي حل في عيسى بن مريم ولم يرد
حينئذ شيئا الا كان كما اراد ، وكان جميع فعله فعل الله

(١) اخبار الحلاج ص ٢٦ و ٢٥ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٤٥ .

تعالى « (١) .

اما الحديث ففيه قول الرسول عن الله :
« وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ،
ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احبته
كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي
يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وببي يبصر وببي
يبطش وببي يمشي ، ولئن سألتني لاعطيتك ولئن استعاذتني
لاعيذنه . . الخ . . » .

- ٩ -

لنجمع الخيوط بعد هذا العرض لشخصية العلاج وتجربته
لنرى موقعه وافقه الذي مد بصره اليه .
وليس لنا ان نناقش طبيعة التجربة الصوفية بحسب
مفاهيمنا فذاك له موضعه من الكتاب . وحسبنا هنا ان ننظر الي
الموضوع بتلك البديهية التي طرح بها انذاك ، وهي عقيدة دينية
محورها الله كذات سماوية تقام العلاقة معها وفقا لطرق وحدود
مختلف عليها عند الفرق الاسلامية .
فاذا نظرنا الي العلاج بحسب هذه البديهية ، وجدنا ان

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٨ للبغدادي ، وذكر النص في تاريخ الاسلام
لحسن ابراهيم حسن ج ٣ ص ٢٢٧ اما تنمة النص فهي كما يلي :
«وذهبوا انه ادعى (العلاج) لنفسه هذه المرتبة . وقيل انهم ظفروا بكتب
له الي اتباعه عنوانها « من الهو هو رب الارباب المتصور في كل صورة
الي عبده فلان» فظفروا بكتب اتباعه اليه وفيها «يا ذات الذات ومنتهى
الغايات ، نشهد بانك المتصور في كل زمان بصورة ، وفي زماننا هذا
بصورة الحسين بن منصور ونحن نستجير بك وترجو رحمتك يا علام
الغيوب» انتهى . . وتترك مناقشة هذا الان الي موضعه .

- ٩١ -

تجربته متلائمة ضمن اطار العصر انذاك ، فما يتحدث عنه وما يصفه مطروح دينيا كما هو واضح في الحديث الذي ذكرته، وكما هو واضح في سواه ، مما يكرر الصوفية الاستشهاد به .
وتجربته لا غبار عليها ايضا من وجهة نظر المتصوفة على الخصوص ، بل ان القشيري والطوسي - وهما من المعتدلين - لا يعارضان هذه التجربة بل يرونها المرحلة الاخيرة من رحلة الصوفي . ذلك ان اقامة علاقة مع الله تجعل الصوفي اخيرا كمن ينظر في مرآة ، بل ويمكن ان نبعد اكثر في التشبيه ، لانه يكون المرآة ايضا !

ومن هنا نصل بين تجربة الحلاج وبين التجربة الصوفية عامة ، وهي بعد هذا التحليل ، قمة التجربة الصوفية .
ومع ذلك فلقد نقد الصوفية الحلاج ، ولكنني احب ان اميز بدقة حدود هذا النقد ، ذلك ان هؤلاء النقاد لم ينقدوا تجربة الحلاج وانما نقدوا شخصية الحلاج .

والتجربة الصوفية ، لكونها تجربة لا تنفصل عن شخصية المجرّب بل ولهذا السبب ، على عكس ما يتراءى للوهلة الاولى ، تؤكد ان التجربة جزء من ذلك العصر . وانما نقد الحلاج من قبل اصحابه ، لانهم لم يصدقوا انه وصل الى هذه المرتبة التي يدعيها ، فهو اول مدع ، ثم انه لو كان صادقا لسكت .

ووصلنا بين تجربة الحلاج والتجربة الصوفية عامة ، ثم وصلنا بين شخص الحلاج وتجربته ثانيا يبرز طبيعة موقفه ، لان من يخوض تجربة كهذه ، وشخصيته هي كما علمنا ، لا بد ان يجعله قريدا ، ومنعزلا ، يجلس على القمة ، وبالنتيجة توجب وصلا جديدا بين الحلاج وبين افراد مجتمعه ، وهي العلاقة التي ستتحكم بالموضوع كله .

ان التجربة على اهميتها القصوى ، ما كانت لتكون شيئا ، لو ملك الحلاج طبعاً باردا ، يناجي ربه في بيته او في صومعته ، وما كانت تجربة الراهب ستلفت نظر احد ، ولكن الحلاج ، بما كان

ذاك الشخص الهادىء ، لذا اصبحت قضيته قضية تحد .
وليس معنى ذلك ان القضية بحد ذاتها دون لبس، بل هي
الالتباس نفسه لان المعنى عامة اضمخ من الكلمة ، والحروف
عاجزة عن استيعابه ، وهذا مصدر التأزم بين الحركة الباطنية
والخارجية للفعل ، ولظاهر المعنى ومضمونه ، بل ان التمعن في
الحديث القدسي ليشعر بهذا الالتباس نفسه . ذلك ان الاسلام
بت بصورة نهائية بقضية التوحيد ، دون ان يفعل الامر نفسه
بالنسبة للتنزيه ، حتى ان اعمق المجردة ظلوا على الاعتقاد بذاتية
الله وان كان خصومهم ينعون عليهم بأنهم عبدوا عدما ، وهو نقد
لا يزيل اللبس ، بل يثبتته . والامر نفسه حدث بالنسبة لقضية
القضاء والقدر التي يطرحها الحديث ايضا .

وسوف نجد ان الحلاج سوف يحاول ايجاد حلول
للالتهباسات في التجربة نفسها ليزيلها . وهي محاولة فكرية
هامة . بيد ان الموضوع اساسا ، وطريقة معالجته لالتهباس
ومنهجه غير المألوف واسلوبه الغريب ليؤكد القاعدة التي ارتكز
عليها الحلاج في موقفه كشخص من نوع معين يقف على اعلى
القمم . وهذا ما سوف يحدد النتيجة التي ستقلب الصورة ، فاذا
بها صورة فرد امام المجموع ، وليست قضية صوفية معينة،
وان كانت هي كذلك . وليس عبثا ان كل اقواله لم تؤد الى
ايقاع الموت به .

وكل هذا يشكل ارضية ، حاولت تعريفها ، لتظهر بوضوح
شكل الحلاج فوقها ، بيد ان النتائج ، التي المحت اليها ، والتي
سوف اعرضها بالتفصيل في الفصول القادمة ، ستحيط بالصورة
الاحاطة التامة ، بل وستتشابك الخيوط داخلها ، فاذا بالصورة
العارية نسج اخر ، بل هي ليست اكثر من ارضية برز عليها
الحلاج ، ولكن كاسطورة من الاساطير ، وليس من ارضية اصلح
لاسطورة ما في عصر الاساطير ذلك من شخص كهذا له مثل هذه
التجربة، والتي من طبيعتها ان تمتد تلقائيا وبطبيعة الحال ان هذا
الامتداد، كان يلبي حاجات اساسية، في ذلك العصر، ولدى جموعه،

ليس من الناحية الفكرية فحسب ، كما المحنا ، بل ومن الناحية الاجتماعية ايضا ، وهو ما سنعالجه لاحقا .

- ١٠ -

وللحلاج شعر رقيق بحبه ، بعيد عن الابتذال ، وبعيد عن التعميق اللفظي ، وهو يجري شعره بحنان دون صنعة ، ويتضح ذلك اذا قورن بشعر ابن الفارض ، يقول ماسنيون :

«وما مؤلفات الحلاج الشعرية سوى احاديث متواصلة لروحه مع هذا الروح الالهي حول حبهما المشترك .
» وهو بعيد في شعره عن المادة ، بعكس غيره من المتصوفة الذين يستعملون التعابير الجنسية « (١) .

وكان كل هم الحلاج ان يصف تجربته الروحية ، معبرا عن مشاعره المتوقدة في نفسه ، لذا فهو شعر جميل معبر ، نجد فيه اللوعة والحنين والشوق للحبيب ، والالام والغربة لفراقه ، والبهجة والسرور بلاقائه ، وتعطشه الدائم والمستمر لهذا اللقاء الذي لا يدوم ، والذي ينقطع ، والذي يغيب ، طالبا تجددده واستمراره ، ليصف بعدها ذلك اللقاء الدائم . .

وسنورد بعض هذه الاشعار المأخوذة من ديوانه ، وهي لوحة اخرى تكشف تجربة الحلاج ، وتؤيد ما ذهب اليه خلال تحليلي لهذه التجربة . بعكس ما يتراءى للقارئ وهو يطالع العديد من المراجع التي اقتصت بذكر مجموعة من الاشعار فقط لتؤيد فكرتها عن مذهب الحلاج الاتحادي او الحلولي مهمة سواها .
وقد حاولت ان اختار مجموعة تصور تجربة الحلاج كاملة

(١) مقدمة الطواسين . . ترجمة شعبان بركات في مجلة الاداب اللبنانية سنة ١٩٥٤ العدد الثاني .

من جميع نواحيها دون اهمال لاي منحى . . مرجعا القارىء الى اشعاره الاخرى الموزعة في هذا الكتاب .

ويبقى بعد ذلك سؤال عن مدى صحة نسبة هذا الشعر للحلاج ، وقد ارجأت هذا الموضوع للفصل الخاص عن اسطوره.

يا نسيم الريح قولي للرشاشا لم يزدني الورد الا عطشاشا
لي حبيب حبه وسط الحشاشا لو يشا يمشي على الخد مشاشا
روحه روحي وروحي روحه ان يشا شئت وان شئت يشا

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

عجبت منك ومنسي يا منية المتنسي
ادنيتني منك حتى ظننت انك انسي
وغبت في الوجد حتى افنيتني بك عنسي
يا نعمتي في حياتي وراحتي بعد دفنسي
مالسي بغيرك انس من حيث خوفسي وانسي
يا من رياض معانيسه قد حويت كل فنسي
وان تمنيت شيثاشا فانت كل التمنسي

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

لبيك لبيك يا سري ونجوائسي -
لبيك لبيك يا قصدي ومعنائسي
ادعوك بل انت تدعوني اليك فهل
ناديت اياك ام ناجيت ايائسي
حبي لمولاي اضناني واسقمنسي
فكيف اشكو الى مولاي مولائسي

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

كفى حزنا اني اناديك دائما
كأني بعيد او كأنك غائب
واطلب منك الفضل من غير رغبة
فلم ار قبلي زاهدا فيك راغب

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

اني يتيم ولي اب الود بسسه
قلبي لغيبته ما عشتت مكروب

♦♦♦♦♦

مثالك في عيني وذكرك في فمي
ومثواك في قلبي فأين تغيب

♦♦♦♦♦

يا موضع النظر من ناظري
يا جملة الكل التي كلها
تراك ترثي للذي قلبه
مد له حيران مستوحش
يسري وما يدري واسراره
كسرعة الوهم لن وهمه
في لجج بحر الفكر تجري به

ويا مكان السر من خاطري
أحب من بعضي ومن ساثري
معلق في مخلبي طائر
يهرب من قفر الى آخر
تسري كلمح البارق الثائر
على دقيق الغامض الغابر
لطائف من قدرة القادر

♦♦♦♦♦

اشار لحظي بعين علم
ولائح لاح في ضميري
وخضت في لجج بحر فكري
وطار قلبي بريش شوقي
الى الذي ان سئلت عنه
حتى اذا جرت كل حد
نظرت اذ ذاك في سجال
فجئت مستسلما اليه
قد وسم الحب منه قلبي
وغاب عني شهود ذاتي

بخالص من خفي وهم
أدق من فهم وهم همي
امر فيه كمر سهم
مركب في جناح عزمي
رمزت رمزا ولم اسمي
في فلووات الدنو همي
فما تجاوزت حد رسمي
حد قيادي بكف سلمى
بميسم الشوق اي وسهم
بالقرب حتى نسيت اسمي

♦♦♦♦♦

كانت لقلبي اهواء مفرقة
فاستجمعت مذ راءتك العين اهوائي
فصار يحسدني من كنت احسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

ما لامني فيك احبائي واعدائي
الا لفقلتهم عن عظم بلوائسي
تركت للناس دنياهم ودينهم
مشغلا بحبك يا ديني ودنيائسي
اشعلت في كبدي نارين ، واحدة
بين الضلوع واخرى بين احشائسي

.....

رايت ربي بعين قلب
فليت للآين منك آين
وليس للوهم منك وهم
انت الذي حزت كل آين
وفي فنائي فنا فنائي
فقلت من انت قال انت
وليس آين بحيث انت
فيعلم الوهم آين انت
بنحو لا آين فآين انت
وفي فنائي وجدت انت

.....

واي ارض تخلو منك حتى
تراهم ينظرون اليك جهرا
تعالوا يطلبونك في السماء
وهم لا يبصرون من العماء

.....

انتم ملكتم فؤادي
ودق على فؤادي
انا غريبا وحييلا
فهمت في كل وادي
قد عدمت رقادي
(!) بكم يطول انفرادي

.....

والله ما طلعت شمس ولا غربت
ولا خلوت الى قوم احدتهم
الا وحبك مقرون بانفاسي
الا وانت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا
الا وانت بقلبي وبين وسواسي
ولا هممت بشراب الماء من عطش
الا رايت خيالا منك في الكأس

ولو قدرت على الاتيان جئتكم
سعيًا على الوجه او مشيا على الراس
ويا فتى الحي ان غنيت لي طربا
فغني واسفا من قلبك القاسي
مالي وللناس . كم يلحونني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس ..

♦♦♦♦♦

الحب ما دام في القلوب على خطر
وغاية الامن ان تدنو من الحذر
واطيب الحب ما تم الحديث به
كالنار لا تات نفا وهي في الحجر
من بعد ما حضر السحاب واجتمعا
الاعوان وامتط اسمي صاحب الخبر
ارجو لنفسي براء من محبتكم
اذا تبرأت من سمعي ومن بصري

♦♦♦♦♦

ما زلت اطفو في بحار الهوى
فتارة يرفعني موجهها
حتى اذا صيرني في الهوى
ناديت يا من لم ابح باسمة
نفيك نفسي السوء من حاكم
يرفعني الموج وانحسط
وتارة اهوى وانفسط
الى مكان ما له شسط
ولم اخنه في الهوى قط
ما كان هذا بيننا شرط

♦♦♦♦♦

عليك يا نفس بالتسلسي
عليك بالطمسة التي
وقد قام بعضي ببعض بعضي
العز بالزهد والتخليسي
مشكاتها الكشف والتجلي
وهام كلي بكل كلي

♦♦♦♦♦

عجبت لكلي كيف يحمله بعضي
ومن ثقل بعضي ليس تحملني ارضي
لئن كان في بسط من الارض مضجع

فبعضي على بسط من الارض في قبضي

.....

جبلت روحك في روعي كما تجبل العنبر بالمسك الفتى
فاذا مسك شيء مسني فاذا انت انا لا تفترق

.....

مزجت روحك في روعي كما

تمزج الخمرة بالماء الزلال

فاذا مسك شيء مسني

فاذا انت انا في كل حال

.....

كيف اسهو كيف الهو وصحيح انني هو

.....

قد تصبرت وهل يصبر قلبي عن فؤادي
مازجت روحك روعي في دنو وبعادي
فانا انت كما انك اني ومرادي

.....

الحلاج والسياسة

آراء مضطربة ومتعارضة - الوضع السياسي من المتوكل الى
المقتدر - الحياة الاجتماعية - ثورة الزنج والقرامطة - لهو الحكام -
حكم المقتدر - الثورة عليه - فشل الثورة - طلب الحلاج - اقتراح
لتعليق ذلك - نقد علاقة الحلاج بالثورة - وزارة الخاقاني -
وزارة ابن عيسى و صلب الحلاج بعد مناظرته - سجن الحلاج -
وزارة ابن الفرات - علاقة الحلاج بحاشية الخليفة - الحلاج
يكتب رسائل سياسية - وزارة حامد وعلي بن عيسى - آراء حول
ابن عيسى - الثورة الشعبية - رأي ماسنيون - نقد الرأي - رأي
حمد ابن الحلاج في علاقة الحلاج بابن عيسى - تدخل السياسة
في محاكمة الحلاج الجديدة - نقد احمد امين في رايه عن ان الحلاج
قتل بسبب السياسة - اضطهاد الصوفية -

والحلاج - بعد هذا - صورة عجيبة اخرى ، فهو وان كان ذلك الصوفي الذي اخلى ما في نفسه ليكون محبوبه ، بيد ان المراجع جعلته عدا عن كونه احد زعماء المفالين الذين يريدون هدم الدين ، جعلته زعيما سياسيا ايضا ، له تفكيره الاصلاحى ، وله اعمال لتنفيذ ذلك البرنامج عبر اتباع كانوا يرونه المنقذ الوحيد للانحلال السياسى ، ولهم في ذلك تناقضات عديدة .

واول ما نميز هذه الدعوة بكون الحلاج من غلاة الشيعة ، ولا يخلو الامر من اختلاف ها هنا ، ففي بداية امره - يذكرون - انه كان يدعو الى الرضا من آل محمد (١) ضد آل عباس . كما يذكرون بانه كان يؤله على بتأكيد جازم كما ابرم الدكتور زكي مبارك بالاعتماد على ورقة كتبها وضع فيها اسم علي فبي مكان بارز . على ان غير هؤلاء يذكرون انه اصبح رافضيا ، فاراؤه اكثر ما تروج عند هؤلاء لضعف عقولهم وقلّة تمييزهم بين الحق

(١) الفهرست لابن نديم ص ١٩٠ .

والباطل (١) ثم نجد ما ينقد هذا في المرجع نفسه ، فهو يدعو احد رؤسائهم فاذا بهذا الرئيس يرد عليه بلهجة ساخرة سائلا اياه ان يعيد له شعره وان يقدم له وصفة جنسية ، فقد صلع بعد ان كبر وهذا يسيء الى مظهره عند النساء اللواتي يحبهن ويريد الاكثار من الجماع بفضل طب الحلاج ! فان فعل هذا امن بانه الاله او الامام او النبي ، كما يشاء الحلاج وكما يريد (٢) كما نجد نقدا آخر ينقض القضية من اولها ، فاحد مريديه وهو نصر القشوري الحاجب لدى الخليفة كان يدافع عنه عند الخليفة بقوله ان الرافضة هم الذين يسعون لقتله (٣) .

ومما يتصل بالدعوة الشيعية الدعوة القرمطية ، واذا كان الحلاج قد اعتبر بشكل ما زعيما سياسيا شيعيا فهو كذلك زعيم من زعماء القرامطة واحد دعواتها واحد المبشرين بمذهبها . . (٤) وماسنيون يرى انه صلب سنة ٣٠١ بدعوى القرمطة (٥) ، وهي تهمة مزورة فاذا ما اتهمنا من كل هذا ، نجد ان للحلاج اوجها اخرى سياسية ، لكنه الآن الزعيم الذي يدعو لنفسه ، فهو صاحب الدعوة ، ومع ذلك ورغم انه صاحب المذهب لكن الاختلاف مكررها هنا ايضا بشكل اكبر .

فهو تارة يدعو الى الصلاح وتارة يدعي انه المهدي (٦) ، ومرة ثالثة يدعي انه الرب وانه يرسل الاتباع من سدرة المنتهى وان الاتباع يرسلون اليه الرسائل مخاطبين اياه بقولهم : يا علام

(١ و ٢) البداية والنهاية : ابن كثير ج ١١ ص ١٣٧ وتاريخ بغداد مجلد ٨ ص ١٢٤ .

(٣) صلة تاريخ الطبري لعريب ص ٧٢ .

(٤) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٢٥ والكلام منقول عن الفخري ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥) المنحنى الشخصي : ماسنيون ترجمة عبدالرحمن بدوي ص ٧٢ .

(٦) صلة تاريخ الطبري لعريب ص ٦٦ .

الفيوب (١) .
وإذا كان الامر هنا متصل بالدعوة الدينية فاختلف الدين
بالسياسة ، فهناك مراجع اكتفت بتصوير المطامح السياسية له،
فعند ابن النديم نرى الحلّاج ثوريا « يروم اقلاب الدول » (٢)
دون اي تحديد .

ويهمنا رأي ماسنيون ها هنا ، فهذا البحاثة نقل الموضوع من
هذه التعميمات المتناقضة الى تحديدات متخيلة تتصل بتصوير
تاريخي مركب اكثر مما لها علاقة بالموضوع ذاته فكأن محاولة
الوصول الى الدقة تناقض طبيعة الامور التاريخية ، حيث اختلطت
الحوادث بالخيال والابداع والاتهام !

فهو يرى ان جماعة الاصلاح - يقصد رجال ثورة ابن
المعتز - كانت تعتقد بانه القطب المنتظر وقد ارسل رسائله
السياسية الى الامراء والوزراء مبينا لهم طرق الاصلاح (٣) .

ومما يتصل برأي ماسنيون قول الاصطخري « ان كثيرا من
علية القوم رأوا حينئذ في الحلّاج انه الرئيس
القطب » (٤) . وتجمع المراجع القريبة من ايام الحلّاج والبعيدة ان
نصر القشوري كبير هؤلاء العلية الذين وثقوا بالحلّاج . .

كما ان ابن كثير يحدد لنا امر هذه الرسائل على نحو ادق،
فهو يرسلها بعد سجنه وليس ايام ثورة المعتز « الى الكتاب
وغيرهم ببغداد وغيرها فاستجابوا له (٥) .

والاستاذ طه عبدالباقي سرور ينقل عن ماسنيون . فيرى ان
منهج الحلّاج السياسي مقسم الى ثلاثة خطوط وهي : الناحية

(١) تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٢٧ نقلا عن القرقي بين القرقي للبغدادي ص ٢٤٨ .

(٢) القهرست لابن نديم ص ١٩٠ .

(٣) المنحنى الشخصي : ماسنيون ص ٧١ .

(٤) نقلا عن الحلّاج لسرور ص ١١٢ .

(٥) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٢٨ .

الصوفية، واصلاح الادارة الحكومية ، ووحدة الامة الاسلامية بالعودة الى الاسلام كما كان . الا ان الاستاذ سرور يتساءل متعجبا كيف يمكن الجمع بين الدعوة السياسية والمنهج الصوفي في شخصية الرجل ، ثم ينتهي الى حل وهو ان هذا الجمع « من الفساز التاريخ » ! (١) .

من كل هذا نلاحظ شدة الخلط بين الامور الكثيرة ، فلنعرض جوانب القضية من بدايتها ، لنرى اين يقف الحلج من كل هذا . لنعرض الوضع التاريخي والاجتماعي الى ان نصل الى حكم المقتدر ثم لنحلل ثورة ابن المعتز المدعوة بالثورة الاصلاحية ولنرى صحة علاقة الحلج بها . ثم لنتبع امر الحلج فيما تلى ذلك لنرى اين يقف من الحكم ومدى علاقته به حتى يوم مقتله .

- ٢ -

القرن الثالث قرن فاصل في تاريخ الاسلام ، فبعد ان بلغت الخلافة قمة مجدها السياسي والاجتماعي والثقافي في عهد الرشيد وولديه ، ولم يكن مضي قرن على نشوء الدولة ، حتى ظهرت علامات الانحدار في منحائها .

عاش الحلج في النصف الثاني من هذا القرن تقريبا ، وشاهد تقلبات سياسية واجتماعية وفكرية ضخمة . فهذا القرن قرن الانفصالات ، وقرن الانحلال الاداري ، وقرن الفتن والثورات ، وقرن التصوف ، بشكل متكامل !

قبل ولادته بقليل والى بعيد وفاته مر عشرة خلفاء ، ولكل منهم قصة فريدة . وحدثت تورثان لاهبتان : ثورة الزنج ، وثورة القرامطة . وانفصلت اجزاء الدولة ، جزء بعد جزء ، ولم يبق منها الا سواد العراق . ناهيك عن التمردات في هذا الجزء

(١) الحلج : سرور ص ٥٩ .

الباقي ، وعن الفتن في بغداد نفسها ، وناهيك عن التقلبات المريعة في قصر الخليفة نفسه .

فلنوجز هذه الاوضاع خلال خمسين سنة وهي السنوات التي عاصرها الحلاج تقريبا وهو المولود سنة ٢٤٤ هـ .
استعان المعتصم بعد ان ولي الخلافة بالعنصر التركي - اخواله - ليضعف الفرس ، الا ان العنصر الجديد سرعان ما قويت شوكته ، مضيفا الى مساويء الجنود الفرس مساويء اضخم فعمت فتنهم وكثرت اعتداءاتهم وفحش فجورهم وازداد تكالبهم على جمع الاموال . ولم يلبث المعتصم ان شعر بالخطأ ، فبنى لهم مدينة وابعدهم عن بغداد ، الا ان الحل لم يجد ، اذ استمرت المضايقات دون ان تكبح ، فمات وهو يشتكي .

وجاء المتوكل بعده سنة ٢٣٢ هـ ، وكاد ان ينقل الخلافة الى قرب دمشق ، لكنه استمر في بغداد الى ان قتله ابنه بمساعدة الموالي الاتراك !

ومنذ ذلك الوقت ، منذ سنة ٢٤٧ هـ اصبح الخليفة لعبة يحركها هؤلاء ، مديرين الامور بحسب اهوائهم المتقلبة . « فكان الخليفة في يدهم كالاسير ، وان شاءوا ابقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه » .

ولي سنة ٢٤٧ هـ المنتصر ابن المتوكل ، واشتهر بسفكه الدماء ، ثم قتل مسموما ، بعد سنة من حكمه .
وبويع المستعين ، وكان مستضعفا برأيه وعقله وتدييره ، وقد وصفه الشاعر هذا الوصف الساخر ، وهو وصف مشهور ، يستشهد به على التعميم ، وكان جميع الخلفاء الاواخر هم هذا المستعين .

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قال له كما تقول البيغا

وعلى الرغم من ذلك انقلب عليه بعض مبايعيه ، وحدثت حروب وفتن بين الموالي الحاكمين والموالي الثائرين . فخلع الخليفة

نفسه وبويع للمعتز سنة ٢٥١ ، كذلك لم يفد هذا الخليفة المخلوع
اذ قتل بعد سنة .

اتى المعتز ، الذي تخوف من غدر الاتراك والاحداث تمر امام
عينيه ، ولم يكن في حذسه مخطئا ، فما ان سنحت اول فرصة
حتى ثار الاتراك مطالبين برواتبهم ، ولم تكن تزيد عن خمسين
الف دينار ، فلم يجدها ! فاستنجد بامه التي كانت تملك اكثر
من مليون دينار عدا عن الجواهر وغيرها ، فرفضت الام ان
تنجد ولدها ، وعرضته للقتل ولكن بعد ان « عذب ومنع عنه
الطعام والشراب حتى انه طلب جرعة ماء فلم يجدها ، وادخل
سردابا سدوا بابه فمات مخنوقا » .

وقد حدثت في قصره قصة تصور مدى هذا الاستهتار الذي
بدا يعم دون ان يبقى خاصة بالجند المحتمين بأسلحتهم ، اذ تساءل
الحاضرون ساخرين : كم سيبقى المعتز بالخلافة ، فقال احدهم :
مهما اراد الاتراك ! فلم يبق في المجلس الا من ضحك !

لحقه المهتدي الذي اسلم امره للاتراك ، دون ان ينجيه هذا
من عبث اللاعبين ، فخلعوه ثم قتلوه بعد سنة وبعد ان « خلعوا
اصابع يديه ورجليه من كعبيه » وبعد ان ديست خصيتاه ! وفي
عهده حدثت ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هـ والتي دامت حتى سنة
٢٧٠ هـ .

وخرج المعتمد من السجن الى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ لينهمك
في لهوه ، فاستأثر اخوه الموفق بالحكم ، تاركا الخليفة العوبة بيد
القيان ليس له من الحكم شيئا . ثم « ضيق عليه حتى انه احتاج
في بعض الاوقات الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت » ثم
حجر عليه ، ومن الواضح انه اكره على خلع ابنه من ولاية العهد
موليا المعتضد ابن اخيه . . اذا كان الامر للموفق الذي انهمك
بحربه ضد ثورة الزنج ، وكان مصابا بداء النقرس ، ثم اصيب
بداء الفيل ، وكان يقول لن يحمله « قد ضجرت من حملي ، بودي
ان اكون كواحد منكم احمل على رأسي واكل وانا في عافية » .

ومات سنة ٢٧٨ هـ ، اما الخليفة فلحقه بعد قليل وقيل قتل مسموما سنة ٢٧٩ هـ .

واتى المعتضد به الموفق والملقب بالسفاح الثاني ، الذي كان يدفن الذين يفضب عليهم وهم احياء بوضعهم في حفرة وردمها عليهم .

اما عن تبذيره ، فقصة زواجه من قطر الندى وما بذله فيها وما انفق فمشهورة . وفي عهده ظهر القرامطة بالكوفة سنة ٢٧٨ ثم بدأ امرهم بالبحرين سنة ٢٨٦ وكانه كلما استتب الامر للخليفة ظهر ما يشير الى ذاك البناء المتصدع في الدولة .

ولحقه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ ، وهذا وسابقه الوحيد ان ممن لم يقتلوا بين هذه المجموعة من الخلفاء .

وفي سنة ٢٩٥ هـ جيء بالطفل البالغ من العمر ثلاثة عشرة سنة ليكون العوبة بايدي واضعيه ، وقد طرد المقتدر مرتين وقتل في آخر امره بعد ان كان دمية بيد حريم القصر وبمسد وزرائه وقواده .

ثم ولي القاهر الاهوج السفاح القبيح السيرة الكثير التلون اليدمن الخمر ، والذي استطاع ان ينجسوا من مؤامرة خلعه بمؤامرة مضادة ، ليمسك بمنافسه وليطين عليه حائطين ! على انه لما خلع خرج يطلب الصدقة ، بعد ان سملت عيناه !

هي سلسلة من الخلفاء الضعفاء اذا ، وهي سلسلة من الحكم المضطرب ، حيث يضع الخليفة بين جنده ووزرائه والثورات القائمة . فان تصدى احد الخلفاء للموقف خذل وقضي عليه بسادية وحشية . ولعل الابيات التالية التي قيلت بعد خلع المستعين تصور تلك الحالة المخزية وذاك اليأس من النجاة :

خلع الخليفة احمد بن محمد وسيقتل التالي له او يخلع
ويزول ملك بني ابيه ولا يرى احد تملك منهم يستمتع
ايها بني العباس ان سبيلكم في قتل اعبدكم سبيل مهيع

رفعتهم دنياكم فتمزقت بكم الحياة تمزقا لا يرفع
اما عن انفصال اجزاء المملكة فذاك حديث اطول ، فكل من
شعر بشيء من القوة انفصل وكون امارة خاصة ، فمن طبرستان
الى قيروان والمغرب الاقصى ومن اليمن الى الشام والدويلات تقوم
وتختفي لينهض غيرها ، ناهيك عن الحركات الدينية التي بدأت تجد
لها ارضا مستقرا ، فمن العلويين الذين اتجهوا الى انحاء مختلفة
مظهرين دعوتهم ، الى الزيدية الى الاسماعيليين ، وناهيك عن
الثورات الاجتماعية التي اتخذت مظهرا دينيا وسياسيا كشورة
القرامطة وثورة الزنج .

وخلاصة الامر في هذا العصر ، انه عصر اضطرابات وفتن
وتقلبات ، والخلفاء التمساء منغمسون في لهوهم ، عبيد لشهواتهم
او عبيد لنسائهم او عبيد لمن صنعوهم ، والبلاد تزداد تمزقا ،
والناس شيع واحزاب ، والفوضى مستشرية ، والامر كله للاتراك
« فكان الخليفة في يدهم كالاسير ، وان شاءوا ابقوه ، وان
شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه » .

الا ان عمليات القتل ستصبح اكثر وحشية واشد سادية ،
ففيها سمل العيون وشتى انواع التعذيب الغريبة ، والخلفاء
اسوا سيرة واقل شأنا ، والامة في تمزق اشد (١) .

- ٣ -

ولم تكن الحياة الاجتماعية اوفر حظا ، بل كانت مثل الحياة
السياسية تسودها الفوضى والاضطراب فالناس مستهترون

(١) اعتمدت في كتابة هذا الموجز على الكتب التالية : الكامل لابن الاثير : ج
٧ و ٨ . وتاريخ الرسل والملوك للطبري القسم الرابع / ١٣ وتاريخ ابن
خلدون ١/٢ . وتاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج ٣ وضحي الاسلام
لاحمد امين ج ١ .

بالخلافة ، خائفون من الجند الاتراك الذين لم يراعوا حرمة .
وكانت الطبقيّة تزداد اتساعا ، فعلى حين كان العامة يثنون
من الاحتكار والفقر ، كان الخلفاء والقواد يبدرون الاموال على
شربهم وفسقهم ، تاركين الامر لنسائهم كما فعل المقتدر ، اذ نجد
ان احدى خادمات امه تجلس في ديوان المظالم تنظر في الدعاوى
وترسل الكتب موقعة عليها . وعلى حين بلغ الغنى ببعض
الامراء الذروة نجد الفلاحين يثنون ولا يجدون قوت يومهم .
ولنقارن بين البذخ الشديد والاموال الطائلة والذهب والجواهر
التي بذلت لقطر الندى عندما تزوجها الخليفة المعتضد وبين
عبودية الارقاء . ولعل المثال المذكور آنفا خير دليل عن هذا
التفاوت الضخم ، فأم المعتز وجدت انها تملك مليون وثمانمائة الف
دينار عدا الجواهر والحلى وغيرها ، ولم يكن مع الخليفة ما
يدفعه لجنده . ففي هذا المثال نرى مدى انحطاط وتفكك الحياة
الاجتماعية والاسرية ، فأم المعتز رفضت ان تفتدي ابنها بخمسين
الف دينار وهي على ما هي من الغنى !

ولقد كان هم الاغنياء والامراء تفقد دور النخاسة لرؤية
ما فيها من جديد للاستحواذ على جارية فاتنة او غلام حسن
يضافان الى الجواري والفلمان العديدين .

ونرى صورة عن هذه الحياة الفاسدة اللاهية في حياة ابن
المعتز الامير والاديب ، دون ان ننسى ان هذا الامير هو نفسه
صاحب ثورة ٢٩٦ والتي تدعى بالثورة الاصلاحية ! :

« انه ضائع مبدد ، وكل ما يستطيع ان يفعله - عدا الانتقال
بين القصور والبساتين وبيوت القيان - هو ان يتفقد اسواق
النخاسة في بغداد او في البصرة او في سامرا .

« وكان في هذه الهواية يشبه اي امير اخر او اي ثري
من اثرياء العراق . كل وجيه مرموق كان يريد لبلاطه ان يتفوق على
سائر البلاطات باستحواذه على افنن الجواري وارشق الفلمان ،

فبيدهم الحياة ، واحاديثهم هي الصورة الحقيقية لهذا الاسلوب
الفريد من السلوك وعن هذه الطريق التقى بنشر الرقيقة
الوديمة ذات الدل الودود ، كما التقى بنشوان الذي احبه
وعشق صوته كلما ارتفع بالغناء .

« واما خزامى التي اراد قنصها في قصر المعتمد (الخليفة)
فقد ابى سيدها ان يهبها له وان يكن قد ظفر منه بوعده
ان تتردد على داره لتعلم نشر الالحن والشعر . فقد كانت مغنية
محسنة وشاعرة ظريفة ، وكانت ايضا ساقية ماهرة قادرة على ان
تسكره بالتجميش قدرتها على اسكاره بالنبيذ .

« وتتردد عليه بنت الكراة فلا يوليها ما يوليه خزامى . ولكنه
مع ذلك يحس انها تأسره دائما بكل باهر وبادر ، ثم هو
يشهد انه قد يتوق اليها اذا غابت عنه اياما .

« كما عرف زرياب وفي حضنها عرف معنى النغم ودرسه
واقام عليه حتى شهر به فيما بعد . . وعرف هزار وبثنة . . .
السخ (١)

وسوف تمر معنا قصة ابن المعتز وقصة ثورته وكيف ان
ماسنيون يرى ان الحلج كان قطب الثورة الاصلاحية التي
رفعت ابن المعتز هذا الى الخلافة !

لنقارن هذا بعبودية الارقاء الذين ساروا وراء مدع في
ثورة لاهبة ، والذي « ذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء
الحال » (٢) واعدا بان ثورته ، انما هي لرفع قدرهم وازالة
البؤس الذي يرزحون تحته .

ثار الزنج سنة ٢٥٥ مقلقين المدن والقرى بين قتل ونهب
وحرق وتخريب دون ان تجد هذه الثورة طريقها السليم للتحرر
من وطأة الرق وهوان العوز وقسوة الجوع . فانتكس الزنج بعد

(١) ابن المعتز : الدكتور احمد كمال زكي .

(٢) الكامل : ابن الاثير ٢٠٩/٧ .

موت رئيسهم سنة ٢٧٠ هـ وبقي الليل يرجع صدى الانين الموجه واستمرت مضيعة الارقاء بعد حروب شديدة !
وليست ثورة الزنج الا واحدة من تلك الثورات التي كانت تتالى والتي يسميها المؤرخون فتنا ! فقد تمت عدة فتن عندهم في بغداد بسبب تدهور الحالة الاقتصادية ، فتهب الدكاكين وتفتح السجون ويستمر القتل والتخريب الى ان يحضر الجيش ، بعد ان تدفع الاموال الكبيرة لرؤسائه فيعملون القتل والضرب بالمشاغبين وتنتهي الفتنة ويعم الامان لتتجدد من جديد الثورات ضد الجوع !

وكانت الامراض تنتشر ، والموت يفشى ، ومن الغريب ان تكون حاضرة الخلافة بغداد مكانا لانتشار الاوبئة كداء الكلب والطاعون كما حدث سنة ٣٠٠ و ٣٠١ (١) .

وهذا التدهور الاجتماعي والاقتصادي والصحي ، وعدم الاستقرار يفسر كثرة الحركات المناهضة ، والتي كانت تتخذ شكل الدعوة الدينية . فدعوة القرامطة ذات المظهر السياسي والعلوي ذات اساس اجتماعي ، فقد استقطبت الطبقة الدنيا من الشعب ، ولا يد ان السائرين في ركابها فهموا انها دعوة ثورية ضد الظلم والطغيان والغنى الفاحش ، وانها مفتاح لاصلاح احوال الشعب ، وطرد هؤلاء الذين يصرفون مبلغا كبيرا من المال لشراء جارية حسناء ذات صوت جميل على حين كانوا يعيشون في اجحاف وضنق ، والضرائب تثقل كاهلهم . واذا كانت اشتراكيتهم اتخذت صفة دينية فان لها وجها اجتماعيا بارزا ، الا ان الجو لم يكن ملائما لنظرة اعمق !

وبالنسبة لجهاز الدولة لا بأس ان نتعرض لما هو متصل بالقضية العلاجية ، الا وهو القضاء ، فقد وصلت سمعة القضاة الى الحضيض ، بسبب التواطؤ مع اولي الشأن ، وبسبب

(١) تاريخ الرسل والملوك الطبري ١٢/٤ ص ٢٢٨٠ .

الرشاء .

ولننظر الى كيفية تعيين احد القضاة كمثل على هذا الانحطاط ، فابو الحسن علي ابن الفرات (٨٥٥ - ٩٢٤ م) ولي الوزارة ، فاستبد ، وعزل ، ثم نصب ثلاث مرات ، ثم عزل وقتل لطمعه بالمال وظلمه ، وفي احدى المرات اختبأ بعد عزله عند بزاز ، فقال له الوزير المخلوع : ان وليت الوزارة فاي شيء تحب ان اعمل بك . .

قال : تقلدني شيئا من اعمال السلطان .

قال : ويحك لا يجيء منك عامل ولا امير ولا صاحب شرطة ولا كاتب ولا قائد . فاي شيء اقلدك ؟

قال : لا ادري . ما شئت .

قال : اقلد له القضاء

قال : قد رضيت

« فلما خرج وولي الوزارة وهب له واحسن اليه وقلده قضاء البصرة وواسطا وسبع كور الاهواز » (١) وهكذا اصبح الخياط قاضيا ، والخياط القاضي هو ابو امية الاخوص الغلاني البصري .

نذكر ذلك لان الوزير سيكون له شأن هام في قضية العلاج ، مثلما سيكون للقضاة شأن اهم . . هذا وعندما خلع الوزير رمي القاضي بالسجن ومات فيه (٢) .

(١) حضارة الاسلام : جوستاف .أ. نون جرونيباوم . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ص ٢٢٢. والنص نقله المترجم عن القاضي التنوخي (التوفي ٣٨٤ هـ) من كتابه : جامع التواريخ والمسمى نشوار الحاضرة واخبار المذاكرة .

(٢) المنتظم لان الجوزي ص ٧/ب ونقل عن الحضارة الاسلامية : ادم متز ص ٢٠٣ .

ويهمنا - بعد هذا - المقتدر الذي حكم سنة ٢٩٥ هـ لان اهم الاحداث التي وقعت للحلاج كانت في عهده ، وهو الذي امر بقتله وصلبه بعد تشويبه .

ذكرت انه ولي الخلافة وعمره ثلاثة عشرة سنة ، وقد اختاره الوزير العباس بن حسن من بين المرشحين ، لهذا السبب نفسه ، بعد ان استشار عددا من اصحابه .

سأل محمد بن داود بن الجراح فاشار بعبدالله بن المعتز « ووصفه بالعقل والادب والراي » .

واستشار ابو الحسن بن الفران فقال :

- اصلح الموجود جعفر بن المعتضد (المقتدر فيما بعد) .

رد الوزير :

- ويحك هو صبي .

فرد ابن الفرات :

- الا انه ابن المعتضد ولم تأت برجل كامل يباشر الامور بنفسه غير محتاج الينا (١) وفي رواية اخرى قال له :

- ولم تجيء برجل يأمر وينهي ، ويعرف مالنا وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى انه مستقل ولم لا تسلم هذا الامر الى من يدعك تدبره أنت (٢) .

واستشار كذلك علي بن عيسى ، فلم يسم احدا او انه قال :

- اتق الله وانظر من يصلح (٣) .

(١) الكامل : ابن اثير ج ٨ ص ٣ .

(٢) مسكويه ١ تجاري الامم ج ١ ص ٣ كما ذكر في تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) الكامل : ابن اثير ج ٨ ص ٤ وتاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٧٥٢ .

فمالت نفس الوزير الى ما اشار به ابن الفرات ، واذا بالصبي خليفة يسمى المقتدر بالله . وحسب الوزير ان كل الامور آلت اليه ، لكن للصبي اما وجواري اخذوا ينافسون الوزير ، ويتحكمون بالصبي وبالامور ، آمرين ، ناهين . فكثر كلام الناس ، وعندها عزم على التخلص من هذا الصبي وتقليد الخلافة لعبدالله بن المعتد ، الا ان هذا فلج ، ووجد الوزير نفسه يتردد بين مؤيد ومقاوم لثورة كان يعدها بعض الوجوه والقواد وهي الثورة المعروفة بثورة ابن المعتز .

اذ اتفق جماعة من القواد وعلى رأسهم حسين بن حمدان وجماعة من الكتاب والقضاة وعلى رأسهم عمر بن داود بن الجراح وقريبه علي بن عيسى وابو المثني احمد بن يعقوب القاضي ، اتفقوا على خلع المقتدر والاتصال بعبدالله المعتز لمناظرته في ذلك .

ويبدو ان الحلقة اتسعت فاذا بالوزير العباس بن حسن يوافق على هذه الثورة ، واذا بمؤنس الخادم اكبر القواد يفضب لتدخل حريم القصر في كل صغيرة وكبيرة دون استشارته ، فيرضى عن الثورة ، مثلما رضي ابو الحسن بن الفرات من دون مبايعة !

ولما وجد ابن المعتز هذا الاتفاق وقد كان طامعا بالخلافة منذ زمن طويل ، وافق على الا يكون في ذلك سفك دم ولا حرب ، فأخبر « بأن الامر سيسلم اليه عفوا » (١) وابن المعتز كان « اديبا ، بليغا ، شاعرا ، مطبوعا ، مجردا ، مقتدرا على الشعر ، قريب المأخذ سهل اللفظ ، جيد القريحة ، حسن الاختراع للمعاني » (٢) لكنه كان عرييدا لا يكاد يصحو من سكره وفجوره . على انه كان محنكا عارفا بالاعمال

(١) تاريخ الرسل والملوك : الطبري ١٢/٤ ص ٢٢٨١ . وقد اعتمدت عليه في ايجاز

هذه الثورة كما اعتمدت على الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٧٠٣ .

(٢) مروج الذهب : السعدي ج ٤ ص ٢٩٣ .

الإدارية والمالية ، ولكثرة اضطهاده ، ولطمعه وقع في هذه المؤامرة التي كان يعرف تردد أصحابها .

وكان أول الفيث أن شعر الانقلابيون بتردد الوزير ، وأنه سيخونهم ويغدر بهم فوثب عليه الحسين بن حمدان ووصيف بن سوارتكين فقتلوه . ثم خلع المقتدر ونصب ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ . وبايعه القواد والكتاب والقضاة . فعين محمد بن داود وزيراً وقلد علي بن عسن الدواوين ونصب ابن المتنى قاضياً وأصبح حسين ابن حمدان قائداً للجيش .

على أن أم الخليفة بدأت عملها بسرعة ، فأرضت مؤنسا بالمال ، ولما ذهب حسين بن حمدان ليستلم دار الخلافة قاوم الحرس ، وتحرك مؤنس بعناصره مهاجماً دار ابن المعتز وابن داود فهربا ، وتفرقت الجموع المؤيدة لهما . والظاهر أن أم الخليفة استطاعت أن ترضي كذلك حسين بن حمدان فاذا به يتحرك يجنوده مبتعداً عن بغداد ، وحدثت الفتنة ووقع النهب والقتل ، وتحرك السفلة معتدين وناهبين البيوت .

وهكذا انتهت الثورة ولم تدم إلا يوماً ، ثم القي القبض على محمد بن داود وقتل كما القي القبض على ابن المعتز (١) وحبس وعذب ثم عصرت خصيتاه وقتل . وولي الوزارة ابن الفرات أحد مؤيدي الثورة المترددين وأحد الذين لم يبايعوا ابن المعتز .

وما يهمننا في هذه القصة هو أن الوزير الجديد « ابن الفرات » أخذ ينكل بمؤيدي الثورة ، فقتل معظم مؤيديها ومنهم القاضي أبي المتنى ، ولم ينج إلا ابن عبدون ، وعلي بن عيسى ، الذي نفي إلى واسط ، كما أنه طلب الحلاج فهرب .

ويربط المستشرق ماسنيون بين الحادثتين ربطاً محكماً ، فاذا بثورة ابن المعتز تصبح ثورة الحلاج ! فهل غاب هذا عن الطبري ؟!

وخلاصة رأيه ما يلي :

(١) ووجد في احضان جارية ، لفكر الوزير وصحبه يقتله بجريمة الزنى .

احيا الحلاج في النفوس الرغبة بالاصلاح في الجماعة
الاسلامية ورئيسها . وينقل عن الاصطخري ان علية القوم راوا به
الرئيس الملمم مثل علي بن عيسى والقائد حسين بن حمدان ونصر
القشوري والكثير غيرهم من الوزراء والقادة والاشراف . وكانت
لهم مراسلات هيأت له الخوض في السياسة العامة ، وخلال
ذلك : لا بد انه اهدى لهم رسائله السياسية عن واجبات الوزراء .
فقامت رغبة عامة بالاصلاح « وكان الامل معقودا على الحلاج في
العمل في هذا السبيل » (١) وفشلت الثورة ، وادى البحث عن
حسين بن حمدان الى اكتشاف مستشاره المقرب الحلاج ! فأمر ابن
الفرات بمراقبته ، وفي الوزارة التالية قبض على بعض اتباعه
بينما نجا وهرب !

فعند ماسنيون ان الثورة سنة ٢٩٦ هي ثورة الحلاج، وليست
ثورة ابن المعتز، ومعنى ذلك ان الحلاج الذي كان يدور في ذلك
الحين في الاسواق مطالبا بموته ، وان الحلاج الذي كان يمضي
ليله في المقابر متعبدا ، كان سياسيا بل ورأس ثورة ايضا ! فلننظر
الى الموضوع ، لنرى مدى صحة هذه الدعوى :

هل الثورة كانت حركة اصلاح ؟ وهل كان رجالها من دعاة
الاصلاح ؟ واذا كان ذلك فما مدى علاقتهم بالحلاج ؟ وهل كانت
تبناه كقطب ؟

الجانب العسكري يتمثل بالقائدين مؤنس وحسين بن
حمدان (٢) ، وقد ثارا لانهما غضبا لتقلص نفوذهما امام

(١) المنحى الشخصي : ماسنيون ص ٧ .

(٢) الحسين بن حمدان شيعي ، والغريب - كما يقول متر ان يتفق ابن حمدان
مع ابن المعتز الذي غالى بتعصبه ضد الشيعة (راجع : الحضارة الاسلامية
ص ٨٩) .

ومن العلوم ان آل حمدان لم يكونوا شيعة فحسب بل هم من غلاة الشيعة،
ويحمون الفرقة التي ادعت الوهية علي والائمة وفقا للثالث : علي - محمد

نفوذ الحرير وخاصة أم الخليفة ، وكذلك ثارا لنقص الذهب في أيديهما ، ولما ارضيا بالمال ، غدرا بابن المعتز كما غدرت به باقي الفرق العسكرية (الحرس) من حجرية ومفلميه ودياله عندما وزع المال عليهم أيضا .

أما المدنيون فللوزير عباس بن حسن آراء فيهم : فأبو المتنى نادم لمبايعة الصبي إلا أنه مستعد لأن يعلن شيئاً آخر غداً (١) ، وأبو عمر فهو ما هو من القدر وضعف الهمة وسوء التدبير (٢) . أما الوزير نفسه ، فأبن المعتز له رأي فيه أيضاً « هذا المذبذب المتردد الذي لا يرى أسهل من التحول والنكوص ، هذا الذي لا يرى أسهل من القدر سبيلاً » (٣) .

أما ابن المعتز ، فقد مر معنا صورة عن مجونه وفسقه وعربدته وطمعه بالخلافة وهو ابن خليفة .

ولا ندري لماذا ينتظر ابن الفرات حتى يجد الحلج وهو يبحث عن الحسين بن حمدان ؟ ألم يكن ابن الفرات أحد الذين شاركوا بالاجتماعات السرية وكان راضياً عن الثورة ، لكنه انسحب بالوقت المناسب ؟ فإذا كان هذا ، فهو الأعم بمخطط الثورة ، وهو الأخبير بقائدها الحقيقي ، والمنطق يفرض عليه : إذا كان الحلج قطب الثورة ، أن يوجه جهده لهذا الرأس بالدرجة الأولى دون سواه ، لا أن يكشف عنه وهو يبحث عن شخص آخر ، ثم يأمر بمراقبته فقط . إذا كان الحلج قطب الثورة فالواجب المحتم على الوزير هو أن يلقي القبض عليه ، ليقتله كما قتل من هو أدنى منه ، لا أن يراقبه فقط !

أما علي بن عيسى ، فهو قدير لكنه غير أمين تماماً ، كما

— سلمان . وهم يكفرون الحلج .

فإذا كان هذا صحيحاً ، فكيف يقبل حسين بن حمدان الحلج قطباً ؟

ناهيك عن كون الحلج مستشاره القرب ! أن هذا يؤكد نقدنا لآسنيون .

(١ و ٢ و ٣) : ابن المعتز : الدكتور أحمد زكي في الصفحات التالية على

التوالي : ص ٢٠٢ و ص ٢٠٤ و ص ٢٠٥ .

تذكر بعض المراجع ، الا انه يكفي ان نذكر انه الوزير الذي سيحاكم الحلاج سنة ٣٠١ وانه الذي سيأمر بصلبه مدة ثلاثة ايام . . ان ما ذكرته اعلاه يثبت ان الثورة كانت نتيجة **للصراع على النفوذ والسلطة** كما ان ما ذكرته ينفي علاقة ابطال هذه الثورة بالحلاج ، بله كونه القطب المنتظر والملمم عند رجالها .

ولا يبقى امامنا بعد ذلك الا الاحتمال المنطقي الوحيد ، وهي ان ابن الفرات طلب الحلاج لارائه الجريئة ولادعائه ما ينافسي الشريعة ، ومهمة الوزير يومئذ تصفية الشوائب ، وتهذئة الحال، وارضاء المتضايقين من المتدينين .

وكيف يكون الحلاج قطبا عند علي بن عيسى وهو الذي سيصلبه ؟ وكيف يكون قطبا عند ابي عمر الذي سيحل دمه فيما بعد ؟ وكيف يكون قطبا عند ابن المعتز الذي لا هم له سوى طموحه وشهوته ؟ وكيف يكون قطبا عند هؤلاء القادة العسكريين ولا هم لهم الا الذهب ، فاذا ما اعطوه تقصوا على اعقابهم مؤيدين خلافة الصبي ومحاربين رجل ثورتهم ؟ بل كيف سيكون الحلاج قطبا عند مؤنس رئيس الشرطة ؟ وماسنيون يرى انه الذي لفق له تهمة القرمطة والذي ايد صلبه سنة ٣٠١ وسيؤيد قتله سنة ٣٠٩هـ ؟ نعتقد ان المستشرق غالى باستنتاجاته ، وابتعد عن الحقيقة التاريخية ، فالحلاج لا علاقة له بثورة ابن المعتز .

الحلاج كان مشغولا بتجربته يصرخ في الاسواق ملقيا اشعاره عن حبه . فكيف سيتسنى له الوقت الكافي ، وهو الذي توجه بكليته الى الله ، كيف سيجد الوقت للاشتراك بهذه الثورة ومع هذه الجماعة ؟!

والاشكال كله يدور حول تحديد كلمات الاصطخري وابن نديم ، وهي كلمات غير محددة الزمن ، فحسب ماسنيون انها تعود لسنة ٢٩٦ هـ . الا انها تصدق على مرحلة اخرى من حياة الحلاج كما سنرى .

اذا . . ولي الوزارة ابن الفرات ، فطلب الحلاج ، او راقبه،

وكان الحلاج يطالب بموته ، الا انه انقلب فجأة ، وهرب ، وظل
مختفيا عن الانظار . .

- ٥ -

ولي ابن الفرات - ابو الحسن علي - الوزارة سنة ٢٩٦ هـ ،
ثم القي القبض عليه لعدة تهم وسجن عند رئيسة النساء -
القهرمانة - في قصر الخليفة ، والغريب ان هذا الوزير على
الرغم من انه فاحش الفناء الا انه كان غير امين ، عدا كونه ظالما ،
وقد مرت معنا قصة عن استهتاره بتولية احد القضاة . ولكنه
لم يكن ذاك المستهتر بجمع المال . فهو يريد شخصا لا يؤمن بالله
ولا باليوم الاخر حتى يعذب احد المتخلفين عن دفع المال اليه (١) .
ومن كان هذا شأنه « لم يتحرج ولم يتهيب من مد يده الى خزانة
الدولة » (٢) على سعة ثروته .

ولهذا الوزير حكم سياسية ، توضح اي انحطاط كانت
عليه تلك السياسة التي قادها باسم الدين !! يقول « اصل امور
السلطنة مخرقة (خدعة) فاذا تمت واستحكمت صارت
سياسة » (٣) ويقول « تمشية امور السلطان على خطأ خير من
وقوفها عند الصواب » (٤) . وبهذه السياسة كان ابن الفرات
يطارد رجال ابن المعتز بعد ان كشفهم . وبهذه السياسة لاحق الحلاج .
ثم ولي بعده ابو علي محمد بن عبدالله الخاقاني . وكان
سيء السيرة ، سيء التصرف قال الشاعر فيه :

وزير قد تكامل في الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعة
اذا اهل الرشا اجتمعوا لديه فخير القوم اوفرهم بضاعة
وليس يلام في هذا بحال لان الشيخ افلت من مجاعة (٥) .

- (١) الحضارة الاسلامية : ادم متر ص ١٩٠ عن كتاب الوزارة للصابي ص ١٢١ .
- (٢) المرجع السابق ص ١٢٥ عن كتاب الوزارة للصابي ص ١٢٣-١٢٩ .
- (٣) المرجع السابق ص ١٢٥ عن كتاب الوزارة للصابي ص ١١٩ و٦٤ .
- (٤) المرجع السابق ص ١٢٥ عن كتاب الوزارة للصابي ص ٦٤ و١١٩ .
- (٥) الكامل : ابن الاثير ٨-٢٥ .

ووزر هذا الشريف سنتين ، كان خلالهما يأخذ الرشوة ولا يرفض شيئاً ، ضارباً صدره قائلاً « نعم وكرامة » . وكان كذلك خبيثاً وداهية (١) .

ثم عزل الخاقاني ووزر علي بن عيسى سنة ٣٠٠ هـ . والاراء في هذا الوزير مختلفة على ان هناك اجماعاً على انه مصلح وان لم يكن اميناً كغيره .
يقول الصولي فيه :

« ما اعلم انه وزر لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابه وحسابته وصدقاته ومبراته » (٢) .

وفيه يقول ابن الاثير :

« ولازم العمل والنظر في الامور ، ورد المظالم ، واطلق في المكوس شيئاً كثير بمكة وفارس واطلق المواخير والمفسدات بوديق ، واسقط زيادات كان الخاقاني قد زادها للجند لانه عمل الدخل والخرج فرأى الخرج اكثر فأسقط اولئك ، وامر بعمارة المساجد وتبييضها وفرشها بالحصر واستعمال الاضواء فيها ، واجرى للائمة والفقراء والمؤذنين ارزاقاً ، وامر باصلاح البيمارستانات، وعمل ما يحتاج اليه المرض من الادوية وقرر فيها فضلاء الاطباء ، وانصف المظلومين ، واسقط ما زيد في خراج الضياع » (٣) .

فهو وزير اصلاحي . ويظهر ذلك في امور عدة ، منها اشتغاله بأمور الدولة ليله ونهاره (٤) وفي تخرجه من تقليد ابنائه الاعمال خلال وزارته ، ومنها محاولته منع الايدي من سرقة مال

(١) ادم متر : ص ١٢٧ .

(٢) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم حسن ٣ - ٢٥٧ .

(٣) الكامل : ابن الاثير ٨ - ٢٦ .

(٤) عريب : صلة تاريخ الطبري ١٣٠ .

الدولة (١) .

ولكن يبدو ان كلمة اصلاح فيها نظر كثير ، فعلى حين نرى انه بلغ القمة في نصيحته لاحد عماله الذي ارسل يسأله في قوم حبسهم لمنعهم الخراج ، اذ قال له :

« الخراج . عافاك الله ، دين لا يجب فيه غير الملازمة ، فلا تتعد ذلك الى غيره » (٢) .

على حين يبدو كذلك ، لكن « لم يكن هذا الوزير نقي اليد تماما ، وقد فرط في تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجلا الى مال مؤجل لا يدري ما يجري فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك فلم يستطع ان يبرر هذا التصرف » (٣) .

ولم يدم عهده طويلا لاسباب عدة ، منها اسراف المقتدر . ويروى انه في سنة ٣٠٠ هـ كان عنده احد عشر الف خصي من الخدام وفي رواية اخرى سبعة الاف وسبعمائة حاجب (٤) . ومنها تدخل الحرير في ادارة الدولة ، فعزل سنة ٣٠٤ هـ . ويروى في عزله ان قهرمانه ام الخليفة اتت تطالب بمال ، وكان نائما فلم يوقظه احد ، ففضبت القهرمانه ، واوغرت صدر ام الخليفة عليه ، فقبض عليه وسجن عند قهرمانه اخرى مع الحسين بن حمدان سنة ٣٠٤ .

لكن هناك سببا اهم وهو عدم قدرته على ضبط الامور رغم كل محاولاته . ففي سنة عزله شغب الفلمان والرجالة عليه ، وطالبوا بالزيادة . « فمضوا الى داره واحرقوا بابه وذبحوا في

(١) الحضارة الاسلامية : مitez ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ عن الوزراء ص ٢٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧ عن الوزراء للصابي ص ٢٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٦ .

اصطبله دوابه « (١) .

وعندما سأله الخليفة عن امواله كذب ، فذكر ثلاثة الاف دينار ، ثم وجد له عند رجل سبعة عشر الف دينار ، ولما ضيقوا عليه قبل ان يدفع مئة الف على ان يدفع الثلث خلال ثلاثين يوما (٢) . ومن هنا نرى انه لم يكن المصلح التام ، كما حسب ماسنيون . وجاء بعده ابن الفرات مرة ثانية ، « فتدلسل له ابن عيسى واستعطفه وقبل يده وقام لابنه الصغير » (٣) . ولعل حكم متز هو الاصدق حول هؤلاء الوزراء الثلاثة عندما يقول فيهم :

« واذن (!) فقد تقلد منصب الوزارة في اوائل القرن الرابع وزراء ثلاثة يختلف احدهم عن صاحبه كل الاختلاف ولا يجمع بينهم الا خصلة واحدة هي الخيانة التي بها انتهبوا خزانة الدولة » (٤) .

والوزير علي بن عيسى هام في قضية الحلّاج ، ولا يجب ان نتوقع عدم الاضطراب في الاخبار المروية . فماسنيون يرى ان هذا الوزير ممن حابوا الحلّاج وممن دافعوا عنه ، بيد ان هذا الوزير هو الذي سيصلبه الان . ففي سوس القى صاحب البريد القبض على الحلّاج ، حيث كان مختفيا ، وسأله « انت الحلّاج ؟ فانكر شخصيته (٥) . ولكن بعض الموجودين تعرفوا عليه وبمساعدة عامل واسط المسمى حامدا سير الى بغداد مقيدا . يقول الطبري في حوادث سنة ٣٠١ هـ ، والطبري معاصر للحلّاج : « وفيها احضر دار الوزير علي بن عيسى رجل ذكر انه

(١) الحضارة الاسلامية : متر ص ١١٧ عن عريب ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ عن الوزراء ص ٢٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٥) الفهرس : ابن نديم ص ١٩١ .

يعرف بالحلاج ويكنى ابا محمد . مشعوذ ومعه صاحب له سمعت جماعة من الناس يزعمون انه يدعي الربوبية فصلب هو وصاحبه ثلاثة ايام كل يوم من ذلك من اوله الى انتصافه ثم ينزل بهما فيؤمر بهما الى الحبس (١) . على ان القصة في المراجع التالية تتسع ، والاتساع يؤدي الى التناقضات . فعند عريب :

« احضر الفقهاء ونوظر فاسقط في لفظه ولم يحسن من القرآن شيئاً ولا من الفقه ولا من الحديث ولا من الشعر ولا من اللغة ولا من اخبار الناس فسحقه (علي) وصفعه وامر به فصلب حيا (٢) .

وعند ابن نديم ان الذي ناظره هو علي بن عيسى نفسه على النحو التالي :

« فناظره فوجده صفرا من القران وعلومه ومن الفقه والحديث والشعر وعلوم العرب ، فقال له علي بن عيسى : تعلمك لظهورك وفروضك اجدى عليك من رسائل لا تدري انت ما تقول بها كم تكتب ويلك الى الناس ، ينزل ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته ما احوجك الى ادب .

« وامر به فصلب في الجانب الشرقي بحضرة مجلس الشرطة وفي الجانب الغربي ثم حمل الى دار السلطان فحبس » (٣) . .

اما ماسنيون فيرى ان احد وزراء ابن عيسى كان حلاجيا

(١) تاريخ الرسل والملوك : الطبري ٤-١٢ ص ٢٢٨٩ . وخبر الحلاج كله عنده ، الى جانب الاسطر المنقولة هو هذا « فحبس مدة طويلة فافتتن به جماعة منهم نصر القشوري وغيره الى ان ضج الناس ودعوا على ما يعيبه وفحش امره واخرج من الحبس فقطعت يداه ورجلاه ثم ضرب عنقه ثم احسرق بالنار ص ٢٢٨٩ .

(٢) صلة تاريخ الطبري : العريب بن سعد القرطبي ص ٦٧ .

(٣) الفهرست لابن نديم ص ١٩٠ .

لذا لم ينظر في الدعوة ، واطلق سراح تلاميذ الحلاج ، وانمسا عرض مصلوبا بحجة القرمطة « وهي حجة تخيلها مدير الشرطة مؤنس العمل كيدا للوزير نفسه (١) .

وعند ابن كثير ان الوزير انهى القصة الى الخليفة فلم يقر بما رمى به من سحر وشعوذة وادعاء للنبوذة فعاقبه بالصلب في رحبة الجسر « وينادي عليه بما ذكر عنه » (٢) .
ان كل هذا يوضح عدة امور هامة :

ان نهاية البحث عن الحلاج ، والذي بداه ابن فرات سنة ٢٩٦ هـ انهاء علي بن عيسى ومؤنس بصلبه وسجنه سنة ٣٠١ هـ .
ان استلام الحلاج من قبل علي بن عيسى بالذات ، ينفي نفيا قاطعا علاقة الحلاج بثورة ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ . اذ ان هذا الوزير ، هو احد اركان تلك الثورة ، ولو كان الحلاج قائدها ، لما امر بصلبه وبسجنه ، بل لو كان ابن عيسى يعتقد بالحلاج اي خير لتركه على حاله !

ان اضطراب الروايات وتناقضها ، لا يلغي اتفاقا واضحا فيها ، وهو انها تجمع على ان سجن الحلاج وصلبه انما نتيجة لارائه الدينية ، كما انها تجمع على ان ابن عيسى خصمه لا احد اتباعه !

- ٦ -

بعد صلب الحلاج سجن ، وحتى تكتمل صورة تنقلاته نجده هاهنا ينتقل من سجن الى سجن ايضا . ودام هذا طويلا، من سنة ٣٠١ هـ الى سنة مقتله في ٣٠٩ هـ . ومرت خلال ذلك ثلاث وزارات : وزارة علي بن عيسى ، ووزارة ابن الفرات الثانية والتي

(١) المنحنى الشخصي للحلاج : ماسنيون ص ٧٢ .

(٢) البداية والنهاية ١١ - ١٢٨ .

بدأت سنة ٣٠٤ هـ ، ثم وزارة حامد بن العباس الذي اتى سنة ٣٠٦ هـ ، وكان علي بن عيسى قد احضر من جديد ليكون هذه المرة مساعدا للوزير .

وفي اول سجن الحلاج قيد بالقيود ووضعت في عنقه سلسلة ثم تطور امره بعد ذلك من دون تحديد للزمان اذ ان احد محبيه وهو نصر القشوري الحاجب استأذن من الخليفة بان يبني له بيتا في السجن فاذن له ، فبنى له بيتا حسنا وفرشه بالفراش الحسن ، واحضر له خادمه وهو ابراهيم بن فاتك الذي سيروي الكثير من كرامات الحلاج وكلماته قبل السجن وخلاله . ويفضل نصر القشوري كان الحلاج يتمتع بحرية واسعة في سجنه ، اذ سمح له بان يكتب كتبه ومنها طاسين الازل . وكان الى جانب ذلك يؤذن لاصحابه ومريديه بزيارته ، ومنهم ابن العطاء الذي انقل بعض ما الف . كما اذن له بوعظ اللصوص والعيارين ! فاذا بهم يتوبون على يديه . كما اذن له بارسال الرسائل الى اصدقائه وتلامذته . على انه كان يمنع الناس من زيارته احيانا . كان الحلاج انذاك في العقد السادس من العمر ، وكان مكثرا من العبادة ، صائما ، مصليا ، خاشعا ، مقيما كراماته ومعجزاته !

ويقول ابن كثير :

« فاستغوى جماعة من غلمان السلطان وموه عليهم واستمالهم بضروب من الحيل حتى صاروا يحمونه ويدفعون عنه ويرفهونه بالماكل الطيبة ثم راسل جماعة من الكتاب وغيرهم ببغداد وغيرها فاستجابوا له وترقى به الامر الى ان ادعى الربوبية » (١) .

وهو يقصد بذلك نصر القشوري ، الذي قدمه للخليفة سنة ٣٠٣ هـ فشفاه من علة به . كما شفى والدته الخليفة ، وكما شفى ايضا ببناء لولي العهد او للخليفة نفسه سنة ٣٠٥ هـ مما عظم

(١) البداية والنهاية : ابن كثير ١١-١٢٨ .

امره ، فانتقل الى دار السلطان واقام فيها اقامة جبرية .
فخلال سجنه اتصل بالقصر اذا ، والمنطق يفرض ان تكون
علاقة الحلاج بالسياسة تعود الى هذه الفترة دون غيرها . اما
الدليل الذي يؤكد هذا ، فهو ان اهم المراجع وهو تاريخ الطبري ،
وبالتالي معظم المراجع ، تروي قصة استمالاته لرجال القصر بعد
سجنه سنة ٣٠١ هـ وترتيب الخبر على هذا النحو ، يشير - اذا
كان الترتيب في النص له هذه الدلالة وهذا البعد - الى ان قضية
الحلاج السياسية برزت عند ذلك ، وليس قبل ذلك كما رأى
ماسنيون ، ومعنى ذلك ان نرد كل ما قيل عن هذا الموضوع الى
هذه الفترة مثل قول الاصطخري وابن نديم وابن كثير وغيرهم ،
فهذا يأتلف مع الجو الجديد ، والحلاج متصل برجال الحكم ، مثل
ارساله الرسائل للسياسيين والكتاب ، ان صح وجود هذه
الرسائل التي تنسب اليه ، ومثل اعتقاد علي القوم كالقشوري
انه القطب ..

واذا صح هذا وبدا مقنعا ، زال كل لبس بقضية الحلاج
السياسية ، فالحلاج وهو بالسجن ثم وهو بالقصر يرى ما يحدث
من فوضى واضطراب رؤية مباشرة ، وهو يدخل على الخليفة
وامه ، ويعرف الحاشية والقادة ، فيفكر بالاصلاح .. وما دام
الحلاج قد اصبح هذا الشخص فلا يوجد تعارض بين اتجاهه
الصوفي وبين رغبته في التقويم .

وقد عاد ابن الفرات للوزارة سنة ٣٠٤ هـ واستمر بها الى
سنة ٣٠٦ هـ ، الا انه لم يفتح القضية خوفا من والده الخليفة (١) ،
ولدفاع نصر القشوري عن الحلاج ، مدعيان الرافضة هم الذين
يشوهون سمعته وانهم يريدون قتله بتهمة القرمطة (٢) وهي تهمة
كاذبة .

(١) المنحنى الشخصي : ماسنيون ص ٧٢ .

(٢) صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد ص ٧٢ .

واستمر الحلاج في سجنه مكرما ، على ان افكاره السياسية لم تر النور - ان كانت له افكار سياسية - وبقيت فكرا نظريا لا تدري عنه شيئا . ثم جاءت وزارة حامد ، وحامد من ساعد بالقاء القبض على الحلاج في سوس ، فتبدلت الموازين ، وطويت صفحة وبدأت صفحة اخرى .

- ٧ -

ولي حامد بن عباس الوزارة سنة ٣٠٦ هـ وعمره ثمانون سنة فتبين انه جاهل بالوزارة . ويقول ابن خلدون فيه « فلم يعرف حقوق الوزارة ولا سياستها وتحاشى عليه الدواوين » (١) وكان علي بن عيسى مسجوناً ، فأمر الخليفة باطلاقه من محبسه ، ثم ولاه الدواوين ، شبه نائب عن حامد ، لكن علي بن عيسى استبد بالامر دون حامد (٢) ، ولعل السبب في ذلك ، خبرة ابي الحسن ومعرفته بادارة الامور وتصريفها ، ثم لاختلافهما في الاهداف ، فحامد رجل يريد الثروة والجاه وذاك يريد الاصلاح وحسن التدبير الى جانب اطماعه الخاصة !

ومضى حامد على طريقته الخاصة لاعادة الامور اليه ولانماء ثروته بالوقت نفسه فضمن اعمال الخراج والضياع الخاصة والعامه . « وكان يريد بهذا الاحتكار اعادة الامور اليه » بعد ان اصبح امر الوزارة كله لعلي بن عيسى سنة ٣٠٧ هـ .

ولم يستطع ابو الحسن ان ينهض بالامر بسبب اسراف المقتدر الذي زاد ، وبسبب تصرف حامد في احتكاره للقبوت ، فارتفعت الاسعار ببغداد وشاغب العامة ونهبوا الغلال التي كان

(١) تاريخ ابن خلدون ٣-٧١٠ .

(٢) الكامل : لابن اثير ٨-٤٣ واعتمدت في هذا العرض على الكامل وعسلى تاريخ ابن خلدون .

حامد قد خزنها مع غيره من القواد . ونهبت دكاكين الدقاقين فأمر الخليفة بإحضار حامد وكان غائبا في الأهواز - واسط - فحضر ، وعاد المشاغبون الى شغبهم فقاتلهم حامد . فأحرق الجسرين ببغداد ، وفتحت السجون وهرب المساجين ونهبت دار الشرطة ، الى ان انتهت الفتنة بالقاء القبض على بعضهم وضرب بعضا اخر واعلن الامان .

وكان رأي علي بن عيسى ان سبب هذه الثورة احتكار حامد وتخزينه للفلال على حين كان اصحاب حامد يقولون بأن هذا الشغب من تدبير ووضع علي بن عيسى . والذي يلفت الانتباه ان الحلاج وقد كان مسجوننا رفض الخروج من سجنه كباقي المسجونين ، رغم الحاح اصدقائه عليه . . فما هو موقعه مما حدث اذا ؟

يرى ماسنيون (١) ان النزاع السياسي بين حامد وعلي بن عيسى سبب بفتح قضية الحلاج من جديد على النحو التالي : ان الامر بعد هذه الفتنة استتب لحامد يعاونه في ذلك القائسد مؤنس الذي حضر معه من واسط ، والذي ذهب في احد حروبه ، وعاد الى بغداد منتصرا سنة ٣٠٨ هـ ، فانتقم حامد ومؤنس من علي بن عيسى بأن دبوا قتل الحلاج صديقه العزيز ، حتى يخلص الامر لهما ويفرضا الضرائب الجديدة .

ومعنى تحليل ماسنيون ان نرد قتل الحلاج لاسباب سياسية ، وهي النزاع بين الوزير علي بن عيسى وحامد . على ان هناك ما ينقد هذا ، فالذي حاول الوقوف في وجه حامد هو نصر القشوري وليس علي بن عيسى ، اذ تدخل نصر وحاول اقناع الخليفة بعدم تسليم الحلاج لحامد ، الا ان هذا اصر والحق فسلم اليه وفثا حقه به .

كما ان ما ينقد هذا ، ان الخليفة بعد كثرة الحديث عن كفر

(١) المنحنى الشخصي : ماسنيون ص ٧٤ .

الحلاج رغب الى علي بن عيسى ان يناظره وارسل الحلاج اليه ،
فقال له : .

« قف حيث انتهيت ولا تزد عليه شيئاً ، والا قلبت عليك
الارض » وكلاما في هذا المعنى ، فتهيب علي بن عيسى مناظرته
واستعفى منه ونقل حينئذ الى حامد بن العباس (١) !
فكيف يكون علي بن عيسى صديقا له ، عدا عن كونه من
مؤيديه ؟ ان هذا الرد مع ما سبقه من مناظرة حدثت سنة ٣٠١
وادت الى صلب الحلاج على يد علي بن عيسى ينكر وينفي ان
تكون هناك اية علاقة بين الوزير والحلاج ، فهو لم يكن صديقا
له ولا هو من مؤيديه .

وبعد هذا لقد حقق ماسنيون اخبار الحلاج ، ومن ضمنها
رواية ابنه حمد ، وهذه الرواية مذكورة في تاريخ بغداد ايضا ،
وهو يقول بها ان والده اختلف مع علي بن عيسى والشبلي
والكثيرين (٢) فالرواية تؤكد ما ذهبت اليه اذا ، لا ما يذكره
الاستاذ ماسنيون بانها عليها كل استنتاجاته في قضية الحلاج
السياسية . فالمراجع تؤكد عدم صحة هذه الصداقة ، والخطيب
يذكر ذلك ايضا ، وعريب بن سعد وابن كثير يوردان ما ينفي
وجودها ايضا .

الا ان نفي هذه العلاقة بين الوزير والحلاج لا يعني عدم
تدخل السياسة بالامر ، فالحلاج قويت شوكته داخل القصر ،
واصبح من المقربين ، وابن كثير يذكر انه ارسل الكتب من داخل
سجنه الى الشخصيات الهامة ، ولا بد ان هذه الرسائل المفقودة
كانت تحض على الاصلاح ، والرجوع الى الدين الصحيح ، ولا بد
- ايضا - من ان اراءه لقيت قبولا ما لدى الخليفة نفسه ، عدا
عن الاستعداد النفسي الكبير عند اتباعه وتلامذته والذين كانوا

(١) صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد ص ٦١ وتاريخ بغداد للخطيب ٨-١٢٤ .

(٢) الاصول الاربعة : الاصل الثالث وتاريخ بغداد ٨-١١٢ .

يرون فيه القطب او الامام او الاله ايضا ، مما خوف حامد ، فأراد تبييض صفحته بارضاء رجال السنة وخاصة الحنابلة - وكانوا كثيرا في بغداد - بقتل شخص لا ترضيهم افكاره وشطحاته ، وبالوقت نفسه يتخلص ممن يدينه ويعكر عليه صفو احتكاراته ، وايده مؤنس صديقه الوفي ، الذي لم يكن همه بأضعف من هم حامد في جمع المال والذهب ، وقتل ابن عطاء بعد ذلك لانه فضح الطاغى يثبت هذا .

على ان القول بان الحلّاج قتل لهذا السبب السياسي وحده مغالاة ، وقد رأى الدكتور احمد امين هذا ، فيدون السبب السياسي لم يقتل الحلّاج ، بل كان ترك كما ترك غيره من الصوفية (١) ، في هذا مغالاة ، لان الصوفية كانوا مضطهدين دائما ، وتاريخهم تاريخ لهذا الاضطهاد ، والا فما معنى حديثهم عن التستر والطي والكتمان ؟ ابو يزيد الذي يستشهد فيه كل متحدث عن الزهد والعبادة سواء اكان صوفيا او فقيها طرد من بلده مرات ، وذو النون المصري عذب واحضر الى بغداد مقيدا ، والحلّاج قتل ، والشبلي خاف فتستر ، وبعض من تلامذة الحلّاج قتلوا سنة ٣١٢ هـ والشلمغاني صلب وضرب واحرق سنة ٣٢٢ (٢) ولن نبعد اكثر لان الجرائم اكثر من ان تحصى وكانت قمتها بعد ذلك قتل السهروردي . هذا عدا ان الكثير من الفقهاء احلوا دم الحلّاج واحلوا دم كل من يعتقد اعتقاده .

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

لقد تحدثنا عن العلاقة بين الحلّاج ورجال السياسة حتى الان ، ومن المفترض ان يكون الحديث الاوسع عن طبيعة

(١) ظهر الاسلام : احمد امين ٢-٧٥ .

(٢) وفيات الاميان : ابن خلكان ١-١٥٢ .

هذه العلاقة ، وعن اراء الحلاج السياسية . الا ان هذا المفترض غير ممكن التحقيق لعدم وجود الشواهد التي تعين على التحليل ، ومن هنا يكون التخمين اساسا للحكم لا اكثر .
ان حامدا هو عدوه الاساسي ، وحامد «اخذ اموال الناس وظلمهم وقتلهم» كما ذكر ابن عطاء ، وهو المعروف باحتكاره الاقوات والفلال ، الى جانب كونه الاقطاعي الكبير ، والاستنتاج الطبيعي هو ان الحلاج تصدى له ومضى ضده بعد ان استشرت الازمة ونهضت الاضطرابات ، مطالباً بقلب الوضع الفاسد واصلاح حال الامة .

لكن ما هي هذه الامور التي طالب بها بالضبط ؟ لا توجد لدينا اية معلومات عنها . ولكننا لا نعتقد مع ذلك بأنه مضى بعيدا باستيعاب المشكلة وبوضع الحلول لها ، اذ يجب الا ننسى ، ان هذه العلاقة الجديدة لم تلغ الحلاج الصوفي الباحث عن الحل الفردي والسلبى . اليس اتصال الحلاج بالقصر وبرجاله وبالوزراء ، ومخاطبته اياهم طلبا للاصلاح ، يوضح مدى فهمه للامر برمته ؟ لقد علق الحلاج على هؤلاء آماله ، مما يحدد كيف كان يعي الامر كقضية فردية واخلاقية لا اكثر ، تحل اولا باقصاء المحتكر والظالم ، وتحل ثانيا بمجيء الامير العادل ، وربما تحل بتوبة المحتكر والظالم ، وكفه عن الاحتكار والظلم ، من دون اي تعميق حقيقي للقضية .

وبطبيعة الحال ، ليس لنا ان نتوقع من الحلاج في هذه العلاقة ما هو اضعف ، وانه لمن الخطأ البين ، ان نتوهم استنتاجات ابعدهم ، وكان هذه العلاقة مع القصر خلقت انسانا جديدا ملفية ذاك الصوفي . ان قصارى الجهد استيعاب تعاطف الحلاج مع الجائعين والمظلومين المقيدين في السجون ، واستيعاب حض الحلاج على ضرورة الاصلاح ، مع بقائه ذاك الباحث عن الحل الفردي والسلبى ، وذاك البشر عند تلامذته بذلك الحل الفردي والسلبى .

ان هذه العلاقة كيفما كانت ، ومهما بلغت شأنها ، يجب
الا تنسينا انها تصب داخل هذه الشخصية المثلثة بالقربية ،
نفسيا وتجربة وفكرا .. يجب الا تنسينا الحلاج وهدفه ..
الحلاج وخياله .. الحلاج وطريقه واوهامه .. ترى اليس لجؤه
الى رجال القصر ، وهم صانعوا الازمة ، ليحلوا الازمة ، كحل
فردى ، جزءا من ذاك الوهم !؟

مما كتمته وقتله

وضع الحلاج - انواع التهم : كرامات ، والوهية - رد
الحلاج - موقف القضاة - شهود من تلامذة الحلاج - قضية
الجمع - ابنة الشمري وشهادتها - توبة الحلاج - قضية الحج
واحلال الدم - اراء في القاضي - ما اضيف الى قضية الحج
وتحليل ذلك - تردد الخليفة - الامر بالقتل - رأي السهروردي
- الحلاج ليلة القتل - حضوره فرحا لساحة القتل - رايه في
التصوف - ضربه الف سوط - مقارنة مع المسيح - نورزنا -
قطع اعضائه - صلبه - اخر كلماته - قطع رأسه وحرقه .

انتقل الحلاج اخيرا الى دار نصر القشوري ، مقيما في حجرة
حسنة اقامة جبيرة ، ومعطى بعض الحرية ، ولما اشتد الحجاج
الوزير حامد خشي الخليفة وامر بتسليمه اياه ولم تنفع معارضة
نصر الحاجب .

يصف ابن كثير الحلاج لما احضر للوزير بما يلي :
كان عليه مدرعة سوداء ، وفي رجليه ثلاثة عشر قيذا ،
والمدرعة واصلت الى ركبتيه والقيود واصلت الى ركبتيه ايضا ،
وكان يصلي في كل يوم وليلة الف ركعة (١) .

وكانت التهم الموجهة اليه مختلفة ، وهي التهم التقليدية
نفسها التي ادت الى صلبه سنة ٣٠١ هـ ، وتدور حول امرين
صنع الكرامات او السحر ، وادعاء الالوهية او الحلول . وهي
كما يلي :

احياء الموتى ، واحياء عدد من الطير ، وان الجن تخدمه
فتحضر له ما يشتهي فتأتيه بالفاكهة في غير اوانها ، وانه يخرج

(١) البداية والنهاية ١١-١٤٠ .

فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، وانه يمد يده في الهواء فيعيدها مملؤة دراهم عليها مكتوب « قل هو الله احد » ويسميا «دراهم القدرة» ، وانه يخبر الناس بما اكلوه وما صنعوه في بيوتهم ويتكلم بما في ضمائرهم ! (١) وكذلك ادعاؤه انه الحق ، وان الالوهية حلت به ، وان تلامذته يعبدونه على انه الاله وانهم يدعون الناس الى عبادته وفق برنامج رسمه لهم ، وهو ان «يخاطبوا الناس بحسب عقولهم وعلى قدر استجابتهم» (٢) فينقلوهم من حال الى حال ومن مرتبة الى مرتبة حتى يبلغوا الفاية القصوى .

وكان حامد يخرج كل يوم الى مجلسه يناظره او يتسقطه (٣) ليعلم بشيء يكون سبيلا لقتله ، فكان الحلاج لا يظهر الا التوحيد وشرائع الاسلام ، كما لا يظهر ما تكرهه الشريعة ، وطال الامر كثيرا وتشعب ، والوزير جاد في امره وكأنه كان على قناعة بضرورة قتل غريمه !

في البداية رفض الشيوخ الشوافعة حضور المناظرة وهذا يذكر بموقف ابن سريج من القاضي ابي داود عندما وقف بوجهه رافضا ان يحاكم الحلاج لان حاله ليست من اختصاص المحاكم . ثم احضر حامد القاضي ابا عمرو والقاضي ابا جعفر بن البهلول وجماعة من وجوه الفقهاء والشهود واستفتاهم فقالوا : « لا نفتي في امره بشيء الا ان يصح عندنا ما يوجب قتله ولا يجوز قبول قول من يدعي عليه ما ادعاه الا ببينة او اقرار» (٤) . وجد حامد في احضار البينات ، وحاول جهده بجمع الشهود ، وكان يلاحق تلامذة الحلاج مفتشا بيوتهم بحثا عن

(١) الاصول الاربعة : تحقيق ماسنيون : الاصل الاول والكامل لابن اثير ٨-٦٦ .

(٢) الاصل الاول من الاصول الاربعة ، وتاريخ بغداد ٨ - ٣١٦ .

(٣) الاصول الاربعة : الاصل الاول .

(٤) الكامل : ابن اثير ٨ - ٤٦ .

كتبه ، ومن هؤلاء التلامذة الشمري الذي قبض عليه بعد ان وجد في بيته : رجيع الحلاج وعذرتة وقوارير فيها بوله واشياء من اثاره ، وبقية خبز من زاده (١) . ولما حقق معه قدم لحامد ثلاث بينات .

ادعى الشمري بأن رجع الحلاج يشفي ، فرد هذا « انه شيء ما علم به ولا عرفه » (٢) وادعى كذلك انه اشتهى خيارا في الشتاء ، فأدخل الحلاج يده في سفح جبل ثلج واخرج منه خياراً خضراء (٣) .

وادعى كذلك بأنه يعتقد بأنه الاله ، واقر بذلك ، اذ صح عنده ان الحلاج اله وانه يحيي الموتى ، ورد الحلاج :

« اعوذ بالله ان ادعي الربوبية او النبوة ، وانما انا رجل اعبد الله واكثر من الصوم والصلاة وفعل الخير ، لا اعرف غير ذلك » (٤) .

فالحلاج ينكر كل هذه الدعاوي ، ولا يقر بأي اقرار ، على انه كان يوافق دون تهرب على ما يجده حقا . من ذلك انه وجدت له رسالة الى احد تلامذته بدأها بقوله «من الرحمن الرحيم السى فلان» فلما سئل عن الرسالة لم يتملص بل قال بجرأة نادرة :

— انا كتبت هذا ، او هذا خطي وانا كتبتة .

ف قيل له :

— كنت تدعي النبوة ، فصرت تدعي الالهية والربوبية .

فرد بقوله :

— ما ادعي الربوبية ، ولكن هذا عين الجمع عندنا ، وهل

الكاتب الا الله ، وانا واليد فيه آله .

(١) تاريخ بغداد : الخطيب ٨ - ١٣٧ والبداية والنهاية ١١ - ١٤٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٨ - ١٣٧ .

(٣) الاصول الاربعة : الاصل الاول .

(٤) الاصل الاول من الاصول الاربعة والكمال ٨-٦٦ والبداية والنهاية ١١-١٤٠ .

فقيل : هل معك احد على ذلك .
فقال : - نعم : ابن عطاء ، وابو محمد الحريري ، وابو بكر
الشبلي .

فاحضروا ، اما الحريري فكفر القائل بهذا ، وقال الشبلي
بان من يقول هذا يمنع ، وفي قوله تهرب . اما ابن عطاء صديق
الحلاج فأقر بما يقول الحلاج وصدقه ورد على الوزير ردا جريئا
مما سيسبب قتله ، وهو يعطينا صورة رائعة لتلك الصداقة
الفكرية والانسانية التي كانت تجمعهم بالحلاج (١) .
والتصوفة لا يرون في هذا الكلام ما يسييء ، من ذلك قول
الطوسي في كتابه «اللمع» :

« فالذي يقول بعين الجمع صديق يرى قوام الاشياء بالله،
ويرى كل شيء من الله ويرجع في كل شيء الى الله ، الا ان من
يتخذ ذلك ذريعة لركوب المعاصي فهو زنديق » (٢) .

والظاهر ان مثل هذا التعليل كان مقبولا ، اما احتراز
الطوسي فهو احتراز ضد السفلة من الناس الذين يمكن ان
يسرقوا وان يقتلوا ثم يقولوا هذا من فعل الله ، وما نحن الا اله
فيه . ولذلك استمرت المحاكمة ولم يدن الحلاج على قوله الادانة
القاتلة !

واستمرت المحاكمة ثمانية اشهر (٣) ، والحلاج يناظر ويرد
ويفحم ، وحامد مستمر في احضار شهوده ، دون ان يستطيع
الايقاع بالمتهم ، والظاهر ان الحلاج كان متمرسا وعالما بعكس
ما يدعيه خصومه من مؤرخيه عندما يصفونه بالجهل وعدم-

(١) الاصول الاربعة : الاصل الثاني . البداية والنهاية ١١-١٢٨ . تاريخ
بفداد ٨-١٢٨ .

(٢) اللمع للطوسي ، تحقيق طه عبد الباقي سرور ص ٥٥ .

(٣) في تاريخ الشعوب الاسلامية (٢-٨٥) يرى بروكلمان ان المحاكمة استمرت
سبعة اشهر .

المعرفة ، والا لاستطاعوا وهم قضاة وفقهاء ان يدينوه منذ البداية .
ومن الشهود غلام دخل الى سجن الحلاج بالطعام ، فوجد
ان الحلاج ملأ البيت من سقفه الى ارضه وملأ جوانبه بالطعام ،
فرد الحلاج بجرأة وكذب الغلام وشتمه (١) .

واحضرت الى المجلس بنت الشمري ، وشهدت بعدة قضايا
والظاهر ان شهادتها مزورة كما يؤكد الدكتور احمد امين (٢) وان
الوزير حامدا هو الذي جلبها ليلوث سمعة الحلاج ، خاصة وانها
«حسنة المبارة ، عذبة الالفاظ ، مقبولة الصورة » (٣) كما
يصفها الخطيب البغدادي . وشهادتها ذات اربعة فصول .

ادعت انه غشيها في الليل ، فانتبعت مزعورة ، فقال :
انما جئتك لاوقظك للصلاة .

وادعت ان ابنته قالت لها :

— اسجدي له .

فقلت لها :

— او يسجد احد لغير الله .

فسمع كلامي لها ، فقال :

— نعم اله في السماء واله في الارض .

كما ادعت انه ادخل يده في كفه ، واخرجها مملوئة بالمسك ،
ممثلا ذلك عدة مرات ، كما انه قال لها : ارفعي جانب البارية
وخذي من تحته ما تريدن ، فاذا بالدنانير مفروشة على الملىء .
اما الفصل الرابع من الرواية ، فهو ان الحلاج يرى عن بعد ،
قال لها انه زوجها من ابنه ، فاذا اختلفت معه وحدث شقاق
بينكما ، «قصومي يومك واصعدي آخر النهار الى السطح ،

(١) الاصول الاربعة : ماسنيون : الاصل الاول .

(٢) ظهر الاسلام : الجزء الثاني .

(٣) تاريخ بغداد ٨-١٣٤ والقصة تلي ذلك ، كما انها موجودة في الاصل الاول
من الاصول الاربعة .

وقومي على الرماد واجعلي فطورك عليه وعلى ملح جريش
واستقبليني بوجهك واذكري لي ما انكرته منه فاني اسمع وارى». .
وقد بقيت هذه المرأة سجينة في دار حامد الى ان قتل
الحلاج ، وهذا يؤكد ان دعواها ملفقة ومزورة ، فلماذا في دار
حامد ؟

ولا بد ان الحلاج قد وقف موقفا صلبا امام هذه المرأة ،
بحيث لم توقع به شهادتها الكاذبة . وظل ينافح الى ان اتى السهم
النافذ عندما طرح رايه في قضية الحج فأحل دمه .

وكان الحلاج اثناء المحاكمة قد قال ، وكأنه يعلن توبته :
« سبحانك لا اله الا انت عملت سوءا وظلمت نفسي ، فاغفر
لي ، انه لا يغفر الذنوب الا انت » (١) .
ولكن عن اي شيء كان يتوب ؟!! .

- ٢ -

ان المرء يستغرب امر هذه المحاكمة ، اكل تلك الدعواوي ،
من كلمات الحلاج الى نسب السحر اليه ، الى عبادة بعض
التلامذة له ، اكل هذا ما اثر في القضاة ، ولا جعلهم يحكمون
بموته بل يطلقون حكمهم على قضية فرعية اذا قيست بالدعواوي
الاولى ؟! ثم اي حكم هو هذا ؟ انه يشبه من يسب الاخر عفوا ،
فالزم القاضي بكلمته التي فاه بها عفوا دون ان يعني مضمونها .
وهذه هي القصة :

احضر كتاب للحلاج ، وقرأ منه على الوزير وعلى القضاة
بعض ما فيه وهو : « ان الانسان اذا اراد الحج ولم يمكنه ، افرد
في داره بيتا لا يلحقه شيء من النجاسات ولا يدخله احد ، فاذا
حضرت ايام الحج طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة ، ثم

(١) تاريخ بغداد ٨-١٢٧ والاصول الاربعة : الاصل الاول .

يجمع ثلاثين يتيما ويعمل اجود الطعام يمكنه واطعمهم فني ذلك البيت وخدمهم بنفسه فاذا فرغوا كساهم واعطى كل واحد منهم سبعة دراهم او ثلاثة دراهم ، فاذا فعل ذلك كان كمن حج او قام له مقام الحج » .

قال القاضي ابو عمرو للحلاج :

– من اين لك هذا ؟

قال :

– من كتاب الاخلاص للحسن البصري .

قال له القاضي :

– كذبت يا حلال الدم ، قد سمعناه بمكة ، وليس فيه

هذا .

فلما سمع الوزير هذا قال للقاضي :

– اكتب بهذا .

فتلكا ، وتشاغل عنه ، محاولا التهرب ، ودافعه وكأنه ينفي المقصد الذي انتهى اليه الوزير ، فما هي الا كلمة كالمسبة لا غير ،

وليست حكما صدر بعد تمحيص وترو حتى يوجب العدل .

ثم الزمه حامد بعد الحاح ، فكتب مقرا باباحة دمه ، وكتب بعده من حضر المجلس من القضاة والفقهاء ، ولما سمع الحلاج

هذا قال لهم :

« ظهري حما ، ودمي حرام ، وما يحل لكم ان تتناولوا علي

بما يبيحه واعتقادي الاسلام ، ومذهبي السنة ، وتفضيل ابي بكر

وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن

بن العوف وابي عبيدة ابن الجراح ، ولي كتب في السنة موجودة

في الوراقية ، فالله الله في دمي » .

ولم يعبا الوزير ولا القضاة بهذا التصريح ، ومثله ذو اهمية

في اقرار تهمة دينية من هذا النوع بحسب الشريعة ، وله

اهمية في تقرير العقوبة كذلك . وهذا دليل على ان هم القضاة

والوزير كان الانتهاء منه ، مما يؤكد دلالة اهمية الدافع

السياسي كأهمية الدافع العقائدي .

بعد ذلك تفرق الناس ، وكتب الوزير حامد الى الخليفة يستأذنه بقتله ، مرسلًا فتاوى القتل برفقة كتابه (١) .
لقد ذكرت فيما سبق رأي محمد بن داود بن الجراح - احد الرجال الهامين في ذاك العصر ووزير ابن المعتز - في القاضي ابو عمر اذ قال « هو ما هو من الفدر وضعف الهمة وسوء التدبير » (٢) وماسنيون حقق انه قاض ، مجامل لرؤسائه ، محسنا تملقهم (٣) ولو كان غير هذا لرفض الزام الوزير له بكلمة فاه بها عفوا لتكون حكما ، وما ترددده الا دليل ضعفه لا دليل اخلاصه لعمله ، فلو كان مخلصا لاستمر على موقفه من دفع طلب الوزير دون تراجع .

هذا بالنسبة للقاضي ، ولكن ما هي هذه التهمة الموجهة اليه ؟ يرى الاستاذ طه عبدالباقي سرور ان لا وجود لكتاب اسمه الاخلاص لحسن البصري ، فهل يكون الموضوع كله ملفقا وما هو الا قصة اخرجت للناس فيما يستطيعون وعيه من امور دينهم وهو نقد الحج واستبداله بأمر آخر ؟ ومما يزيد التعقيد ان المراجع التالية تضيف الى القصة تفاصيل اخرى عدا عن قضية الحج ، فعند عريب بن سعد وعند ابن كثير نجد حلولا جديدة تغني عن الصيام والعبادة والزكاة على النحو التالي :

« وان من صام ثلاثة ايام لا يفطر الا في اليوم الرابع على ورقات هندبا اجزاه ذلك عن صيام رمضان .
« ومن صلى في ليلة ركعتين من اول الليل الى آخره ، اجزاه ذلك عن الصلاة بعد ذلك وان من جاور بمقابر الشهداء ، وبمقابر قريش عشرة ايام يصلي ويدعو ويصوم ثم لا يفطر على

(١) تجد القصة في الاصول الاربعة : الاصل الاول وفي الكامل ٨-٧ .

(٢) ابن المعتز العباسي : احمد كمال زكي ص ٢٠٣ .

(٣) المنحني الشخصي : ماسنيون .

شيء من خبز الشعير والملح الجريش اغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره « (١) وعند عريب نجد بالاضافة الى هذا ان الحلاج اعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه في يوم واحد (٢) .
ولا نجد هذه الزيادات في الاصول الاولى عن حياة الحلاج، ولا نجدها كذلك في الكامل لابن الاثير على الرغم من انه يذكر قصة الحج ، ولا نجدها عند الخطيب ايضا .

انه امر تاريخي ، وليس عقليا حتى يناقش فنرفضه او نقبله بحسب موقفنا من الحلاج ، وربما لا نعرف الان كتابا للحسن البصري يسمى الاخلاص ، فلا يمكن ان ننكر وجوده ، وقد ذكر ابن نديم العديد من المؤلفات للحلاج ، فهل تشكك بوجودها لاننا لم نرها الا في الفهرست ؟

على ان للقصة جانبا آخر ، ماذا لو كانت القصة صحيحة؟! فاية قفزة قفزها الحلاج في فهمه الديني ؟ يرى ماسنيون ان الحلاج بعد سنة ٢٩٢ اقام في بيته كعبة مصغرة! (٣) فان صح هذا فاية نظرة كانت للحلاج؟! ومن اي برج شاهق كان يتطلع؟! .

ترى اكان يعتقد تماما بأن تلك العبادات ليست الطريق الى الله حقا ؟ اتوصل الى ان المحب لن يقيد حبه بيت اسود في الصحراء ، وبحركات مفروضة؟! .

انها قفزة لا مثيل لها في تاريخ الاسلام اطلاقا، يقترب منها ذاك الخبر الغامض المنسوب الى التوحيدبي عن الحج العقلي ، فالعبادة ليست طقوسا تؤدي ، بل هي قلب محب يتجه الى الخير باستمرار!

غاية الامر ، احل دم الحلاج بسبب هذا الرأي ، ووقع

(١) البداية والنهاية ١١-١٤١ .

(٢) صلة تاريخ الطبري ص ١٠٥ .

(٣) المنحنى الشخصي : ماسنيون .

القضاة على الحكم الا قاضيا واحدا وهو قاض شافعي ، وارسل الحكم الى المقتدر .

وبقي الامر لدى الخليفة يومين او ثلاثة ايام ، استطاع نصر الحاجب وأم الخليفة اقناع المقتدر بتخفيف الحكم ، فتخوف حامد ، ويذكر الخطيب انه ندم وخاف وكتب الى الخليفة « ان ما جرى في المجلس قد شاع وانتشر ومتى لم يتبعه قتل الحلاج افتتن الناس به ولم يختلف عليه اثنان » (١) .

فخاف الخليفة ، واتى جوابه سريعا :

« اضربه الف سوط ، فان تلف تحت الضرب والا فاضرب

عنقه .

» فسر حامد لهذا الجواب وزال اضطرابه .

ولما اراد حامد تسليمه الى رئيس الشرطة تخوف هذا فطمأنه حامد بانه سيرسل معه غلمانا حتى لا ينتزع منه واوصاه بما يلي :

« يضرب الف سوط ، فان تلف حز راسه ، واحتفظ به واحرق جثته .

كما انه اوصى الجلاد قائلا :

« ان قال لك اجري لك الفرات ذهباً وفضة ، فلا تقبل منه ولا ترفع الضرب عنه » (٢) !
وهكذا رسم الامر .

- ٣ -

انشد السهروردي معبرا عن ملحمة المتصوفة اجمل تعبير،
وما انشده يصدق على قصة الحلاج ، وذلك في قوله :

(١) تاريخ بغداد ٨-١٣٩ .

(٢) الاصول الاربعة : الاصل الاول .

ابدا تحن اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح
وارحمتا للعاشقين تكلفوا نستر الحبة والهوى فضاح
بالسر ان باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
وهكذا فعلى الحلاج ان يواجه مصيره بعد ان اباحت دماؤه،
لكن قوة اللحمية لم تقتصر على هذه الصور القاسية ، بل
تعدتها الى صور اشنع وابشع . فالحلاج عاد الى فرحه بقاء الله،
الذي طالما تمنى الموت حتى يكون معه ، واذا كانت شخصيته
المتقلبة قد جعلت من هربه بعد طلبه موقفا متناقضا ، فما هو
ذا الآن يواجه مصيره الذي سعى اليه بشكل ملحمي بل وبشكل
اسطوري !

في تلك الليلة ، قام الحلاج مستقبلا القبلة ، متوشحا
بردائه ، رافعا يديه ، مناجيا ربه ، الذي يبدي ما يشاء من شأنه
وهو في مكانه على عرشه ، والذي يتجلى كما يشاء مثل تجليه في
مشيئته لدى خلق السماء والارض وما عليها . الى ان يناجيه
بقوله :

« كيف انت اذا مثلت بذاتي عند عقيب كراتي ، ودعوت الى
ذاتي بذاتي وابديت حقائق عالمي ومنجزاتي ، صاعدا فسي
معارجي الى عروش ازلياتي ، عند القول من برياتي . اني
اخذت وحبست واحضرت وصلبت وقتلت واحرقت واحتملت
السافيات الذاريات اجزائي ، وان لذرة من ينجوج (بقايا) مظان
هاكول (هيكل) متجلياتي اعظم من الراسيات » (1) .

ثم ينشد قصيدة ينعي نفسه فيها والتي طاحت في شهود
القدم ، ولينعي قلبه الذي تلقى سحائب الوحي الحاوية على بحار
الحكم ، ولينعي لسانه الذي تكلم به الحق ، وينعي بيانه الذي
يستكين امامه كل فصيح ، وينعي كل اشارات العقول التي
لم يبق منها شيء ، فهناك طائفة لا تجد حياتها الا على

(1) اخبار الحلاج ص 11 .

اطلال آلام الآخرين ، كعاد وارم الذي مضوا مخلفين هؤلاء القتلة
الذين اباحوا دمه بعقولهم وقلوبهم العمياء ، بل الادنى عماء
من الحيوانات .

وسأبت هذه القصيدة هنا ، كما سأفعل مع اي موضوع
آخر ملتبس في هذا الفصل ، مؤجلا بحث الالتباس الى الفصل
الآتي ؟ والابيات هي :

انعي اليك نفوسا طاح شاهدها

فيما وراء الحيث بل في شاهد القدم

انعي اليك قلبا طالما هطلت

سحائب الوحي فيه سا ابحر الحكم

انعي اليك لسان الحق مذ زمن

اودى وتذكاره في الوهم كالعدم

انعي اليك بيانا تستكين له

اقوال كل فصيح مقول فهم

انعي اليك اشارات العقول معا

لم يبق منهن الا دارس الرسم

انعي وحبك اخلاقا لطائفة

كانت مطاياهم من مكمد الكظم

مضي الجميع فلا عين ولا اثر

مضى عاد وفقدان الالى ارم

وخلفوا معشرا يحذون لبسهم

اعمى من البهم بل اعمى من النعم

فاذا كان الصباح ، « احضر من محبسه مقيدا ، بالسلاسل

التي بلغت ثلاثة عشر قيذا » وهو يتبختر في قيده وهو يضحك

ويقول :

الى شيء من الحيف

نديمي غير منسوب

كفعل الضيف بالضيف

دعاني ثم حيائي

دعا بالنطع والسيف

فلما دارت الكاس

كذا من يشرب الراح مع التين في الصيف (١)
وإذا ما سئل عن هذه الحالة العجيبة ، أيقدم الى الموت وهو
يضحك :

- يا سيدي . ما هذا الحال ؟
قال :

- دلال الجمال ، الجالب اليه اهل الوصال (٢) .
ولما اقترب من الميدان ، ورأى الخشبة والمسامير المعدة
لصلبه « ضحك كثيرا حتى دمعت عيناه » (٣) والتفت الى الجمع
الكبير المحتشد والذي لا يحصى عدده فرأى الشبلي فقال له :

- يا ابا بكر هل معك سجادتك ؟
فقال :

- بلى يا شيخ .
قال :

- افرشها لي

« افرشها ، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين وكنت
قريبا منه . فقرأ في الاولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى
(لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع) ، وقرأ في الثانية فاتحة
الكتاب وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) ،

فاذا ما سلم ، خاطب ربه « المتجلي عن كل جهة المتخلي عن
كل جهة ، سارحا في هذا التنزيه الذي اعتدنا سماعه منه والتي
تسبق كالمعتاد تجربته او ما يسميه ها هنا : النعم التي انعم
الله عليه بها : « حيث غيبت اغياري عما كشفت لي من مطالع
وجهك وحرمت على غيري ما ابحت لي من النظر في مكنونات
سرك ، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك وتقربا

(١) اخبار العلاج ص ٢٤ .

(٢) اخبار العلاج ص ١٢٣ .

(٣) اخبار العلاج ص ٧ والحوادث التالية يتبع لهذا الخبر .

اليك فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا
ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت
فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد .

فالحلاج مقتنع ان سبب قتله ، سبب بلواه هذه ، انما كونه
اطلع على وجه الله وهو غير جائز ، وبدون ذلك لما قتل .

ثم سكت ليناجي ربه في قلبه ، فتقدم احد جلاديه ولطمه
لطمه هشمت انفه وأسالت الدم على لحيته ، فصاح الشبلي
ومزق ثوبه وغشي على آخرين من الفقراء ، وكادت تحدث فتنة
لولا ان اسرع الجند بتنفيذ الامر على ان بعض الثائرين كانوا في
هذا الاثناء يحرقون بعض الدكاكين في بغداد على ما يذكر
ماسنيون (١) .

ولاذ الحلاج بالصمت ، ثم بدأ بتنفيذ العقاب ، فضرب الى
تمام الالف سوط ، ثم قطعت يده ورجله ثم يده ورجله (٢) ، ولم
يشك . بل قال :

— الهي اصبحت. في دار الرغائب انظر الى العجائب ، الهي
انك تتودد الى من يؤذيك ، فكيف لا تتودد الى من يؤذي
فيك « (٣) . وكان المسيح قد قال قبله في موقف مشابه
« الهي ، لم تركتني » (٤) !

ثم صلب الحلاج وهو لا يزال حيا بعد كل هذه الصور من

(١) المنحنى الشخصي : ماسنيون ص ٧٨ .

(٢) يذكر الاستاذ طه عبد الباقي سرور انه في اليوم الاول قطعت يداه وفي
الثاني قطعت رجلاه في كتابه عن الحلاج لكن المراجع تذكر ما ذكرته كما
في الاصل الاول وفي الكامل ٨-٨ . اما في غيرهما فلا يحدد الامر بل
يقال وقطعت يداه ورجلاه فقط كما في تاريخ بغداد ٨-١٤٠ .

(٣) اخبار الحلاج ص ٤٢ والاصل الثاني والبداية والنهاية ١١ - ١٢٩ .

(٤) جاءت لم هكذا في انجيل متى بزيادة الالف : ايلي ايلي لما شبيقتني اي
الهي الهي لما تركتني .

النعذيب الوحشية ، وحتى تتكامل هذه الملحمة اذ بالحلاج يقول وهو مصلوب :

- نورزنا (١)

ونيروز هو عيد الربيع ، فكأنه وقد بلغ الذروة في التصوف والحب ، يرى ان حقيقة الحب هي في هذا العذاب المضي ، معتبرا الموت - كما بينت - فرحته الكبرى ، فكأن الموت عيد الربيع ، وكأن الموت اجمل ايام العمر ، وكأنه عيد الحياة . وذلك هو المعنى الاسمي للحب الالهي ، ان تشقى بالحبيب وهو ناء عنك وان تتعذب فيه مبتسما بقبول ورضا وفرح !!

وبقي مصلوبا ذاك اليوم باكملة ، فأتى الشبلي او صديق له وسأله :

- ما التصوف ؟

فقال :

- أهون مراقبة منه ما ترى .

فقال له :

- ما أعلاه ؟

فقال :

- ليس لك اليه سبيل ، ولكن ستري غدا ، فان في الغيب ما شهدته وغاب عنك (٢) . وقد تأخر امر الخليفة بالاجهاز عليه الى المساء ، وقت العشاء ، فأجل ضرب العنق الى اليوم التالي حتى يحضر الوزير . وكان الوزير قد قال للخليفة يشجعه : « ان اصابك شيء فاقتلني » (٥) .

وفي الغد ، انزل الحلاج من الجذع الذي صلب عليه . وكان الوزير قد جمع الشهود وطلب منهم ان يصيحوا :
« نعم ، اقتله ، ففي قتله صلاح المسلمين ، ودمه فسي

(١) اخبار الحلاج ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

رقابنا « (١) .
ثم قدم لتضرب عنقه فقال بأعلى صوته :
- حسب الواجد افراد الواحد له .
فما سمع بهذه الكلمة أحد من الشيوخ الا رق له وعطف
عليه مستحسنا هذا الكلام منه (٢) .
ثم قرأ :

« يستعجل بها الذي لا يؤمبون بها ، والذين آمنوا مشفقون
منها ويعلمون انها الحق » وكان هذا آخر ما سمع منه .
ثم ضرب عنقه فسقط رأسه ، واخذ لينصب يومين على
جسر بغداد ، ثم ارسل الى خراسان لانه كان له بها اصحاب ،
وطيف به في النواحي ، اما الجثة فصب عليها الزيت
واحرقت بالنار ، ولما صارت رمادا القي من أعلى مؤذنة في دجلة
وكان ذلك يوم الثلاثاء الموافق لـ ٦ ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ ،
والموافق لـ ٦ ، اذار سنة ٩٢٢ م (٣) .

-
- (١) المنحني الشخصي : ماسنيون ص ٧٨ .
(٢) تاريخ بغداد ٨ - ١٣٢ البداية والنهاية ١١ - ١٤٢ ، اخبار العلاج ص ٣٦ .
وفي اللمع للطوسي تحقيق سرور دون كلمة (له) ولعله خطأ مطبعي .
(٣) الاصل الاول ، والمنحني الشخصي ص ٧٨ والكامل ٨ - ٤٨ .

أسطورة الحلاج

الاستعارة من اسطورة المسيح - المبالفة في ذكر الحوادث
والاخبار - الخوارق او الكرامات من طبيعة العصر - الشك
بالرواة وبذاكرتهم - اضافات الى كلمات واشعار الحلاج وهي
ليست له - رفض المنهج الاستدلالي ما لم يدعمه المنهج التاريخي
في تقويم ما ينسب الى الحلاج - اسطورة الحلاج كما كتبت عند
الصوفية - المنهج الذي يتبع لدى دراسة الحلاج - اوهام الحلاج
وغايات صنع الاسطورة .

وحتى تكتمل قصة العلاج المعروضة آنفا لا بد من اضافة هذا الفصل والذي يتجاهله المؤلفون عادة ، فقصة المنشورة في الكتب القديمة يختلط فيها الواقع بالخيال ، وتترادف الاخبار العادية والخرافية ، فكان شخصية هذا الانسان اسطورة من الاساطير في مجموعة مضطربة ومتناقضة وخيالية من الحوادث التاريخية !

وقد حاولت جهدي ان ابتعد عن هذا الجو الاسطوري خلال العرض السابق ، ثم تبين لي ان معالجة تلك القصة المضطربة باخبارها لهو بحد ذاته ارضية لتلك الاسطورة ، فما هذه الشخصية الدموية الانفعالية والحيوية والمتقلبة ، وما هذه التجربة الفريدة ، وما هذا القتل البشع الا جزء من الاسطورة . فاذا اضعنا الى ذلك هذا الاختلاف في احقية هذا العقاب المؤلم وما تولده المأساة من الم في النفس او ما تبعثه من انكار شديد في قلب موحد متمزمت مما سيؤثر في بناء الاسطورة وتضخيمها . هذا عدا عن الجو الحضاري نفسه الذي كان مستعدا لتقبل الاسطورة باشكالها المختلفة .

وعناصر هذه الاسطورة عدا عن ذلك الاضطراب الواضح تمتض بعضا من اسطورة المسيح، فالجديد رضع من وقائع القديم وليس عبثا ان ذكر المسيح امام الحلاج ، والتجربة بالنسبة لنا الآن واحدة .

في ايماءة شعبية نجد الحلاج عيسى آخر، يسمع امه وهو في رحمها ناذرة بأن تجعله بعد الولادة خادما للفقراء فيذكرها بذلك بعد ثماني سنوات .

واذا قفزنا عن معجزات الحلاج الخارقة وعن المبالغات في قصته لنقف امامه بعد ان قطعت يداه وقدماه وحز رأسه واحرقت جثته ورمي الرماد بدجلة ، اذ به يعود الى الحياة قائلا لاصحابه :

« لا يهولنكم هذا فاني عائد اليكم بعد ثلاثين يوما (١) . ثم نجد انه عاد كما ذكر ، وان جماعة لقوه في طريق نهروند راكبا حمارا ، او راوه عند جسر بغداد وهو على بقرة ووجهه الى عجزها ، وهو يقول :

« ما انا الحلاج ، القي علي شبهه » ثم غاب (٢) .

وكان مورد الاسطورة يتذكر وجهة النظر الاسلامية في المسيح ، فاذا بالصورة تتبدل ، مخبرا الراوي بان المقتول لم يكن الحلاج بل شبيه به (٣) ، وانه رفع كما رفع المسيح وسعود كما سيعود المسيح (٤) .

« فأقبل بعض اصحابه يقولون : انه لم يقتل ، وانما القي شبهه على دابة ، وانه يجيء بعد اربعين يوما ، وبعضهم يقول : لقيته على حمار بطريق النهر وان وانه قال لهم : لا تكونوا مثل

(١) الاصول الاربعة : الاصل الثاني : تاريخ بغداد ٨-١٣١ .

(٢) الاصل الثاني .

(٣) البداية والنهاية ١١ - ١٤٣ .

(٤) تاريخ بغداد ٨ - ١٤١ .

هؤلاء البقر الذين يظنون اني ضريت وقتلت « (١) .
وفي جميع الاحوال زادت مياه دجلة ذاك العام لان رماد
جثة الحلاج المحروقة القيت في هذا النهر ، ففاضت مياهه
ببركة ذاك الرماد .

وحتى تزداد المقارنة بين الاسطورتين ، يوضع الحلاج
بجانب المسيح ، من حيث اختلاف الناس فيهما ، وظن بعض
الباحثين ان اساس هذه المقارنة ، اختلقها المستشرقون لكن ابن
الانير يقول :

« وبالجملة فان الناس اختلفوا فيه (الحلاج) اختلافهم في
المسيح عليه السلام فمن قائل : انه حل فيه جزء الهي ويدعي
فيه الربوبية ومن قائل : انه ولي الله تعالى وان الذي يظهر منه
من جملة كرامات الصالحين ، ومن قائل : انه مشعبذ وممخرق
وساحر كذاب ومتكهن والجن تطيعه فتأتيه بالفاكهة في غير
اوانها (٢) » .

ومع ذلك هل يمكن ان نفعل عن نظرة المستشرقين ؟ انها
لوحة جديدة ، تنتقل فيها الاسطورة لتبعث في العصر الحديث ،
فاذا بالتحقيق العلمي والدراسة الجادة ، ليست اكثر من اضافة
جديدة للاسطورة . ونحن نتقبل ان تكون شخصية الحلاج
اسطورية ، في عصر سيميائي وسحري ، كرامات الولي فيه
تتخطى كل الحدود ، لكن ما لا يتقبله الانسان ، هو ان تنبثق
الاسطورة من جديد في عصرنا العلمي الذي يقدم المنطق والعقل .
ومع ذلك ، فالاسطورة عند هؤلاء متجددة ، يمددونها بخيالهم
بما شاءوا . ولن نتعرض لتلك الآراء ها هنا ، فقد درسناها
بالتفصيل فيما بعد ، الا ان كمال الصورة يقتضي ان نضع
الشكل الذي تخيله هؤلاء ، وهو شكل اسطوري .

(١) الكامل ٨ - ٤٨ . البداية والنهاية ١١ - ١٤٣ .

(٢) الكامل ٨ - ٤٧ .

فالحلاج وعمره ثلاث عشرة سنة راح يبحث عن المعنى الرمزي الذي يرفع دعاء الروح الى الله (١) كما يرى ماسنيون . وفي حجه الاول نذر نفسه بالبقاء عاما في مكة « اقتداء بمريم التي فعلت هذا - حسبما يقوله القرآن - استعدادا لميلاد كلمة الله فيها » (٢) والحلاج وان تمثل بمحمد ، ولكن بقي عليه لاتمام الاسلام « وذلك برد القبلة الى القدس وادخال الحج في العمرة » (٣) .

ولننظر الى هذا المشرق كيف يدخل عقيدة الخلاص بواسطة المسيح . لننظر كيف يدخلها لتصبح احدي آراء الحلاج : « واذا كان محمد قد وجد وترك الوحدة الالهية محجوبة ، مطوقة ، ومسورة من كل الجهات بسور الشريعة المانع ، فما هذا الا مؤقت (!) الى يوم ات فيه تتجاوز صلوات الاولياء وتضحياتهم عن مكانه على نحو ملائكي ، متجاسرة على الدخول في نزاع مع الرحمن حتى تظفر اخيرا بان ينتهي الاسلام الى اجتماع كامل للانسانية ، وقد غفرت خطاياها » (٤)

وينقل ماسنيون اخيرا قول رجل دولة تركي بلهجة لا تخلو من التهكم لاحدي المسيحيات : « لقد حقق الحلاج اسطورة جبل الجلجلة » ويعقب على ذلك بأن الشبه بين الاثنيين يتعدى التشابه الظاهري في الحياة الى التشابه بالفهم ، وليس هذا الفهم هو محبة الله فحسب بل هو فهم كنائسي :

« ايمان متزايد بتبادل في العشق الاول بين حق الله في عبادتنا المفروضة وبين « حق عند الله » (للشفاعة) بمنحة الله للناسوت منذ زمن حكم الملائكة وهو حق تعلنه لفة

(١) المنحنى الشخصي ص ٦٤ .

(٢) المنحنى الشخصي ص ٦٥ .

(٣) المنحنى الشخصي ص ٧٤ .

(٤) المنحنى الشخصي ص ٧٤ .

موحي بها تعرضه لقساوة الاحكام الشرعية وبلغ في دعائمه
الاخير عشية عذابه حد الهوية الواضحة مع الكلمة غير
الخلوقة ، مع الكلمة الخالقة ، مع المسيح غاديا الى بستان
الامة (١) .

فهل من العلم بشيء جعل الحلاج هذا الكنائسي المؤمن
بعقيدة الخلاص ام ان جعل الحلاج كنائسيا صفحة جديدة من
الاسطورة ، ولو كان هذا في العصر الحديث؟! (٢)

ويتبع ماسنيون الكثيرون ، فنيكلسون يرى ان الحلاج متأثر
بالمسيحية السريانية ، وانه مؤمن بطبيعة المسيح الالهية ، بل
يرى ان الحلاج كان « يجد في عيسى لا في محمد المثال
الكامل للرجل الذي وصل الى مقام القربى فحل فيه روح
الله » (٣) .

وكل هذا ، وغيره كثير ، تلوين للاسطورة بألوان جديدة
لا اكثر .

- ٢ -

اذا كانت الاسطورة واضحة المعالم فيما سبق ، واذا كانت
الاستعارة من المسيحية لا ريب فيها ، واذا كان الخيال جمع حول

(١) النعي الشخصي ص ٩١ .

(٢) ان هذا الاعتناء بالحلاج ، وبالتصوفة عامة ، ومن دون ان نقل من جانبه
العلمي ، لا يخفى امره لدى المستشرقين ، وخاصة ماسنيون ، والذي
كان مستشارا في وزارة المعارف السورية . لقد دفع الاستعمار مفكره ،
مثلا دفعت السلطات الاسلامية قديما بعضا من رجالها للدفاع عن التصوف
ولترويقه كمسكن جيد يبعد الشعب عن رؤية تعاسته وضياعه .

(٣) في التصوف الاسلامي وتاريخه : نيكلسون . ترجمة ابو العلا العفيني
١٩٥٦ - القاهرة ص ١٣١ .

ولادة الحلاج وموته فدل على نفسه بجموحه ، مما يجعل الشك طريقا هينا ، وهو يتناول باحثا الامر ، بيد ان القضية تزداد تعقيدا كلما توغلنا بعيدا .

ان تضخيم الحوادث والمبالغة في وصفها انما هو من صنع الخيال ، والاسطورة ترضع من هذا الخيال ، فلا بد ان المبالغة جزء من الاسطورة . ولو قلبنا كتاب « اخبار الحلاج » لوقع بصرنا على العديد من هذه الصور الاسطورية :

فعيناه تبيكان وتقطر دما (١) ، وهو يطأطأء راسه حتى يضع خده على الارض ليبيكي ، حتى ابتلت الارض من دموعه ، وصار كالمفش عليه (٢) . وهو لا يصلي فرضا الا ويفتسل له ثم يتوضأ (٣) ، وهو يختم القران بركعة (٤) ، وكان ينوي في اول رمضان ويفطر في يوم العيد وكان يختم القران كل ليلة فسي ركعتين ، وكل يوم في مائتي ركعة (٥) . ويقول خادمه : صحبت الحلاج سبع سنين فما رأته ذاق من الادم سوى الملح والخل . . ولم ينم الليل اصلا الا سويعة من النهار (٦) . كما انه يقول تحضره كل يوم مائدة عليها الوان الطعام ، فينظر اليها ساعة ، ثم ينقرها باصبعه فترفع ولا يأكل (٧) .

وعلينا بعد ذلك ان نتصور كيف كان يعيش الحلاج دون الطعام ودون نوم وكيف يستطيع ختم القران بركعة !!
ومن بين المبالغات المقدمة ، هذه الصور المتتالية السابقة

(١) اخبار الحلاج ص ٢٤ .

(٢) ص ١٠٢ .

(٣) ص ١٩ .

(٤) ص ٦٦ .

(٥) ص ٤٦ .

(٦) ص ٤٥ .

(٧) ص ١٠٢ .

لوته ؛ حيث تضخمت الحوادث بشكل عجيب .
ففي رجليه ثلاثة عشر قيدا ، تصل الى ركبتيه وهو يصلي
مع ذلك مائة ركعة كل يوم كما ذكر ابن كثير ، ولما خرج من سجنه
خرج يتبختر في قيوده الثقال (١) منشدا اشعاره وهي ليست من
اشعاره كما سيتبين .

ولما ضرب الالف سوط ، ما استعفى ولا تاوه (٢) ، وفي
رواية اخرى ضرب تمام الالف سوط فلم يتغير لونه وما نطق
او انه كان يقول مع كل سوط : احد . احد (٣) مذكرا بالمعذبين
الاوائل في فجر الاسلام ، وهم يعذبون ليغيروا دينهم فيردون
بأحد . . احد . . على انه حاول استعمال سحره بعد السوط رقم
ستمائة ، فرفض الجلاد الانصات اليه رادا بانه يعلم الكثير عن
قدرته السحرية العجيبة ! ولما قطعت اعضاؤه وسالت دماؤه
لم يتغير لونه وما نطق كذلك (٤) . الى آخر هذه المبالغات
الاسطورية ، والتي تنبث مع غيرها من الاخبار وكأنها مثلها اخبار
عادية جدا . بيد ان قمة هذه المبالغات تبقى بدون شك دالة
على القمة في الاسطورة واعني ما ذكر ان دماء الحلاج كانت
تكتب على الارض - وهي تسفك - عبارة : الله الله ، او انا
الحق !!

- ٣ -

الف ابن جوزي كتابا جمع فيه اخبار الحلاج ليبين فيه
حيله ومخاريقه ، اي الاعيبه وكذبه واختلاقه . والتعرض هاهنا

(١) صل ٢٤ .

(٢) الاصل الاول وتاريخ بغداد ١٤٠/٨ والكامل ٤٨/٨ .

(٣) الاصل الثاني والبداية والنهاية ١٤٢/١١ .

(٤) الاصل الثاني .

لابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٦ هـ) انما لبيان الجو الاسطوري العام للحضارة ، ومن ثمة لبيان نظرة احد معارضي ومهاجمي ومكفري الحلاج . وكتابه تلبيس ابليس يوضح بعضا من هذا .

وابن جوزي احد الشيوخ المرموقين من اهل السنة ، وطريقه واضح في الجمع بين النقل والعقل ، مع تقديم النقل . فطريقه « ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وتابعوهم باحسان من غير تفسير ولا بحث عما ليس في قوة البشر ادراكه وان القرآن كلام الله غير مخلوق » (١)

والعقل وحدة لا يفيد : لا يفلح صاحب كلام ابدا ، علماء الكلام زنادقة (٢)

والتقليد وحده خطأ : اعلم ان المقلد على غير ثقة فيما يقلد فيه ، وفي التقليد ابطال لمنفعة العقل لانه انما خلق للتأمل والتدبر (٣) فيما هو بإمكانه .

وهدفه من الكتاب اظهار الحق لان التلبيس هو « اظهار الباطل في صورة الحق . والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والردىء جيدا وسببه وجود شبهه اوجبت ذلك ، وانما يدخل ابليس على الناس بقدر ما يمكنه ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم » (٤) . اذا ، فتلبيس ابليس ، هو لايضاح هذه العلاقة بين ابليس والبشر ، وهي علاقة ترد الى الميل عن العقل والنقل .

الا ان قصد الكتاب يتضح اكثر عند مطالعته ، فهو مؤلف من ٥٩ صفحة ، فاذا كانت المقدمة الى الباب الرابع ص ٨ وهي

(١) تلبيس ابليس : ابن الجوزي ، تحقيق خيرالدين علمسي . طبعة بيروت ص ٩٧ .

(٢) تلبيس ابليس : ص ٩١ .

(٣) تلبيس ابليس : ص ٩٠ .

(٤) تلبيس ابليس ص ٨ .

مدخل للكتاب ، واذا كان تلبيس ابليس على الفلاسفة والاديان والمذاهب كلها يستهلك سبعين صفحة ، واذا كان تلبيسه على العلماء والعباد والولاة يستهلك خمسين اخرى ، يبقى من الكتاب ثلاث مائة صفحة خاصة بتلبيس ابليس على الصوفية . فهو اذا كتاب يوضح العلاقة بين التصوف وابليس ، وهذه هي غايته الاساسية .

وهو يقول عنهم :

« فلبس ابليس عليهم في اشياء ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم الى ان تمكن من المتأخرين غاية التمكن » (١) وعند ذكر الحلاج يقول فيه :

« وقد اندس في الصوفية اقوام وتشبهوا بهم وشطحوا في الكرامات وادعائها واظهروا للعوام مخاريق صادوا بها قلوبهم » (٢) ثم يذكر مخاريقه التالية :

« ثم يروي انه كان يدفن خبزا وشواء وحلوى في البرية ، ثم يخرج مع جماعة ويدعي انه يستطيع اخراج الطعام على سبيل الكرامة ، فيصلي ركعتين ويأتيهم بذلك » (٣) الا انه يتعدى هذا الخداع عندما يروي عنه :

« وكان يمد يده الى الهواء ويطرح الذهب في ايدي الناس ويمخرق » (٤) .

ويبلغ تلبيس ابليس ذروته ، فالحلاج قال :

« لا يهولنكم هذا ، فاني عائد اليكم بعد ثلاثين يوما » . (٥)

فالحلاج عند بن جوزي ممخرق ، متصل بابليس او ان ابليس ركب كتفيه وساعده باتيان هذه الامور العجيبة . فابن جوزي الفقيه والظاهري يعتقد ان بقدرة الانسان ان يتلاعب بالقوانين ،

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) : تلبيس ابليس في الصفحات التالية على التوالي :

ص ١٨٢ و ص ٤٣٥ و ص ٤٣٥ . .

مثله بذلك مثل اي انسان في هذه الحضارة التي تؤمن بوجنود شخصيات اثيرية ، تؤثر وتبدل في الحياة الروحية والمادية !

- ٤ -

اذا كان مهاجمو الحلاج قد ابدعوا في تصويره كرجل زنديق فقد ابدعوا كذلك في تصويره كمشعوذ ، على ان الابداع الحقيقي انما يجب ان ينسب لتلامذته ، والاسم - بالطبع - سيتبدل ها هنا فلكل صورة خيالية ما يناسبها من الاسماء ، وهو ها هنا صاحب كرامات يخدمه الحق بعد ان كانت الجن تخدمه عند اولئك .

كان ابن عطاء يسيء الظن به لانه كان مخدوما من الجن ، وبعد سنة حسن ظنه به واذا به يصبح مخدوما من الحق . الامر واحد ، سواء اكان مخدوما من الجن او من الحق فالحلاج وابن عطاء ابنا للحضارة السحرية .

وقد كذب الحلاج بعض تلك الاخبار او الكرامات ، من ذلك تكذيبه غلاما ادعى ان الحلاج ملأ البيت من سقفه الى ارضه بالطعام ، كذبه وشتمه ، كما كذب الجنيد عندما ادعى انه ساحر ، واعتبره انسانا ظالما سيلقى جزاءه .

ولقد كان متضايقا من امر هذه الخوارق التي تنسب اليه ، من ذلك ان رجلا اعطاه مالا ليعطيه للفقراء فلم يجد احدا ساءة ذاك فوضعه في مخبئ في الجامع ، ولما كان الغد اتى ليصلي واجتمع الفقراء فتذكر المال ومد يده ليحضره فاذا بهم يقولون « انه اذا ضرب يده الى التراب صار في يديه دراهم » .

ذكر ذلك الحلاج واخذ يعدد امثلة اخرى مماثلة (١) وكأني به ينكر كل ما يذاع وما سيذاع وينشر عن كراماته او

(١) تاريخ بغداد جزء ٨ ص ١١٩ - ١٢٠ .

شعوذته سواء بسواء ، ذاكرا اصل كل قصة ونوع الالتباس بها والذي أدى الى اساءة الفهم . . .
فهل يمكن ان نعتد على مثل هذه القصة لنشك بكل هذه الحيل والشعوذات التي تملأ الصفحات ؟ ولكن منهج الشك يجب ان ينسحب حتى يشمل هذه الرواية ايضا ، فلم لا تكون موضوعة كذلك من احد محبيه الذين ارادوا تحسين صورة الحلاج امام الناظرين ؟

ثم لماذا ننكر هذا الانكار على الحلاج ؟ اليس ما كان يقوله او يفعله من طبيعة عصره ؟ وليست القضية ان نحسن ظننا في الحلاج ، فلن يضيره ان نسمي مخارقه شعوذة ، لا لاننا نأبى على عقلنا ان يفعل مثل هذا التصدي غير المعقول لقوانين الطبيعة بل لان معاصريه آمنوا بذلك سواء سموا ذلك سحرا او كرامة . وكذلك لن يضير تلك الحضارة التي آمنت بالقدرة الخارقة للطبيعة ، لن يضيرها ان يكون احد رجالها يستعمل الاعيبه او كراماته ليقنع اتباعه بانه القطب !

فالشك يجب ان يتناول القصة من اولها الى آخرها ، فلا نصدق خبرا لنكذب به خبرا آخر ، معتمدين على التناقضات بين اجزاء الرواية . ذاك لان من طبيعة الاسطورة ان تمتلىء بمثل هذه التناقضات ، فالخيال ها هنا يتحرك حرا ومن الصعوبة بمكان ان نحدد الاصل والظل ، فقد اختلطا في الصورة المتكررة التي بين ايدينا وهي صورة اسطورية قبل كل شيء .

والاسطورة العربية تدور حول القدرة الخارقة ، وهي قدرة تتلاعب بقوانين الطبيعة وتحدوها وتنفيها ، ولطالما استند الانبياء على هذه القدرة الخارقة كدليل مبدئي على نبوتهم ، ولطالما طالب المعارضون النبي الجديد اثبات نبوته باعجاز يطأطأ رؤوسهم (1) .

(1) يسمى التصوفة القدرة الخارقة عند الانبياء اعجازا ، ويسمونها كرامة عند الاولياء .

والقدرة الخارقة تسمى صنع الكرامات ها هنا ، او صنع الشعوذة والسحر ، فما هي هذه الكرامات او الشعوذة بعد هذا ؟

مر معنا خلال تعداد التهم التي وجهت اليه ان منها احياء الموتى و احياء الطير واخراج الفاكهة في غير اوانها واخراجه المسك من كمه واملائه البيت بالذهب وغيرها كثير . ويمكن تقسيمها الى النواحي التالية : الفراسة ، والرؤية عن البعد (التلباسي) والطب ، والكرامات بالمعنى وهو الاتيان بعمل خارق .

والامثلة على كل نوع من هذه عديدة :

فقد سمي بالحلاج لانه كان يكشف ما في النفوس ويخبر عما بطن في القلوب من نيات . من ذلك ان احدهم يروي انه رأى الحلاج في جامع المنصور وكان معه ديناران نوى ان يصرفهما في غير طاعة الله ، فاذا بالحلاج يقول له بأن يتصدق بهما فتحير الرجل ، فما الذي كشف سره ، واذا بالحلاج ايضا ، يزداد في كشف الاسرار قائلا :

— لا تتحير ، التصدق بهما خير مما نويت .
فقلت :

— يا شيخ هذا من اين

— كل قلب تخلى عن غير الله يرى في الغيب مكنونه وفي السر مضمونه . الخ (١)

اما الرؤية عن بعد ، فمن امثلتها ما روته الشاهدة عن امكانه رؤيتها من بعيد اذا ادت بعض الحركات والاعمال وصعدت على سطح كما مر سابقا . ونحن نعلم انه عرف الطب والكيمياء (٢) ، والى هذا يجب

(١) اخبار الحلاج ص ٧١ .

(٢) صلة تاريخ الطبري ص ٦٢ والفهرست ص ١٩٠ .

ان نرد احياء المرض ومن ذلك شفاؤه اخا لاحد منكريه ومهاجميه،
وشفاؤه الخليفة من علة المت به وكذلك شفاؤه لام الخليفة.

ثم تبقى هذه الكرامات العجيبة بعد ذلك ، وبعضها يسرد
الى الراوي واختلاط الامر عليه ، من ذلك ان ابن خفيف يذكر
عندما دخل عليه في السجن وكانت منشفة بعيدة عنه عدة
ازرع ، فمد يده واخذ المنشفة دون ان يدري الراوي هل اتت
المنشفة اليه او ان يده طالت حتى وصلت اليها (١) .

ومن هذه الكرامات ، ما صيغ حول لقبه ، فهو قد عرف
بالحلاج اشارة الى دخوله على حلاج واستطاعته بوقت قصير جدا
ان يحلج كمية هائلة من القطن (٢) .

ومنها ان بعض تلامذته طلبوا منه حلوة فرفع رأسه الى
السماء سائلا من لا تمسه الخواطر والظنون بأن يأتيه بحلوة
ترضي اصحابه ، فاذا ما مالوا عن الطريق ميلا ، اذ بالحلوة
الشهية تنتظرهم ، فأكلوا ولم يأكل ، مكررا ذلك في مكة،
محضرا حلوة لا تصنع الا في زبيد اليمن (٣) .

وعندما ادخل السجن قيد ووضعت السلاسل في عنقه
فتحرك فاذا بالحديد يتناثر ، واثار بيده الى حائط فانفتح فيه
باب (٤) . وغيرها كثير :

وكل هذه الاخبار تختلط بقصة العلاج في كتب التاريخ ،
فكان الواقع اسطورة او ان الاسطورة واقع لا يشك به ، وربما
وافق الخبر العلاج ورد ما يحدث الى عظمة شأنه ، وربما

(١) اخبار العلاج ص ١٠٣ .

(٢) اخبار العلاج ص ٨٩ .

(٣) اخبار العلاج ص ٨٥ .

(٤) اخبار العلاج ص ٩٠ .

وانظر الى بعض هذه الخوارق في اخبار العلاج ص ٢٢ و ٩١ .

والاصل الاول .

اعترض بأنه يصنع الشعوذة وان الجن تخدمه ، وفي كلا الحالتين تبقى الاسطورة خبرا ، فما يهمنا - كما قلت - ان كانت سحرا ام كرامة ، انما ما يهم هو ان هذا الجزء من الاسطورة مجموعة اخبار تروى كقصة وقعت متعاقبة مع بقية الاخبار التاريخية المترادفة خلف بعضها ، وكأن التاريخ هو هذا وتلك !

اذا يجب الاقرار ان العلاج ينتمي الى الحضارة السحرية التي كانت تعلي من الخيال ، جارية وراء سراب يتلوه سراب ، دون ان ننسى ان الموقف ليس وحيد الجانب ، فمن روى اخبار العلاج ومن سمعها هم ابناء هذه الحضارة المؤمنة بمثل هذه الاخبار ايضا . اذا ليست القضية قضية العلاج وحده ، ولا قضية من نسب اليه هذه الخوارق ، بل هي قضية حضارة آمنت بمثل هذا الحديث واكثرت من التكلم فيه .

- ٥ -

ولم يكتف الخيال بتلك التراكيب الاسطورية ، بل نجد انه لعب العابا اخرى وساقها جنبا الى جنب داخل القصة . هل تمتاز بعض العصور على غيرها في الذاكرة ، فيستطيع رجال عصر عاديين ان يحفظوا بعد القراءة الاولى نصوصا طويلة من النثر والشعر ويعجز عنها رجال عصر آخر ؟! هذا جزء جديد من الاسطورة .

ففي كتاب اخبار العلاج نجتمع باشخاص عاديين لسم يشتهروا لا بعلمهم ولا بدكائهم وهم يحفظون هذه النصوص ، وهي نصوص غريبة وصعبة ودقيقة ومملوءة بالاصطلاحات العلاجية ، تلحقها قصائد ليست بالبسيطة بمعناها او السهلة التناول . ولا ننسى ان الحفظ عدا عن كونه يأتي بعد السماع الاول هو حفظ تلقائي لا ارادي ، ويختلف عن حفظ الانسان الذي يركز انتباهه

- ١٦٧ -

بعد ان نوى الجلوس ليمتلك المقاطع التي طلب منه حفظها ، او التي رغب بان يغيبها .

من ذلك ان احدهم يراه في مقبرة فيقترب منه ويسمعه يتكلم فيحفظ عنه ، و آخر يراه يصلي فيقف خلفه منصتا ، وثالث يتبعه وهو يصلي فاذا ما سلم سمعه يتكلم فيحفظ عنه صفحة ، ورابع يراه في السوق ويروي عنه نثرا وشعرا . وكل هذا يرددونه بعد وفاته بسنوات واحدا عن واحد ! فكيف نسلم ان هذا كله للحلاج ؟!

وفي غير هذا الكتاب يتعجب المرء للسند وللراوي ، فمن ذلك ان احدهم التقى بالحلاج في سفينة فقال له : الى اين ؟ فرد بانه ذاهب الى الهند ليتعلم السحر (١) وقد ردد هذا احد السنين واعتبره اعترافا من الحلاج بانه ساحر ، فهل يمكن الوثوق بمثل هذه الرواية ؟ ثم لنفترض ان الحلاج قال ذلك ، فهل تعلم السحر ام لا ؟ ثم ما هو هذا السحر الذي تعلمه ؟ اسئلة لا جواب لها .

لقد نودي في بغداد غب مقتل الحلاج « لا تشتري كتبه ولا تباع » (٢) كما ان الوارقين احضروا وحلفوا بالا يبيعوا من كتبه ولا يشترونها (٣) .

ان الطبري عاصر الحلاج وتوفي بعده بسنة وهو يذكر خبره فيما لا يعادل صفحة ، وكان من علية القوم ومن المتصلين بالاحداث وخاصة ثورة ابن المعتز وغيرها . وهو لا يذكر الا انه كان ساحرا يدعي الحلول وانه صلب وسجن بعد ان استفوى بعض حاشية الخليفة ، على ان المراجع التالية تتوسع اتساعا ضخما في ذكر الاخبار كلما بعدت السنين ، وهناك عوامل

(١) الاصل الثاني ، وتاريخ بغداد ١٢٠/٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٤٢/١١

(٣) الاصل الاول .

عديدة في هذا التوسع .

ففي البداية كانت دماء الحلاج لا تزال تلوح امام البصائر، ثم انه بشخصيته الدموية والتي جعلته لا يعرف هدوء العالم ولا لباقة المتدين اكسبته كثيرا من الاعداء الذين كانوا يتكلمون فيه بما كان وما لم يكن .

ولم يكن مريدوه ومحبهه بأحسن حال ، فنسبوا اليه ما فعل وما لم يفعل ليحسنوا ويعظموا صورته .

وقد رأينا شاهدا على هذه الاضافات اثناء المحاكمة ، فالحلاج له رأي حول الحج استخلصه من كتاب الاخلاص للحسن البصري ، وفي المراجع التالية تضاف الى هذا الرأي آراء حول الغاء الصلاة والزكاة والصوم والعبادة ، هذا عدا عن الشك بوجود كتاب الاخلاص اصلا .

ودعك من الصور المتناقضة التي تقدمها لنا المراجع ، فهو صفر تارة من كل شيء ، وهو طبيب وكيميائي وكثير العبادة تارة اخرى .

ولا ننسى ان ابن نديم قال هذه الجملة المحيرة ، والتي تؤكد الاسطورة ايما تأكيد « **اواليس يصح في امره وامر بلسده شيء بنته** » (١) . وهي جملة تأتلف تماما مع ما اعنيه عن اسطورة الحلاج ! وهي تسمح بوضع كل خبر وكل كلمة تنسب اليه موضع التساؤل !

- ٦ -

ولعل الاسطورة حتى تكتمل صورتها بعد تلك الفوضى في جوانبها وبعد تلك المبالغات في ذكر الاخبار وبعد تلك الاستعارة من اسطورة المسيح ، لا بد ان يضاف اليها بعض الاضافات ، فينسب اليها كل او بعض ما يمت بصلة اليها او ما يخال انه يمت بصلة قربي نحوها .

(١) الفهرست : ص ١٩٠ .

وتتبدى الاسطورة هاهنا في هذه الكلمات التي نسبت الى الحلاج وهي ليست له ، والادلة على ذلك عديدة ، ويبدو ان الباب سيبقى مفتوحا !!

انشد لابن خفيف قول الحلاج :

سبحان من اظهر ناسوته سرسنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا في صورة الاكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب
فقال ابن خفيف : على ما يقول هذا لعنة الله .

فقيل له : ان هذا من شعر الحلاج .

فقال : قد يكون مقالا عليه (١) .

وابن خفيف هذا من اصدقاء الحلاج ومن محبيه ومن الذين اعتقدوا به صدق العقيدة والمطلب ، ولا بد انه كان مطلعاً على كلمات الحلاج واخباره ، سامعا لتلك الشطحات التي كان يتفوه بها ، راضيا عنها فاهما لطبيعتها، لذلك لا اعتقد بأنه انكر هذه الابيات لانه افحم بصديقه ، والا لكان اول ما بها بحيث تصبح مقبولة كما فعل غيره .

ولننظر الى خطورة الامر ، فماسنيون يعتمد على هذه الابيات ليشرح عقيدة عجيبة ينسبها الى الحلاج ، وهي كون الله له لاهوت وناسوت وان الخلق كان من هذا الناسوت كما سيرد فيما بعد عندما نتعرض لرايه في الحلاج .

هذا ولقد مرت معنا من قبل الابيات التي مطلعها :

انمي اليك نفوسا طاح شاهدها

فيما وراء الحيث بل في شاهد القدم

والمنسوبة الى الحلاج ، بينما ينسب الطوسي في اللمع (٢)

هذه الابيات للنوري احد الصوفية الذين اتصل بهم الحلاج .

(١) تاريخ بغداد ١٢٩/٨ . والبداية والنهاية ١٣٤/١١ .

(٢) اللمع ص ٣١٩ .

ويستشهد الطوسي بمكان آخر من كتابه بأحد أبيات القصيدة وينسبه الى النوري ، وهو هذا البيت :

مضى الجميع فلا عين ولا اثر مض عاد وفقدان الالى ارم (١)

والطوسي يستشهد بأقوال الحلاج في مواضع محدودة لا تتعدى الست مرات ، الا ان احد محققي الكتاب ، يذكر انه استشهد بأقوال الحلاج في اكثر من خمسين موضع دون ان يذكر اسمه (٢) ، مصطنعا تعبيراً عجيباً وهو : قال بعضهم او قال القائل . فكان ما يذكره هو لمجهول لا اكثر . بل انه يذكر ابياتاً للحلاج تحت قوله : قال القائل ، ثم يذكر ابياتاً اخرى له تحت قوله : وقال غيره . ويأتي ماسنيون بعد ذلك ، ويحقق ان كل الابيات للحلاج ، قال الطوسي : وقال بعضهم :

انا من اهوى ومن اهوى انا فاذا ابصرتني ابصرتنا
نحن روحان معا في جسد البس الله علينا البدننا

« وقال غيره :

يا منية المتمني افنيتني بك عني
اديتنسي منك حتى ظننت انك اني

« وهذه مخاطبة مخلوق لمخلوق في هواه ، فكيف لمن ادعى محبة من هو اقرب اليه من جبل الوريد » (٣) .

وليس كون الابيات لشخصين موضع الاستفراب فحسب ، بل ما يذكره عن كونها مقولة في وصف وجد انساني ، وهو يؤكد ذلك في موضع آخر من كتابه ذاكرا البيتين الاولين بعد ان يقدم لهما بقوله « وقد قال القائل في وجده بمخلوق مثله . وقد وصف وجده بمحبوبه حتى قال . . البيتين » (٤) . وعدا عن هذا ، فالبيتان الاولان يختلفان عن البيتين المذكورين في الطوايسين

(١) اللمع ص ٤٥ .

(٢) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي ص ١١ .

(٣) اللمع ص ٤٢٨ .

(٤) اللمع ص ٤٦٣ .

والمشهورين وهما :

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدننا
فاذا ابصرتني ابصرتكـه واذا ابصرتكـه ابصرتنا (١)
والاستاذ عبد الكريم اليافي يعتمد على هذه النسبة ، ليؤكد
شكه بنسبة البيتين الى الحلّاج ، بعدما بنى تشكيكه على
الاستدلال العقلي لا على الاستدلال التاريخي مثلما فعل بأبيات
اخرى تنسب للحلاج وهي لغيره . يقول :

« ويتبين من هذا الكلام الذي يعتبر هذا الشعر غزلا
انسانيا امكان الشك في نسبة البيتين » (٢) للحلاج .
وهو يمزج فيما عدا هذا رايه في اسلوب الحلّاج التنزيهي ،
مع المصادر التاريخية لينكر بعض الابيات عن الحلّاج ولينسبها
لغيره . وهو يقول :

« واذا تعرفنا اسلوب الحلّاج بهذه الامثلة ، استطعنا ان
نتردد في قبول بعض القطع المنسوبة اليه اذا كان اسلوبها يخرج
عما قرناه » (٣) .

وعلى اهمية ما يقرره ، الا ان البحث التاريخي مرجح اكثر ،
وقد وجد قصيدة كاملة في ديوان البهاء زهير المتوفي سنة
٦٥٦ هـ ، وهي منسوبة للحلاج وفيها يقول :

سكنت قلبي وفيه منك اسرار . فليهنك الدار بل فليهنك الجار
ومرت معنا الابيات المبدوءة بـ « نديمي غير منسوب . . . »
وهي منسوبة لابي النواس والخليع والحلاج ، وما سنيون نسبها
للحلاج لانها ليست في ديواني الخليع وابي النواس ، والاستاذ
اليافي يميل الى نسبتها الى الخليع مع انشاد الحلّاج لها يوم
قتله ويذكر انه وجد في محاضرات الادباء للراغب الاصبهاني انها
للحسين بن ضحاك (٤) .

(١) الطواسين ص ١٢٤ .

(٢ و ٣ و ٤) : دراسات فنية : الدكتور عبد الكريم اليافي ص ٢٨٤ - ٢٨٨ .

ومن الابيات التي ينسبها الطوسي للمجهول تلك الابيات التي مطلعها :

ياسر سر يصدق حتى يخفى على وهم كل حي (١)
وهي منسوبة للحلاج ، ومن ذلك ايضا بعض اقوال الحلاج مثل قوله « ما وحد الله غير الله » (٢) . الا انه ينسب بعض اقواله للآخرين مثل جوابه عندما سئل عن لسان الحق فقال « ما ليس للخلق اليه طريق » ، فهو ينسبه للشبلي (٦) . وغير ذلك ليس قليلا . كذلك ينسب الابيات التالية للجنيدي في معرفة الجمع والتفرقة وهي :

فتحققتك في سري فناجياك لسائسي
فاجتمعنا لمعان واقترقنا لمعائسي

ان يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد من الاحشاء داني (٤)
والقشيري في رسالته يذكر هذه الابيات على انها للجنيدي (٥) ، وليست للحلاج ايضا . ويروي ابن خلكان ان من الشعر المنسوب الى الحلاج قوله :

ارسلت تسأل عني كيف كنت ومما
لاقيت بعدك من هم وممن حزن
لا كنت ان كنت ادري كيف كنت ولا
لا كنت ادري كيف لم اكن
ويذكر ان هذين البيتين مما ينسب الى سمنون بن حمزة

-
- (١) اللمع ص ٤٣ .
 - (٢) اللمع ص ٥٦ .
 - (٣) اللمع ص ٤٣ .
 - (٤) اللمع ص ٢٨٣ .
 - (٥) الرسالة القشيرية ص ٣١ .

الزاهد وليس مما ينسب للحلاج (١) وفي ديوان الحلاج قصيدة
مطلعها هذا البيت (٢) :

انا انت بلا شك فسبحانك سبحاني
ومن المعلوم ان ابا يزيد البسطامي هو الذي قال عجز
البيت ، وهي مشهورة عنه على الرغم من ان صاحب اللمع في
دفاعه عن البسطامي ينكر ان هذا الصوفي قد تلفظ بهذه الكلمات
بالاعتماد على تحقيق اجراه في بلده ، فانكر اهل بسطام سماع
هذا الكلام منه (٣) .

وليس القصد احصاء واستقصاء كل ما يمت الى الحلاج ،
او كل ما الصق به ، وانما القصد الابانة عن ان هذا التحميل انما
يستكمل صورة الحلاج الاسطورية .

والظاهر انه بعد مأساته ، ضعفت الاصوات خوفا ، واصبح
اسم ذلك المقتول مشيرا الى الكفر والالحاد ، فاختلطت اقواله
مع اقوال غيره ، او اصطنع مؤرخو التصوف ذاك التعبير
كما مر معنا بالنسبة للطوسي موردا الاقوال دون ان ينسبها
لاحد ، وكذلك الامر بالنسبة للكلاباذي في التعرف فهو يروي
كلمات الحلاج قائلا : قال احد الكبراء (٤) . والفزالي ينسب بعض
اقوال الحلاج الى العاشق اما القشيري فترجم لكل صغير وكبير
من الصوفية وتجاهل ترجمة الحلاج وان بدأ رسالته بنقل نص
طويل له (٥) خوفا وطويا لصفحة مرة لا داعي لاعادة الحديث فيها

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ج : ١ ص ١٤٧ . والبداية والنهاية ج ١١
ص ١٣٤ .

(٢) ديوان الحلاج ص ١٢١ .

(٣) اللمع ص ٤٧٣ .

(٤) الحلاج شهيد التصوف الاسلامي : سرور ص ١١ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٤ . قال : عن السلمي قال الحسين بن منصور :
الزم الكل الحدث لان القدم له . الخ .

من جديد ، وبعمله هذا يعترف بقيمة الحلاج على نحو مستتر !
وفي اخبار الحلاج نجد ان من كلماته هذا القول « ما رأيت
شيئا الا ورأيت الله فيه » (١) وقد نسبه المقدسي الى الحلاج،
الا انه يقال انه من وضع عامر بن عبد قيس او من وضع محمد
ابن واسع (٢) .

وكتاب اخبار الحلاج حققه المستشرق ماسنيون والمستشرق
كراوس ، وقد ثبتا في بدايته شواهد الكتاب، فنجد ان جامع
الاخبار ليس واحدا ، كما نجد في احدي هذه الشواهد من يقول
بان اكثر ما في الكتاب من اسانيد لا اصل له .

والقطع من الرقم ٦٥ الى ٧٤ مجهول ترتيبها الاصلي او
مشكوك فيه . وهناك ملحق للكتاب اضيف الى الاصل في بعض
النسخ وهي مأخوذة عن طبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمي
الذي ذكر احدي وعشرين كلمة للحلاج اكثرها بدون اسناد .

وانه لخطر جدا ان نستعمل الاستدلال العقلي وحده دون
النهج التاريخي ، فما اسهل على اي باحث ان يتبنى وجهة نظر
معينة بالاعتماد على بعض النصوص ثم ينكر بعدها كل ما يتعارض
مع وجهة نظره دون اي اساس تاريخي . وفي قضية الحلاج
يصبح الامر اشد خطورة خاصة وانه كان تلك الشخصية الدموية
المضطربة وكان صاحب تلك التجربة ذات الجوانب المتعددة . وقد
روي لابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل ابياتا لابن عربي
على انها للحلاج فرد بارجاع الابيات لابن عربي ، ثم لم يجد مانعا
من نسبتها الى الحلاج لانها تأتلف مع مذهبه كما يراه ابن تيمية!
وفي هذا يتبين موضع الخطر في الاستدلال العقلي دون اتباع
النهج التاريخي والذي يجب ان يسانده .

ونورد اخيرا رأيا لابي العلاء المعري حول ذلك، فبعد ما

(١) اخبار الحلاج ص ١٦ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٧ .

يقارب القرن والنصف من موت الحلاج ذكر هذا في رسالة الففران
ما يلي :

«وكم افتري للحلاج ، والكذب كثير الخلاج ، وجميع
ما ينسب اليه مما لم تجر العادة بمثله ، فانه المين الحنبريت ، لا
اصدق به ولو كريت . . الخ » (١) .

- ٧ -

والاسطورة تتكامل عندما تعالج كأسطورة ، وفي كل ما
سبق ، كانت اسطورة الحلاج نائمة في مجموعة من الاخبار
التاريخية ، لكن الاسطورة بلغت قممها عندما تناولها عدد من
المتصوفة الشعراء وغيرهم بالشكل الاسطوري لا بالشكل
التاريخي وشتان بين الامرين .

الف العطار ملحمة حلاجية وجعل الحلاج وليا من الاولياء
فيها ، فهو الشهيد العالمي الذي قدم للعالم صورة الولاية الكبرى
وقد بلغت اوجها في تضحية حربية مليئة بالرجولة مليئة
بالالهام (٢) .

كما ان ابن الخير الف ملحمة حلاجية اخرى اعتبر فيها
الموت على مصلب الحلاج ميزة الابطال (٣) .

واراد الرومي تعظيم فريد الدين العطار فانشد بأن روح
الحلاج تجلت في العطار بعد ان رأى ان الحلاج بلغ قمة الكمال
والبطولة ، كالنسر في طرفة عين (٤) .

والحافظ الشيرازي يشتهي ان يصلب مثل الحلاج : ان

(١) رسالة الففران : تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . ص ٥٣ دار
العارف مصر .

(٢ و ٣ و ٤) ماخوذ عن النحنى الشخصي للاستيون ص ٨٥-٨٨ وعن كتاب
الحلاج لطفه عبد الباقي سرور ص ١٩ و ٢٠ .

تصلبني الله ، فان دمي يخط على الارض : انا الحق مثل منصور
الحلاج (١) .

والحلاج في الشعر التركي هو الولي الاكبر ، والمزمسار
الرئيسي عند المولوية يدعى باسمه : ناي منصور (٢) . والفرقة
الصوفية المسماة البكتاشية التي هيمنت على تركية والبانية
قرونا عديدة ترجع بأصولها الى الحلاج ، كما ان الفرقة المسلمانية
تأخذ العديد من آراء الحلاج في مذهبها (٣) .

وهكذا - اذا - انتقلت الاخبار التاريخية المضطربة والمبالغ
بها والمضاف اليها والمشوهة لتصبح الاسطورة كاملة ترمز الى
البطولة الخارقة ، والتضحية السامية رافعة الحلاج الى مستوى
الاولياء ، وهو مستوى يعلو على الرجال ، بل انه عند هذه
المجموعة من الصوفية المذكورين اعلاه يعلو على الانبياء انفسهم .
وهكذا تكتمل لوحة الحلاج الاسطورية !

ولا بأس من ان ننقل عن جلال الدين الرومي رايه في الحلاج
وقد وضعه في تلك اللوحة الاسطورية .

والرومي يعتقد - كما يقول نيكلسون - ان الله يفش بنفسه
في ثياب الانبياء والاولياء كنوح وابراهيم وعيسى ومحمد وعلي
الى ان يقول في ملحمة عن الحلاج :

لا . . بل هو الذي تبدى في ثياب البشر فصاح « انا الحق »
هو الذي رفع على المشنقة ، ليس هو المنصور
وان ظن الحمقى انه المنصور (٤) .

ولا بأس كذلك ان ننقل حتى تتكامل هذه الصورة، فالنفس
عند هؤلاء الصوفية ترمز الى الشر والشهوة ، وقد روى ان نفس

(١ و ٢ و ٣) ماخوذ عن المنحنى الشخصي لاسنيون ص ٨٥-٨٨ وعن كتاب
الحلاج لطف عبد الباقي سرور ص ١٩ و ٢٠ .

(٤) الصوفية في الاسلام : نيكلسون ترجمة نود الدين شريبه ١٥١ ص ١٤٤ .
وهو ترجمة الكتاب المعنون « بالصوفية المسلمون » .

الحلاج رؤيت وهي تعدو خلفه في صورة كلب وفي حالات اخرى
ظهرت في صورة الفأر او الثعبان (١) !!

- ٨ -

ثم هذه التجربة الصوفية بحد ذاتها الا تصب بمجموعة
الاهام والخيالات التي تخترعها في الاسطورة ؟ فما هي هذه
الاحوال ؟ وما هي هذه الرؤية ؟ ورؤية من ؟ عن يتحدث الحلاج
وسواه ؟ ومع من يقيمون هذه العلاقة ؟ ما هي هذه الذات المحبوبة؟
وما هو هذا الحب ؟!

ان محاولة فهم فكر ما من داخله ، كقضية تاريخية ، امر
ضروري ، لكشف جوانب هذا الفكر وقدراته على حل اشكالاته
ومدى اسهامه بتطوير الاطروحات الموضوعية ، ولابراز الطريف او
المتناقض في اعماقه . ان هذه المحاولة للنظر في داخل الفكر هو
ما تقوم هذه الدراسة بصنعه في الفصول الاخرى . بيد ان هذه
المحاولة وحدها لا تكفي ، لاننا لسنا امام مجرد مذهب او نظرية
فكرية ، نتفق او نختلف معها الى هذا الحد او ذاك . بل نحن مع
الحلاج امام نظرية وتجربة ممارسة . فالسلوك يحدد النظرية ، ثم
النظرية تحدد السلوك ، بعملية تفاعل مستمرة ، وهو ما يقتضي
الى جانب النظر في داخل ما يقوله النظر خارجيا في كل دعواه .
ذلك لانه امر مفهوم ان ينشئ الفكر مجموعة من الافكار ، كما فعل
افلاطون او ارسطو مثلا ، فنحلل هذه الافكار ، بحسب عصره . بيد
ان هذا الامر لا يكفي ان كان المفكر يتحدث عن وجود علاقات مع
هذه الافكار التي اوجدها ، وهو ما يفعله الحلاج . ان هذا السلوك
يستدعي ان نحتكم الى امر اخر خارج افكاره ، لنفهم ذاك السلوك ،
وتلك العلاقة ! ولو كان هذا الحكم هو اراء عصر اخر ، هو عصرنا ،

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

اننا نفهم ان يتوهم الحلاج وسواه وجود ذات او ذوات : جن ، ملائكة ، اله ، من الانوار . لكن ما يجب ان نتوقف امامه اكثر هو هذه الدعوى الضخمة عن اقامة العلاقة العاطفية مع تلك الذات . فكيف تقام علاقة مع ذات متوهمة ؟ واي حب هو هذا الحب بين الانسان وما يخترعه خياله ؟!

ليس من مهمتنا ان ننتقص من صدق تجربة الحلاج ، ولا ان نشكك بعاطفته ، بل على العكس تماما ، فالتجربة تنضح بالصدق ، والتجربة الفريدة لا تدع مجالا الا للتعاطف مع هذا الوجدان المعبود ومع هذا القلب الموله والمضنى ! وهو ما عايناه ونحن ننظر في داخل التجربة . لكن هذا لا يكفي ، ما دام السؤال قائما ، وما دامت تلك الذات المعشوقة مجرد وهم . فكيف يقام حب مع ذات متوهمة ، وكيف يتم الحديث عن وجود علاقة عشق مع هذه الذات المتوهمة ؟ وما هي هذه اللذات وهذه السعادة التي تحصل ما دام جوهر الامر كله وهم في وهم ؟!

ان هذه التجربة العجيبة بما تنسجه من علاقات وهمية ، وبما تخترعه من خيالات وصور خرافية انما تشكل جزءا من هذه الاسطورة ! اليست الاسطورة في احد جوانبها ممثلة لهذا التضاد مع عقلنا العلمي والفكري والمنطقي ، على الرغم من منطقتها الداخلي الخاص ؟! اليست الاسطورة في احد جوانبها الاخرى هذا الحديث عن موجودات لا وجود واقعي لها الا في الازهان ؟ وماذا تفعل التجربة الصوفية غير نقل الصور الذهنية المتخيلة الى العالم الخارجي ، فاذا بالصور تصبح ذاتا ، وتصبح الذات حياة و ارادة وعلما ، ومن ثمة تقام العلاقات مع هذه الذات بذاك الشكل الفريد والعجيب !

اننا عندما ننظر الى تجربة الحلاج من الخارج ، لا نستطيع الا فهم امر واحد ، وهو ان هذه الشخصية عاشت وهما ضخما ، وانه ترك خياله يفوض خلف احلام لا حدود لها ولا نهاية لها ، مبدعا على نحو رائع ، حياة وادبا وفكرا ، يتغذون من الوهم وفي الوهم

لا اكثر . واذا كانت اثار ذلك الخيال الرائعة ، حياة ونتاجا ، تلفت النظر ، لاهميتها ، ولروعتها ، ولعجائبيتها ، فان كل هذا يجب الا ينسينا الجو الاسطوري الذي ولدها بقيامه على خداع النفس - وعند سواه على خداع الاخرين - وبقيامها على التضاد مع المعقولة ، وبقيامها على حركية خيال مجنح لا ضابط له .

- ٩ -

بينت نوعية شخصية الحلاج الغريبة ، ثم اوضحت تجربته الصوفية الاغرب بمطالبها الشاهقة ، ثم عرضت ما لابس حياته من اضطراب في جو سياسي اكثر اضطرابا وعلاقته بهذا الجو الغريب وكيف قتل تلك القتلة الشنيعة وما رافق ذلك كله من تناقضات مختلفة .

وفي هذا الفصل بينت الجو الاسطوري الذي احاط بالحلاج ، في مولده وموته ، وفي المبالغات العجيبة التي تلتصق بحياته وموته ثم بينت افكار الحلاج لبعض ما نسب اليه من افعال خارقة او كرامات ، رافضا ان نعتبر مثل هذه القصة دليلا على ان كل ما نسب الى الحلاج مرفوض ، لان منهج الشك يفسج المجال للشك بهذه القصة ، مثلما انفسح للشك بالكرامات نفسها ، فالجو الحضاري الذي عاشه اصداؤه واعدائه جو لا يرفض هذا التصدي السحري وابنت عن مجالات الاضافة التي لحقت بأقواله ومخلفاته والتي يمكن ان تسحب على غير ذلك مما ينسب اليه . واوضحت صورة ذلك الجو المحيط برواية اخباره واسانيدها العجيبة ، والتي كتبت بعد مدة من موته . ثم تعرضت للاسطورة وقد كتبت بأقلام عظماء الصوفية .

وسوف نتعرض فيما يلي من الكتاب الى الاراء الكثيرة والمختلفة اشد الاختلاف حول الحلاج ، لا لضعف في الاستنتاج ولا لضعف في المراجع ولا جريا مع الراي الخاص المزين بأحسن

- ١٨٠ -

زينة فحسب ، بل لان الحلاج موضوع في التاريخ على هذا النحو كأنه لغز تاريخي . اما كتابه الطواسين الذي سنحلله اخيرا ، فهو من اغرب الكتب ، فنيكلسون يقول فيه : العبارات مبهمه غامضة فياضة بالعاطفة واسلوبه رمزي اصطلاحي شديد الخفاء حتى ان الانسان ليتعذر عليه فهم مقصود مؤلفه مع الاستعانة بالشرح الفارسي الموضوع عليه ولا يكاد يظفر في بعض الاحيان الا بمجرد التخمين عن المراد في بعض الفقرات (١) .

والذي اريد ان انتهي اليه ، ان كل هذا يشكل الاسطورة تماما . واذا اراد انسان ان يدرس الحلاج فيجب عليه الا ينسى انه امام اسطورة لا غير .

ولو اعتمدنا على المقصود من الاسطورة ، ما استفربنا ذلك ابداء، فما الاسطورة ان لم تكن تلك القصة الواقعية التي لعب الخيال بها، فاختلط ما صنع الخيال بما صنع الواقع واذا بهما قصة واحدة . وما قصة الحلاج الا قصة هذه الاسطورة . واية دراسة تبتعد عن هذا لا بد لها ان تغمض عينيها متغافلة عن ذكر اشياء واشياء مما يعارض هذه الدراسة ولا بد لها ان تتجاهل الكثير مما لا يوافق النهج الذي انتهت اليه . وما اسهل ان نحلل بعض النصوص لتبني موقفا من الحلاج ثم نبحت عما يؤيده ، لنذكر بعدها ان كل ما لا يتفق مع ما وصلنا اليه مشكوك فيه ! وما اسهل ان ننظر ببساطة الى الحلاج ، فنعتقد به خيرا ، فما هو الا رجل اراد التخلق بأخلاق الله ، لنهمل بعد ذلك كل ما لا يتفق مع هذا . وما اسهل ان نفسر ابياته واشعاره كما نشاء لنجعله مؤمنا بنظرية توصلنا الى انه آمن بها كما يفعل العديدون !!

ومن الضعف في البحث ان نكتفي بالشك . واذا كان النهج الشكي يقودنا الى الطعن في معظم ما يروي عن الحلاج ، فان ما يكمل هذا المنهج ، بل ان ما يقود اليه هو الاعتراف بأن الحلاج

(١) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ١٢٢ .

اسطورة . فقسته تركيب اختلط ببعضه خلال سنين طويلة ، واي دراسة تحاول ان تبتعد عن هذا التركيب ، لتنسق صورة عين العلاج لا يد لها من ان تشوه صورته سواء باهمال ما يناقضها وهذا ما فعله منزهو العلاج او بصنع صورة مشوهة متناقضة مثلما فعل المستشرقون ، متغافلين عن الجو الاسطوري وعن تركيب الاسطورة !

ثم ان هذه الاسطورة المتنامية ، انما تكونت لتؤدي غايات محددة عند صانعيها ؟ ولما كان هؤلاء يمثلون اتجاهات متعارضة، كانت تلك الغايات متعددة ومتنوعة .

ولعل اهم هذه الغايات هي **تحقيق الخلاص بالوهم وبالخيال**، في مجتمع اعتبر هذه المسافة الشاسعة بين الطبقات قدرا جبريا لا مناص ، ولا فكاك منه . فيجيء الحديث عن الكرامات وعن اللذات الروحية السماوية هو الفكاك نفسه وهو الطريق الوحيد للتخلص من بؤس طاحن . وليس عبثا ان تكون معظم تلك الكرامات دائرة حول جلب الطعام وتنزيل الدنانير والذهب ، لان هذه الكرامات صنعت كغذاء للمتضورين جوعا ، ولباسا وماوي للمنهكين من دون لباس او سقف . وليس عبثا ان يكون هذا الحديث عن اللذات الروحية كشيء لا يتصور لشدة ولعظمة رونقها، وان يكون الطريق اليها هو المزيد من الجوع والبؤس والالم والعذاب ! فكان هذا الفكر المخادع لم يكتف بتزيين الفقر والافتراب والعذاب للحصول على اللذات الوهمية ! منظر الحلول الخيالية ، دافعا للطبقة الطحونة نحوها ، بعيدا عن الحلول الصحيحة، ليؤمن للدعاة هذا الفكر المخادع واسانئده مزيدا من السطوة والسلطة ومزيدا من الغنى ، ومؤمنا للشعب مزيدا من الفقر والبؤس .

ان تغذية اسطورة العلاج وانماءها عبر السنين ، وحتى هذه الايام كما مر معنا - لا يقصد منه مجرد بحث عقلي ينكر دعاوي العلاج او يدافع عنها ، بل يقصد تضخيم صورة لتكون **نهوذجا**، يجب على الانظار ان تلتفت اليها لتسير وراءها بحثا عن الحلول

الوهمية . وليس عبثا ان تجيء قصة الحلاج في الوقت الذي تدهور فيه الوضع الاجتماعي والسياسي ، وان تتضخم القصة لتنبو كأسطورة في الاوقات المتتالية والتي تفاقم فيها الوضع الاجتماعي والسياسي ، بل والفكري . وليس عبثا ان يجد الحلاج مكانا له في قصر الخليفة ، بما هو عليه من ضعة الشأن ، وكان هذا الخليفة الباحث عن سطة اجداده ونفوذهم وجد بأوهام الحلاج واخباره السلوى والطريق امام جبروت وزرائه وعساكره !

واذا كان الحكم قد وقف اخيرا ضد الحلاج ، فان وقوفه لم يكن الا الهاء وتسكينا للنزعات المحافظة - على مستوى عصرهما - وارضاء لها بكبش فداء والمسئود من قبل احدى الجماعات المتصارعة على الحكم والنفوذ - اي جماعة قصر الخليفة . وهو ما سيطوي ليبقى الصراع صراعا مذهبيا ، يتعلق بتنزيه الله وبأوامره . وحتى المعارضون ، وهم يضخمون ويشاركون بنسج الاسطورة ، والذين استكانوا الى الاسلام كآفق ايدولوجي محدد بالنزعة المحافظة ، وجدوا بهذا النسج تثبيتا لادوارهم التي يمكن ان يهزها هذا المتمرد ، وهم بعملهم يثبتون عاقبة اي خارج عن الفهم الذي عينوه ، وهو الفهم الذي يحقق مصالحهم ويرسخها . كما تصوروا . ان الغاية النهائية تجمعهم بالحلاج ، الا ان الطريق يفرق بينهم وبينه . ان طريقه يعني زوال كل الاطر التي يحيون بها ، وزوال لكل المعايير التي بها كانوا ، ليسود معيار لا ضابط له ولا قانون يركن اليه . ان طريقه الوجداني ، والذي يحصل المضامين الى مشاعر باطنية يقطع الطريق امام كل الطريق التقليدية المستكينة وراء وتابة طقسية دورية ، ان طريق الحلاج تعني انفتاحا غير محدود ، توصل الى الفوضى ، وتمنع قيام اي طريق او اي نظام . وهم بطبيعة الحال لا يستطيعون نفي الطريق وغايتها لان مثل هذا النفي يمسهم ايضا . ولذا لوثوا الحلاج وحزفوا القدسية عنه بنسب اموره الى الشيطان والجن ، ليبقوا مهمة نسب الامور الى الله والملائكة من اختصاصهم ، وبذلك وعلى الرغم من

معارضتهم ، يشكون عونا اضافيا للمؤيدين ، بنسج الاسطورة،
على عكس ما يوحون به ، بربط رفضهم بعقلانية مشكوك بها!
وكما كررنا : سيان في هذه الاسطورة التصدي للعقل بالاعتماد
على الجن او على الملائكة لخرق ما هو طبيعي وعقلاني !
ولا يخرج الحلج ، بما هو شخصية تاريخية ، عن كل هذا،
فهو المشارك الاول بنسج اسطوره ، بتطلعاته الخيالية الغريبة ،
وبتعلقه بأوهام صنعها وصدقها وعاش بها اغرب حياة، متنقلا عبر
تجربته واحواله من وهم الى وهم ، مقتنعا بهذا الهرب الدائم
من يؤسه الى خيالات غير معقولة وغير مفهومة . ماذا يريد ؟ ماذا
يطلب ؟ انه لا يريد الا هذا الهرب من العقل ومن الواقع ، ليصنع
عواالم في رأسه ، وليحيل هذه العواالم المتصورة والمركبة والمبدعة
الى واقع جديد يعوضه عن عالمه الحقيقي والواقعي .
واذا كان السجن قد شده بعنف الى الواقع المرير الذي خرق
عينيه ، فان نتائج هذه المعاناه وتفاصيلها ظلمت سرا من الاسرار .
لتضيف الى الاسطورة مزيدا من الاشارات التي توسع وتؤكد مدلول
هذه الاسطورة . ان اخفاء هذا الجانب يحقق مرة اخرى جزءا من
الغايات التي انبثقت ونمت من اجلها الاسطورة .

أصدقائه ومؤيدوه

ناقلو أخباره - تلامذته وقتل بعضهم - هيكل - ابن عفيف
- مؤيدوه : النصر اباذي - محمد بن خفيف - القاضي ابن سريج
- الحريري - الشبلي وخوفه - ضيق الحلاج من جفاء الشبلي -
ابن عطاء وتأيدته وتضحيته بنفسه -

رجال التصوف - الحلاج عارف رباني - المدرسة السالمية -
الغزالي - الشعراني وتأويله لكلمات الحلاج - رأي اصحاب وحدة
الوجود في الحلاج - رأي ابن عربي .

أ
رأي السهروردي - تحليله للتجربة الصوفية - الحلاج
من الحكماء - الفلسفة الاشراقية - تعليل قتل الحلاج صوفيا .

انعكست مأساة الحلاج على العديد من الاسماء التي ترد في قصته ، فاذا بحياة بعضهم هي الاخرى مأساة مؤلمة ، فحرية الفكر شبه مفقودة على عكس ما يتبجح به الكثيرون ، وصور الاضطهاد الديني لا تحصى !

هناك ناقلو اخباره وهم كثرة ، ومن بينهم اثنان خدماه ولزماء طويلا وقصا بعد قتله الكثير من حكاياه وكراماته ، وهما ابراهيم ابن فاتك ، وابراهيم الحلواني .

وهناك بعض التلامذة الذين رووا عنه كمجذب الواسطي . بيد ان بعض تلامذته لعبوا دورا هاما في حياته كالشمري الذي شهد اثناء المحاكمة والذي كان من السذاجة والبلاهة حدا كبيرا ، ولعله تخاذل تحت التعذيب . ومن تلامذته كذلك القنائي السذي كان يعبد الحلاج ، وابن حماد الذي استتر (١) . وقد احضر ثلاثة من اتباع الحلاج وطلب اليهم الرجوع فابوا وهم : حيدرة ، والشعراني ، وابن منصور ، وذلك سنة ٣١٢ فضربت اعناقهم

(١) تاريخ بغداد ٨-١٢٠ .

وصلبوا (٢) . وهناك ايضا هيكل الذي يذكر ماسنيون عنه انه عذب الى جوار الحلاج (٣) . ولا ننسى ان نذكر هنا نصر القشوري الحاجب لدى الخليفة والذي حاول بكل جهده مساعدة الحلاج خلال السجن كما مر معنا سابقا .

وتوجد شخصية غريبة واخبارها غامضة وهي شخصية : ابن عفيف الاشعري المتطرف والذي لا يثبت امام علمه احد من الناس كما يذكر ماسنيون ، والذي ادخل على الحلاج فتأثر به ، وقال : «لم ار في حياتي عالما ربانيا سوى هذا الشهيد» والذي رفض ترك الحلاج ، فعذب وحمل الى غرفة اخرى وعلق من قدميه الى السقف (٤) .

على ان هناك اشخاصا كانوا على علاقة بالحلاج ولا ندري الا البسيط عنهم ايضا ومن هؤلاء ابراهيم بن محمد النصر اباضي النيسبوري الذي قال : ان كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج (٥) ، ومنهم محمد بن خفيف الشيرازي الذي قال : الحسين ابن منصور عالم رباني (٦) . وابن خفيف هذا مر ذكره فيما مضى معنا ، اذ كان احد الدين سمح لهم بالدخول على الحلاج سرا ، فوصف لنا حاله هناك ، كما ان ابن خفيف دافع عن الحلاج عندما هاجمه الجنيد مرة . . ففي مجلس خاص اطال الجنيد اللسان في الحلاج ونسبه الى السحر والشعبذة والنيرنج ، فرد عليه ابن خفيف :

« يا شيخ لا تطول ، ليست اجابة الدعاء والاخبار عن الاسرار من النيرنجات والشعبذة والسحر » « فاتفق القوم على

(٢) صلة تاريخ الطبري ص ٧٤ .

(٣) المنحنى الشخصي : ماسنيون .

(٤) الحلاج : سرور ص ١٥٠ .

(٥) تاريخ بغداد ٨-١٢١ والبداية والنهاية ١١-١٣٢ .

(٦) تاريخ بغداد ٨-١١٢ والبداية والنهاية ١١-١٣٢ .

تصديق ابن خفيف « (١) .
وهناك القاضي ابن سريج المار ذكره سابقا كذلك والذي
رفض محاكمة الحلاج قبل سنة ٢٩٦ هـ ، لان الهام الحلاج ليس
من اختصاص المحاكم ، وقد قال لما سمع بفتوى قتل الحلاج :
- لعلمهم نسوا قول الله تعالى (اتقتلون رجلا ان يقول ربي
الله) (٢) .

كما انه قال لما سئل عن رأيه بالحلاج :
- اما انا ، اراه حافظا للقران عالما به ماهرا في الفقه
عالما بالحديث وال اخبار والسنن صائما الدهر قائما الليل يعظ
ويبكي ويتكلم بكلام لا افهمه فلا احكم بكفره (٣) .
على ان الاضطراب يسود اخبار ابن سريج ، فقد روى
القاضي ابن خلكان انه كان يقول في الحلاج :

- هذا رجل خفي عني حاله وما اقول فيه شيئا (٤) .
وقد مر معنا كيف ان الحلاج استشهد بثلاثة من صحبه
ممن يؤيدونه ، وهم الحريري الذي انكر اراء الحلاج ، والشبلي
الذي قال : من يقول بهذا يمنع ، وابن عطاء الذي وافقه .
وصداقة الشبلي للحلاج صداقة قوية على ما يبدو قبل
المحنة ، كما ان الذي يبدو ان الشبلي كان يحترم الحلاج ويقدمه .
من ذلك انه يروي انه دخل على الحلاج فقال له :
- يا شيخ كيف الطريق الى الله ؟
فقال :

- خطوتين ، وقد وصلت . اضرب بالدنيا وجه عشاقها
ونسلم الاخرة الى اربابها (٥) .

-
- (١) اخبار الحلاج ص ٩٢ .
 - (٢) اخبار الحلاج ص ١٠٦ .
 - (٣) اخبار الحلاج ص ١٠٦ .
 - (٤) وفيات الاعميان ج ١ ص ١٢٧ .
 - (٥) اخبار الحلاج ص ١٠٧ .

ثم بدأ الخلاف بينهما عندما بدأ الحلاج يصرخ في شوارع بغداد باكيا ومعبرا عن حبه ، ولعل قصة الخلاف تبدأ ما بين سنة ٢٩٢ هـ وسنة ٢٩٦ هـ عندما « قال الحلاج انا الله فرد عليه الشبلي انت بالله ستفسد خشبة ، فنفض كفه في وجهه وانشد:

يا سر سر يدق حتى يجل عن وصف كل حي

وظاهرا باطنا تنبدي من كل شيء لكل شيء.

يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري اذا الي (١)

فالشبلي كان يقف على المشارف نفسها التي وقف عليها الحلاج ، وله شطحاته العديدة كذلك ، ومنها قوله : انا الوقت ووقتي عزيز وليس في الوقت غيري وانا محق . وقوله لاصحابه مروا : انا معكم ، حيثما كنتم انتم في رعايتي وما كلايتي (٢) وغيرهما كثير . غير ان الشبلي خاف وتستر لما شعر بالمحنة ، اما الحلاج فاستمر غير آبه ، ولذلك رفض الشبلي تأييد اقوال صاحبه اثناء المحاكمة ، ولما صلب الحلاج اتاه قائلا :

— الم ننهك عن العالمين (٣) .

وهذا يثبت ان الحوار كان مستمرا بينهما، وان الشبلي كان يقول له افعل ما شئت ، وقل ما شئت بسرك ولا تفضح نفسك فتلقى الجزاء ، فيرد الحلاج هازئا من خوف صاحبه ، رافضا السكوت والصمت. وقد قال الشبلي ايضا :

— كنت انا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا انه اظهر

وكتمت (٤) .

غير ان الشبلي وان ظل بعد وفاة الحلاج متسترا ولم يخرج من فيه تلك الشطحات التي يؤاخذ عليها ، الا انه شعر

(١) اخبار الحلاج ص ١٢٠ .

(٢) الاصل الثاني وتاريخ بغداد ٨-١٢١ والبداية والنهاية ١١-١٣٢ .

(٣) المراجع السابقة وهي الصفحات نفسها .

(٤) المنحنى الشخصي : ماسنيون .

بالندامة لوقفه من صديقه ، فقال معليا صوته في رفع شان
صديقه :

- ان استشهاد الحلاج درة من الجمال المحرم ، يجب
اخفاؤها وليس زاد خلود يوزع على الجميع (١) .

وفي قصة شعبية توجد صورة حية وجميلة تصور موقف
الحلاج من الشبلي ، وتعطينا فكرة عن اله لجفاء صديقه .

فعندما صلب الحلاج ، اخذ المجتمعون يرمونه بالحجارة
وهو يضحك غير مبال برجمهم ، عند ذلك تقدم الشبلي ورماه
بوردة ، فاذا بالحسين يتأوه قائلا :

- آه يا سيدي ، قتلني وآلمني !

فقال الشبلي متعجبا :

- يا حسين رجموك بالحجارة ، فما قلت آه ، والقيت عليك
وردة ، فتألمت منها !

فاجابه :

- يا سيدي ، اما علمت ان جفاء الحبيب شديد (٢) .

على ان الصداقة الرائعة هي صداقة ابي العباس ابن العطاء،
الذي ظل وفيا لصاحبه حتى النهاية ، معطيا صورة مأساوية
لتلك الاخوة النادرة .

(١) انظر ص ٤٧٨-٤٩٢ من اللمع للطوسي وفيها العديد من شطحات لشبلي

وتاويلات المؤلف لها لتصبح كلمات ظاهرها مسشنع وباطنها صحيح ومستقيم .

(٢) وهو كتاب شعبي مطبوع في حلب باسم الطلاج ، واكثر ما في الكتاب

موضوع وخاصة الاشعار ، والقصة تذكر ان رامي الوردة هو الجنيد وهذا

غير معقول لان الجنيد كره الحلاج وجافاه منذ البداية وقد توفي سنة ٢٩٨

على حين صلب الحلاج سنة ٣٠١ وصلب مرة اخرى قبل قتله سنة ٣٠٩ ،

فلا يصدق القول على اي منهما . وبالمقارنة مع المراجع نجد ان رامي

الوردة هو الشبلي .

لا نعرف متى بدأت تلك الصداقة بين الحلاج وابن عطاء،
أما ما نعرفه فهو أن ابن عطاء كان يسمع أخبار الحلاج فلا ترضيه
مسيئاً الظن به ، ثم غير رأيه بعد سنة وتأكد له أن الحلاج صادق
النفس وطاهر العقيدة بل ومقدماً في الأحوال .

سئل عنه فقال :

- ذاك مخدوم من الجن .

وبعد سنة قال :

- ذاك من الحق .

وقال :

- ليس كل من صحبنا يبقى معنا ، فيمكننا أن نشرفه على

الأحوال (١) .

ولا بد أنهما التقيا وتفاهما وقدر كل منهما صاحبه ، لتبدأ
بينهما مودة ومحبة نرى صورة عنها في رسالتين بعثهما الحلاج
إليه من السجن .

كتب في الأولى :

« أما بعد ، فاني لا ادري ما اقول . ان ذكرت بركم لسم
انته الى كنهه ، وان ذكرت جفاءكم لم ابلغ الحقيقة . بدت لنا
باديات قريكم فأحرقتنا واذهلتنا عن وجود حبكم . ثم عطف
والف مما ضيع واتلف ، ومنع عن وجود طعم التلف وكأني وقد
تخرقت الانوار ، وتهتكت الاستار ، وظهر ما بطن وبطن ما ظهر ،
وليس لي من خبر ، ومن لم يزل كما يزل . وختم الكتاب وعنون
بقوله :

حمى به وله عليك يا من اشارتنا اليك
روحان ضمهما الهوى فيما يليك وفي يديك (٢) .

(١) الاصل الاول ، وتاريخ بغداد ٨-١٢١ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١١٨ .

وكتب في الثانية :

« اطال الله لي حيوتك ، واعدمني وفاتك ، على احسن ما جرى به قدر ، ونطق به خير . مع ما ان لك في قلبي من لواجج اسرار محبتك ، وافانين ذخائر مودتك ، ما لا يترجمه كتاب ، ولا يحصيه حساب ، ولا يفنيه عتاب . وفي ذلك اقول :

كتبت ولم اكتب اليك وانما

كتبت الى روعي بغير كتاب

وذلك ان الروح لا فرق بينها

وبين محبتها بفصل خطاب

وكل كتاب صادر منك وارد

اليك بلا رد الجواب جوابي (١)

وكان ابن عطاء يزور الحلاج في سجنه ، وقد ائتمنه الحلاج

على كتبه ، ولما زاره ابن خفيف في السجن قال له :

— قل لابي العباس ابن عطاء احتفظ بتلك الرقاع (٢) .

وهذا يدل على عظمة تلك المحبة التي يكنها الحلاج له ، بيد ان

الصدقة العظيمة حقا هي بوجود المودة والمحبة المتبادلة ، وقد

كان ابن عطاء يكن للحلاج مثل تلك المودة والمحبة .

انشد له ابيات صديقه التي مطلعها :

اريدك لا اريدك للثواب . . .

فرد معبرا عن تجربة صديقه :

« قال هذا مما تزايد به عذاب الشفف وهيام الكلف

واحتراق الاسف فاذا صفا ودفا علا الى مشرب عذاب وهاطل

من الحق دائم سكب » (٣) .

بيد ان قمة تلك الصداقة كانت لما استشهد به الحلاج

(١) اخبار الحلاج ص ١١٩ .

(٢) اخبار الحلاج ص ١٠٢ .

(٣) البداية والنهاية ١١-١٢٤ .

في محاكمة حول قضية الجمع فوافقه قائلا :

ـ القول ما يقول الحلاج (١) .

او وافقه بقوله :

ـ هذا اعتقاد صحيح ، وانا اعتقد هذا الاعتقاد ، ومن لايعتقد

هذا فهو لا اعتقاد له (٢) .

ورفعة هذا الجواب وعظمته ، انما تتبدى بالمقارنة مع مواقف غيره ممن تخاذل ، وكان ابن عطاء بنبل نفسه راى كم كان صديقه بحاجة الى سند في محنته ، شاعرا بان الصداقة الحققة هي صداقة يوم المحنة ويوم الضيق ، فلم يخف ولم يرهب بل تكلم بما في نفسه ، وان كان مدركا لما في موقفه من خطر على نفسه ، غير انه لم يعبأ ، رافضا ان يترك صديقه وحيدا . بل ان علو همته ورفعة نفسه تتبدى اكثر في هذا الشعور الانساني والاجتماعي بعد ان احضر للوزير حامد ليساله عن موقفه ذلك ، فاذا بنفسه المحبة للعدل والاخلاص تندفع قوية في موقف اخاذ اذ رد بعد ان جلس في الصدر (٣) ، مخاطبا الوزير بقوله :

« مالك ولهذا ، عليك بما نصبت له من اخذ اموال الناس وظلمهم وقتلهم ، فمالك ولكلام هؤلاء السادة من الاولياء » (٤) .
فامر الوزير بضرب شذقيه ، وكأنه يريد اسكات هذا الفم الذي تجرا وفضح سلوكه المخزي . ثم امر بنزع خفيه وان يضرب بهما على راسه ، فما زال يفعل به ذلك حتى سال الدم مسن منخريه . ثم امر بسجنه وتعذيبه فمات بعد سبعة ايام من شدة التعذيب (٥) .

وهي صورة رائعة لانها صورة الصداقة الوفية ، ولانها

(١) البداية والنهاية ١١-١٢٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٨-١٢٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٨-١٢٨ .

(٤ و ٥) البداية والنهاية ١١-١٢٩ .

صورة الانسانية المخلصة والمسؤولة ، التي تجابه الباطل وتقف في وجهه ولو كان الثمن غاليا ، وهي صورة رائعة كذلك لانها صورة الصوفي الواعي ، والذي ، وان توجه الى الله ، يعرف متى يشور من اجل الحق ، وروعة ذلك تظهر اذا قورنت بتلك الصور المخزية عن المتصوفة الجهلاء المتكسبين على حساب الحق مما به ستمتلىء بطون الكتب في الحديث عن حياتهم البائسة والضعيفة والمتخاذلة .

اثمن الحلاج صديقه على كتبه ظانا بأن الظلم سينالـه فيقتل، وليس من امين على كنزه الا هذا الوفي ، الا ان الوفاء وعظمة الصداقة ، قدمت ابن عطاء ليقتل قبل صاحبه ، وفي ذلك تضحية ما بعدها تضحية .

- ٣ -

ويمكن ان نضيف بعد ذلك اسماء العديدين من رجال التصوف من القرون التالية ، على اختلاف حالاتهم ومواقفهم واساليبهم في ابداء تأييدهم واعجابهم بالحلاج بعد ان سموه شهيد التصوف . وكانت مأساة الحلاج قد جعلتهم يتسترون ويخفون احوالهم وراء قناع كثيف من الغموض والرمسوز والاصطلاحات .

ونستطيع ان نميز عدة فئات من الصوفية في موقفهم منه، ففئة تحدثت عنه كعارف رباني دون موارد مثل عبدالرحمن السلمى احد اقطاب المدرسة السالمية ، والمتأثرة بافكار الحلاج، والظاهر اننا ندين في معرفتنا للحلاج كثيرا الى السلمى بما كتبه عنه في طبقات الصوفية وتاريخ الصوفية . كما ان السلمى يدين للحلاج - لتأثره به وخاصة في تفسيره الخاص للقرآن .

بيد ان العديد من المتصوفة تبنا موقف الشبلي في عدم

- ١٩٤ -

افشاء الاسرار الالهية خلال التجارب الخاصة . ويبرز هنا الغزالي ، فهو يقر بحالة القرب ، الا انه يستنكر التعبير عنها :

« وكلام العشاق في حالة السكر يطوى ولا يحكى » (١)
كما انه يستنكر ان يوصف هذا الوضع بالحلول او الاتحاد او الاتصال لان ما يحدث لم يكن حقيقة اتحاد بل شبه اتحاد (٢) وهذا الشبه عنده هو توحيد ، وهذا يصدق تماما على حالة الحلاج .

ويهاجم الغزالي القول بالحلول ويرى انه « حماقة ويعرف بطلانه بالنظر العقلي » (٣) والغزالي اعلى من النظر العقلي وظل طيلة حياته يؤلف على اساسه الى ان اخرج « المنقذ من الضلال » حيث اعلى به التجربة الصوفية على ما عداها من التجارب . وفي المنقذ يختصر موقفه المعروض آنفا ، فحسب من وصل الى مقام القرب « ان لا يزيد على ان يقول : وكان ما كان مما لست اذكره (٤) .

فهو موقف الشبلي نفسه ، الا ان الدافع مختلف ، فالشبلي وصل الى حالة القربى ثم خاف فتستر ، اما الغزالي فيعبر عن حياته الروحية وافكاره التي ايد بها هذا النوع من التصوف دون ان يستطيع العبور الى حالة القرب هذه . ويتضح ذلك اكثر في الاعتبارات التي يسوقها للتدليل على رأيه :

(١ و ٢) مشكاة الانوار ص ٥٨٥٧ .

(٣) فضائح الباطنية ص ١٠٩ ويكرر ذلك عرضا في معرض الحديث عن الحلول. وذكرت هذا لابين ان الغزالي يذكر قول الحلاج «انا الحق» على انه حاول هامنا ، بينما في المشكاة يذكر القول نفسه على انه اتحاد ، على حين انه

في المنقذ يعرض ثلاثة طوائف هي الاتحاد والحلول والوصول ص ١٠٤ .

(٤) المنقذ من الضلال ص ١٠٥ طبعة دمشق .

« واما الشطح فنعني به صنفين من الكلام احدهما بعض الصوفية . احدهما الدعاوي العريضة في العشق مع الله تعالى والوصول الى المعنى عن الاعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم الى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب، فيقولون قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلج الذي صلب لاجل اطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله : انا الحق . وبما حكى عن ابي يزيد البسطامي انه قال : سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم حزره في العوام حتى ترك جماعة من اهل الفلاحة فلاحتهم واطهروا مثل هذه الدعاوى . فان هذا الكلام يستلذه الطبع اذ فيه البطالة من الاعمال مع تركية النفس يدرك المقامات والاحوال فلا تعجز الاغبياء عن دعوى ذلك لانفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . الخ (١) .

ويتضح رأي الغزالي ، وهو هذا المتكلم الاشعري الذي ساد على الصوفي ، بقوله « كل قرب وراءه قرب ، والوصول الى اقصى درجات القرب محال » (٢) وفي حديثه عن الفناء عن كل عدا الله يذكر ان السكران لا خبر له من سكره ، ثم يتابع قائلا : « ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وان دام لم تطفئه القوة البشرية ، وربما اضطرب تحت اعبائه اضطرابا تهلك به نفسه » (٣) .

ومن كان هذا رايه ، فلا بد له من مهاجمة الحلج ، والغزالي بأسلوبه الاثيق يصف التجربة الصوفية اجمل وصف، ويميز دقائقها اجمل تمييز ، ليهاجم الحلج في النهاية :
« فقلب الغاني له صورة وله وجود ، والوجود هو ما

(١) احياء علوم الدين ج ١ ص ٤٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٢) احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٨ ايضا .

يحضر فيه من امر الله ، مثل المرآة لونها او وجودها بما هو حاضر فيها . كما قال الشاعر :

رق الزجاج ورقى الخمر فتشابهها فتشاكل الامر
فكأنما خمر ، ولا قندح وكأنما قندح ولا خمر
ويتابع بعد ذلك قوله :

« وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة ، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال : انا الحق ، وحوله يدندن كلام النصراني في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت او تدرعها بها او حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم ، وهو غلو محض يضاهي من يحكم على المرآة بصورة الخمرة اذا ظهر فيها لسون الحمراء من مقابلها واذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة فلنرجع الى الغرض فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المجموعات « (١) .

وهو يكرر بعض هذا الكلام في مكان آخر ، ويصف الحلج بالفرور وذلك خلال عرضه لاقسام المغترين من الصوفية . يقول « فمن قال : انا الحق ، مفتر ، ويعتبر الامر محل الالتباس : اذ المتجلي يلتبس بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن انه لون المرآة . . الخ » (٢)

فهو موقف متشدد ، تبنى فيه الفزالي ، راي لا يحيد عنه ، وهو ان الحلج في دعواه مخطيء ومفرور ، وصرخته انا الحق حلول او اتحاد مرفوض . الا انه لا يجد بدا من الاعتذار عنه ، مدعيًا ان ذلك التباسا .

- ٤ -

يرى نيكلسون ان دفاع الصوفية عن الحلج اتخذ ثلاثة

(١) احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨٥ .

اشكال لايعاده عن وصمة الحلول وهذه الاشكال هي :

١ - لم يرتكب الحلاج اثما . انما اخطأ بافشاء السر ، ولذا عوقب . وهو شكل عرضناه سابقا .

٢ - ان الحلاج قال ما قال تحت تأثير نشوة الجذب ، وقد ظن انه متحد بالذات الالهية ، ولم يتحد ، في الحقيقة بغير صفة من صفاتها الربانية ، ونضيف ان هذا رأي تلامذة ابن عربي

٣ - اراد الحلاج ان يعلن ان لا انفصال بين الحق والخلق من حيث ان الوجدانية شاملة للوجود كله . فانا ونحن وانت شيء واحد . وليس الحلاج هو الذي صاح انا الحق ، ولكنه الله نفسه تكلم بلسان الحلاج مثلما تكلم الى موسى بلسان الشجرة التي اشتعلت نارا ، وقد ارتضى اكثر الصوفية هذا الحل على انه يمثل المذهب الحلاجي الصحيح (١) . الا انه يجب ان نضيف موضحين ان هؤلاء الصوفية هم بعض صوفية القرون المتأخرن ممن آمنوا بوحدة الوجود .

لكن هذا الحد من نيكلسون يضيق المجال كثيرا ، فهناك فئات عديدة حاولت ان تنظر الى الامر خارجا عن هذه الاشكال . فالشعراني لجأ الى تأويل كلام الحلاج المثير للشبهات ، من ذلك تأويله لبيت الحلاج الذي يقول فيه :

على دين الصليب يكون موتي ولا البطحا اريد ولا المدينة
فالشعراني يقول مؤولا :

« اما الحلاج فلم يثبت عنه ما يوجب القتل ، وما نقل عنه يصح تأويله نحو قوله (على دين الصليب يكون موتي) ومراده انه يموت على دين نفسه ، فانه هو الصليب وكأنه يقول : انا اموت على دين الاسلام واثار الى انه يموت مصلوبا » (٢) .
واقتبس الشعراني - كما يقول ماستيون - هذا من شرح

(١) الصوفية في الاسلام : نيكلسون ص ١٤٢ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٨٢ عن لطائف المنن ج ٢ ص ٨٤ .

أبي العباس المرسي الذي قال :
« وايش في هذا ، وما الدين الا الوقت والحين ، فقال
تعالى (مالك يوم الدين) وهو اشارة الى انه يموت مصلوبا
وكذلك كان (١) .

وبالطبع ، هذا تأويل مغالى به ، فالحلاج صرح انه يريد
الموت كافرا ، وكان يحرض الناس على قتله . اما قال :
كفرت بدين الله والكفر واجب لدى وعند المسلمين قبيح (٢)
لقد كان كارها لنفسه التي تفصله عن ربه ، ممتلئا بالشعور
بالخطيئة ، شاعرا بذاك الالتباس المر الذي كان عليه ان يخوض
فيه .

وعدا عن الشعراني هناك ابن عربي الذي يخطيء الحلاج
مثما يخطيء المسيحيين في نظرتهم الى عيسى . فالوحدة
الحقيقية عنده هي وحدة الاعيان الثابتة - المثل عند افلاطون -
باسماء الله وصفاته ، فالله هو الوجود ، ولا معنى بعد ذلك
لايقاف لفظة الله على شخص معين سواء اكان الحلاج ام
المسيح .

وهذا بالطبع لم يؤخر ابن عربي عن جعل الحلاج من
الكاشفين ذوي التجارب الصافية ، فهو يقول بأسلوبه الغريب :
« لم ار متحدا اوثق وفتق وبربه نطق » واقسم بالشفق
والليل وما وسق والقمر اذا اتسق » وركب « طبقا على
طبق » (٣) .

- ٥ -

واخيرا يمكن ان نعرض رأي السهروردي ، والذي قتل مثل

(١) اخبار الحلاج ص ١٤١ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٩٩ .

(٣) مقدمة الطواسين لاسنيون : الترجمة العربية .

الحلاج بسبب آرائه . والسهرووردي أوقف نفسه في اتجاهين ،
الاول مقدمة ينقد بها المذهب الارسطي كما وضع عند تلامذته من
المشائين وخاصة من كان من المسلمين منهم كإبن سينا ، بانبا مذهبها
خاصا في الالهيات والمنطق ، وهي اول محاولة جادة لنقد منطق
ارسطو مما سوف يكرره الزمان بعد عدة قرون . وهذه المقدمة
تؤدي به الى الحكمة الاثراقية ، وهي مذهب في التصوف ،
وطريق في الوقت نفسه . .

يقول السهروردي :

« واما اصحاب السلوك فانهم جربوا في انفسهم انوار ملذة
غاية اللذة وهم في حياتهم الدنياوية ، فللمبتدىء نور خاطف ،
وللمتوسط نور متوسط ، وللفاضل نور طامس ومشاهسدة
علوية » (١)

ويهمنا بالطبع الفئة الاخيرة التي منها الحلاج ، والسهرووردي
يرى هذا :

« واما النور الطامس الذي يجر الى الموت الاصفر (!) فاخر
من صح اخباره عنه من طبقة يونان الحكيم المعظم افلاطون ،
ومن عظماء من انضبط منه وبقي اسمه في التواريخ هرمس ، وفي
الفهلويين مالك الطين المسمى بكيومرت ، وكذا من شيعتسه
اقريدون وكيخسروا .

« واما انوار السلوك في هذه الازمنة القريبة : فخميسرة
الفيثاغوريين وقعت الى ارض اخميم (ذي النون المصري) ومنه
نزلت الى سيار تستر (سهل التستري) وشيعته واما خميسرة
الخررواويين في السلوك فهي نازلة الى سيار بسطام (ابن يزيد
البيسطامي) ومن بعده الى فتى البيضاء (الحلاج) ومن بعدهم الى
سيار امل وخرقان (ابا الحسن الخرقاني) . . الخ (٢) . وهو

(١ و ٢) : مجموعة في الحكمة الالهية : شهاب الدين السهروردي : تحقيق
كوربن، المجلد الاول : ص ٥٠١ و ٥٠٢ ، استانبول عام ١٩٤٥ .

نص عجيب ، وليس الان مجال للنظر في مدى تأثير التصوف بالفيثاغورية والافلاطونية والمذاهب الايرانية ، وان كان من الهام دراسة هذه السلسلة المذكورة في خط واحد ، على ان ما يهمنا اعتبار السهروردي لفتى البيضاء من هؤلاء الحكماء الالهيين .
فاذا كان هذا ، فماذا يعني السهروردي بهذا السلوك او النور الطامس او الحكمة الاشرافية او الالهية ؟

ان النفس الانسانية عنده تصبح كاملة اذا امتلكت قوى نظرية وقوى عملية ضرورية لها ولكمالها :

« اما النظرية فبادراك المعقولات ، واما العملية فباستعلاء النفس على البدن » (١) وهو بذلك يختصر الامر اختصارا واضحا . لكن ماذا يحدث باستعلاء النفس على البدن المرتبطة به ؟ مر انه تحدث انوارا لذيدة ، ومشاهدة علوية ، لكن ومرة ثانية - ما هذه الانوار والمشاهد ؟ يرد السهروردي بقوله :

« وظن بعض الناس ان هذه الامور انما عيننا بها اتصال النفس واتحادها بالمبدع ، وقد برهن ان الاتحاد محال الا ان يعنى بالاتحاد حالة روحانية تليق بالمفارقات لا يفهم منها اتصال جرمي وامتزاج ولا بطلان احدي الهويتين . فحينئذ لا مشاحة .

« وتوهم الحلول نقص ، بل لا مانع من امر اقوله وهو ان النفس وان لم تكن في البدن ، ولكن لما كان بينها وبين البدن علاقة شديدة اشارت الى البدن بـ « انا » حتى اكثر النفوس نسيت انفسها وظنت ان هويتها هي البدن ، فكذلك لا مانع عن ان يحصل للنفس مع المبادئ علاقة شوقية نورية لاهوتية يحكم عليها شعاع قيومي طامس يمحو عنها الالتفات الى شيء بحيث تشير الى مبدئها بـ انا اشارة روحانية ، فتستغرق الآليات في النور الاقهر الغير المتناهي » (٢)

(١) المرجع السابق ص ٥٠٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٢ .

وهذا النص يعتبر اوضح ما كتب في شرح تجربته وفكره،
ولعل عمق فهم السهروردي لقول الحلاج « انا الحق » انما يعود
الى كونه كان في التجربة نفسها .

وهذا النص سيفيدنا كثيرا في الفصول الآتية عندما نعرض
للآراء الحديثة في الحلاج ولعرض آراء الحلاج نفسه بما فيه من
وضوح ودقة في تمييز الامور المتشابهة والتي تولد الالتباس .
فعنده ان الاتحاد لا يكون الا بين الماديات ذوات الجرم، فهي
وحدها التي يصح بها امتزاج واتحاد تبطل به احدى الهويتين او
ينتج عنه مادة جديدة مما هو معروف بالكيما .

وهو يرى ان هذه الحالة الشوقية حالة روحية لذا لا يصح
ان تصفها بالاتحاد او غيره ، ثم يعقب على ذلك عندما يرى بانه
ليس المهم هو الكلمات ، بقدر ما تقصد بهذه الكلمات ، فان
اردت سمها اتحادا على ان تعني بالاتحاد حالة روحية لا يوجد
بها اتصال جرمي او امتزاج ، وبمعنى اخر الا يتصل الله بجسد
الانسان ويمتزج به ، ولكن هل الله مادة حتى يمتزج ؟

ثم لننظر في تشبيهه : ان النفس والجسد ملتصقان ، وهو
يعتقد ان النفس ليست بالجسد ، ومع ذلك فان كثيرا من
الناس ينحطون الى مستوى الحيوانات فلا يعرفون من انهم الا
هذا الجسد ، فاذا سئلوا عن انفسهم اشاروا الى اجسادهم .
وكذا الامر بمن يقول : انا الله ، كما فعل الحلاج ، لان الله
مفارق للنفس ولكن بسبب العلاقة القائمة بين الحلاج وربه،
نسي نفسه وارتقى الى ان يشير الى الله اذا اراد التعبير عن
نفسه او الاشارة اليها .

قال الحلاج :

بيني وبينك اني يزاحمني

فارفع بانيك اني من البيبين

ويروى ان السهروردي قال : بهذه الآنية التي طلب الحلاج

رفعها تصرف الاغيار في دمه ، ولذلك قال السلف : الحلاج

نصف رجل وذلك انه لم ترفع له الآية بالمعنى فرفعت له صورة (١) .

والسهروردي يعذره في فضحه الاسرار ، لانه ليس بإمكانه الا ان يتكلم عن هواه وحبه . وعلى كل فكما يقول : « كل مشتاق نال شيئاً وفاته شيء » .

ويرى كوربان ان كثرة ورود النصوص العلاجية في ثنايا مؤلفات السهروردي تشهد ان هذا الاخير كان شاعرا بالرابطة التي تربط بين حالة العلاج وحالته ، ولا يمكن فهم شخصية السهروردي وانتاجه دون هذه الرابطة (٢) .

وقد اكثر السهروردي من ترديد هذا الدعاء وهو للخلاج :
فأين ذاتك عني حيث كنت ارى ؟

فقد تبين ذاتي حيث لا اين

وقال السهروردي انا الشمس مشيرا الى عبارة الخلاج انا الحق . ويشترح هذا المستشرق المقصود بأنا بقوله :
« بيد ان هذه الصيغة تعد كفرا (لا انا الا انا) الا عند من تذوقوا معنى هذه المقالات التي حاولنا تحليل ما فيها وعرفوا كيف ان (انا) تجاوزا من الله الى الانسان ، اي تقال على الانسان على سبيل المجاز » .

ويذكر ان السهروردي يفسر حالة الوجد التي اعترت النبي ليلة المعراج وفقا للتفسير الذي قال به الخلاج :
« فالنبي وقد وقف حواسه البدنية خلف وراءه رغائبه ومشاعره وطاف بالحرم المحدود بقاب قوسين (ماهية الله الصافية) . ولكن هذا النطاق حد . ولذا فان النبي لا ينفذ الماهية

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) راجع : السهروردي المقتول : مؤسس المذهب الاشرافي : هنري كوربان .
والمقال ترجمة الاستاذ عبد الرحمن بدوي في كتابه شخصيات قلقة في
الاسلام ص ١١٥ الى ١٢٢ .

الالهية الا برؤية روحية ، والا لكان الحد مكانيا بدوره ، وهذا هو بدون شك تفسير المدرسة الواحدية، ولكن بقاء السهروردي على مذهب الحلاج في هذه المسألة الرئيسية ليحدد مكانه في تاريخ التصوف في الاسلام .

ويختتم كوربان بحثه القيم بقوله :

« لقد بدأ السهروردي حياته الروحية بنعمة من شعر

الحلاج في التوحيد :

لانوار نور النور في الخلق انوار

وللسر في سر المسرين اسرار

وقضى عمره يوقع عليها متنوع الالجان » .

مكفرو الحلاج

عمرو بن عثمان المكي - الجنيد - القاضي محمد بن داود -
المتصوفة السنيين - المؤرخون : ابن نديم - ابن كثير - عريب بن
سعد - ابن تيمية - اختلاف راي ابن تيمية في ابي يزيد والحلاج
وان كانت التجربة واحدة - ابن تيمية يتبع راي الشيوخ القدماء
في الحلاج - ويرفض اي تأويل لكلمات الحلاج - السبب لم يكن
بحالة شطح واصطلام .

آراء ابن تيمية في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود - آراء
ابن تيمية في انواع الفناء .

اول من برز كعدو ومنكر للحلاج هو عمرو بن عثمان ،
وقد ذكرت كيف كانت عداوتهما شخصية ، ثم انتهت فكرية
مملوءة بالكره والرغبة بالتشهير ، ولا داعي للتكرار .
كذلك ذكرت عداوة الجنيد له ، وكيف انه لم يستوعب تعدي
الحلاج له فسماه بالمدعي وبالساحر المشعوذ وبرجل المطامع .
اما النهر جوري الذي هاجمه ، فرجع عن عدائه بعد ذلك
عندما تأكد له انه ليس ساحرا بل صاحب كرامات ! ليروي
لنا بعضا من قصص زهد الحلاج في مكة .
ثم يبرز القاضي محمد بن داود ، والذي طالب بمحاكمة
الحلاج فوقف ابن سراج بوجهه وكان هذا القاضي والفقيه ينكر
على الحلاج شأن اي فقيه في موقفه من الصوفية .
وقد قال :

« ان كان ما انزل الله على نبيه حقا ، فما يقول الحلاج
باطل » (١)

(١) شذرات الذهب ج ، ص ٥٦ .

وبعد ذلك انكر الحلاج العديد من المتصوفة السنيين
ومشايخ الطرق ، الذين التزموا آداب الشريعة .

ومن البديهي ان يكون النزاع شديدا بين رجال الفقه وهذا
النوع من التصوف الذي فرغ له الحلاج بكيانه كله ، فالفقيه
لا يحتمل سماع اقواله ، لذا يسرع الى تكفيره ، لما في ظاهر
الامر من هدم للدين ، مثل ابن تيمية .

وبعض المؤرخين اشتدوا في هجومهم على الحلاج كابن نديم
في فهرست ، وعريب بن سعد في الصلة ، وابن كثير في البداية
والنهاية .

ونستطيع ان نأخذ من بين جميع هؤلاء ابن تيمية كممثل
لهم جميعا في حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض ولا
روايات متناقضة .

وخلاصة رايه في الحلاج هي كما يلي :

الحلاج قتل بدعوى الحلول والاتحاد وغير ذلك من الالحاد
كقوله انا الله وقوله : اله في السماء واله في الارض . وقتله
واجب ، ذلك ان حالته لا تنطبق على حالة غائب العقل ، والذي
يكون في حالة فناء وسكر ، والذي لا يؤاخذ ولا يعاقب على
اقواله على الرغم من خطأ هذه الاقوال ، ذلك ان الحلاج انما
كان يتكلم بهذا في كتبه المصنفة ويقولوه وهو حاضر
ويقظان (١) ، ثم يقول بطريقته الحازمة :

« وقد تقدم ان غيبة العقل تكون عذرا في رفع القلم (يقصد
التكليف) وكذلك الشبهة التي ترفع معها قيام الحججة ، قد
تكون عذرا في الظاهر .

« فهذا لو فرض لم يجر ان يقال قتل ظلما . ولا يقال
موافق له على اعتقاده ولا يشهد بما لا يعلم : فكيف اذا كان الامر
بخلاف ذلك ، وغاية السلم المؤمن اذا عذر الحلاج ان يدعي فيه

(١) انظر الى راي ابن تيمية في مجموعة فتاويه - الجزء الثاني ص ٤٨٠-٤٨٨ .

الاصطلام والشبهة . واما ان يوافقه على ما قتل عليه ، فهذا حال ، اهل الزندقة والالحاد ، وكذلك من لم يجوز قتل مثله فهو مارق من دين الاسلام (١) .

فالحلاج لم يكن في حالة الاصطلام ، ولو فرضنا انه كان ، فلا يجوز موافقته على رايه ، وكذلك لا يجوز القول بانه قتل ظلما . وكلا الامرين كفر يقتل صاحبيهما لهما .

« ونحن انما علينا ان نعرف التوحيد الذي امرنا به ونعرف طريق الله الذي امرنا به ، وقد علمنا بكليهما ان ما قاله الحلاج باطل وانه يجب قتل مثله .

« واما نفس الشخص المعين ، هل كان في الباطن له امر يغفر الله له به من توبة او غيرها ؟ فهذا امر الى الله ولا حاجة لاحد الى العلم بحقيقة ذلك والله اعلم » (٢) .

ولذلك ، وبما ان الباطن لله ، والظاهر لنا ، فابن تيمية يرفض قبول توبة الحلاج التي المحنا اليها ، وهي ترد الى الله ، لان اكثر الفقهاء لم يقبلوا توبة الزنديق .

فالحلاج زنديق ، ومن يوافق زنديق ، ومن يقول قتل ظلما زنديق ، ومن يحسن الظن به فيقول قتله واجب في الظاهر ، فيكون القاتل مجاهد ، والمقتول فهو مخطيء (٣) . ولا نسدرى درجة المخطيء في ابواب الزندقة عند ابن تيمية !

كما انه يكذب احوال الحلاج قبل قتله مثل فرحه ، وكذلك كتابة دمه على الارض اثناء القتل : الله ، الله . فذاك كذب .

فهو رأي جاد ، لا يعرف الانحراف ، صارم بوضوحه ، شديد بالتزامه الحدود دون التواء او تأويل .

ومع ذلك سوف اعرض لجوانب اخرى في رأي ابن تيمية،

(١) المرجع السابق ص ٤٨٧ الجزء الثاني .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٨٣ .

مقارننا حكمه في الحلاج وحكمه في ابي يزيد البسطامي . ولا بأس قبل ذلك ان نعرض رأي ابن تيمية ، وهو هذا الامام والفقير الحنبلي في حالة الوجد الصوفية او الاصطلام ، كنموذج لرأي الفقهاء . وسنجد انه رغم كل شيء يحترم هذه الحالة راسما لها حدودها ، يقول:

« واما اذا ظهر مثل هذا القول (انا الله وما شاكلها) عن غائب العقل قد رفع عنه القلم (التكليف) لكونه مصطلما في حال من احوال الفناء والسكر ، فهذا تكلم به في حال رفع عنه فيهما القلم ، فالقول وان كان باطلا ، لكن القائل غير مؤاخذ .

ومثل هذا يعرض ابن استولى عليه سلطان الحب . مع ضعف العقل كما يقال ، ان محبوبا القى نفسه في اليم ، قالقى المحب نفسه خلفه . فقال : انا وقعت ، فلم وقعت خلفي قال : عنيت بك عني ، فظننت انك انى .

« وقد ينتهي بعض الناس الى مقام يغيب فيه بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته .

« فاذا ذهب تمييز هذا ، وصار غائب العقل - بحيث يرفع عنه القلم - لم يكن معاقبا على ما تكلم به في هذه الحال ، مع العلم بانه خطأ وضلال ، وانه حال ناقص لا يكون لاولياء الله» (١) . فهو رأي فقيه يرضى عن حالة الاصطلام وان كان يعتبرها نقصا بيد انه يكرر بان صاحبها لا يعاقب ، لانه ليس بكافر ، ولو قال : انا الله . وموقفه من ابي يزيد دليل على ذلك . ولعل صورة تزمته الجاف انما تعود لشدته مع صوفية عصره المؤمنين بوحدة الوجود .

واساس اختلاف رايه في ابي يزيد والحلاج ، اتباعه للشيوخ القدامى في الاعتذار لابي يزيد ، مدعيا بان حاله حالة اصطلام ، بينما يكفر الحلاج لانه كان يقول كلماته فسي

(١) المرجع السابق ص ٤٨٢ .

اصطلامه ويقظته ، ولكن التاريخ يذكر كلمات لابي يزيد في حالات عادية ، ثم لا ننسى بان كليهما كانا يدعيان بأنهم ما اصبحا في حالة اصطلام مستمر .

لننظر كيف يقيم رايه فيهما ، يقول في ابي يزيد :

« ... لكن بعض ذوي الاحوال قد يحصل له في حالة الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوي والسكر وجد بلا تمييز ، فقد يقول في تلك الحال ، سبحاني ، او ما في الجبة الا الله او نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن ابي يزيد البسطامي او غيره من الاصحاء ، وكلمات السكر تطوى ولا تروى ولا تؤدي اذا لم يكن سكره بسبب محذور من عباده او وجه منهي عنه » (١) .

على حين يقول في الحلاج :

« الحلاج قتل بدعوى الحلول والاتحاد وغير ذلك من الالحاد كقوله : «انا الله» وقوله «اله في السماء واله في الارض» وكذلك اتباعه كفار ، لان الحلاجيين يعتقدون كما يعتقد النصارى في المسيح ، والغالية في علي والحاكمة في الحاكم ، وهم مباحون الدم كما ابيح دم الحلاج » (٢) .

ويزداد التعجب عندما يدافع عن ابي يزيد مبررا اقواله في مكان اخر ، فيذكر قوله : سبحاني ، وما في الجبة الا الله ، ثم يضيف كلمة الحلاج : انا الحق حاسبا الكلمة للبسطامي ، معتبرا ذلك حالة فناء لا يؤاخذ عليها ، على حين يحل دم الحلاج بسببها (٣) فنظرته العامة للحلاج ادت به الى هذا الموقف ، فكلمة انا الحق ان قالها البسطامي فهو معذور وان قالها الحلاج فهو ليس في حالة اصطلام ، لذا فهو كافر . هذا عدا عن اتباعه القدامى في ذلك ، انه يذكر :

(١) المرجع السابق ص ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٦ .

« ان مشايخ القرن اخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيرها » (١) وفي مكان اخر يذكر قول السلمي بأن اكثر المشايخ اخرجوه عن الطريق ، ثم يقول بأن القشيري لم يذكره في رسالته دون ان ينتبه الى ذلك النص الطويل وتلك الاستشهادات التي يوردها القشيري دون اسم الحلاج ، ليغلق باب الفتنة . ثم يعقب ابن تيمية قائلا :

« وما نعلم ان احدا من ائمة المسلمين ذكر الحلاج بخير لا من العلماء ولا من المشايخ » (٢) وهذا مغالاة من الشيخ . كما انه غالى انسجاما مع موقفه العام من الحلاج عندما عرض لشعره ، فهو يجد ان معناها يؤدي الى اقوال بعضها صادق وبعضها كافر فيأخذ صفة الكفر ويلصقها بالحلاج ، ويرفض ان يكون المعنى الذي يريده الحلاج صادقا فهو يسيء الظن به ، ويرفض ان يجد اية مميزة خير فيه ، فكل ما نطق به الحلاج كفر ولو كان يحتمل معنى مقبولا (٣) كما انه لا يقبل اي تأويل او تفسير يحسن الظن بهذا الزنديق ، وهو يذكر في مجموعة الرسائل والمسائل ان شخصا اتاه زاعما « ان الحلاج لما قال : انا الحق ، كان الله تعالى هو المتكلم على لسانه كما يتكلم الجني على لسان المصروع ، وان الصحابة لما سمعوا كلام الله تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم كان من هذا الباب » . فبينت له فساد ذلك (٤) . اذ كان حكمه قاطعا ولا يقبل مراجعة ولا استئنافا على الرغم من رأيه في حالات الوجد والفناء .

-
- (١) مجموعة الفتاوي ج ١١ ص ١٨ .
 - (٢) مجموعة الفتاوي ج ٢ ص ٤٨٣ .
 - (٣) انظر الى ذلك في مجموعة الفتاوي ص ٣٧٧ ومجموعة الرسائل والمسائل ج ١ الطبعة الثانية دار المنار بمصر ص ٨٨ و ١٠٩ .
 - (٤) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٨٠ .

خبا النقاش حول كون الحلاج مؤمنا او كافرا ، ولم نبق نسمع عن يبحث في هذا الا للمما . واكثر الذين يدرسونه الان يحاولون ان يبوبوا الحلاج تحت احد العناوين المذهبية الشهيرة . وايضا الامر - قبل عرض الاراء الحديثة في الحلاج احدد هذه المفاهيم الاصطلاحية ، فكثيرا ما يلتبس الامر ، وقد مر معنا كيف ان الغزالي يذكر كلمة «انا الحق» ويعقب عليها مرة بأنها اتحاد ومرة انها حلول ، وامثال الغزالي كثيرون .

ولاين تسمية تحديدات دقيقة وواضحة لهذه الكلمات ، مميزا بين انواعها ، موضحا اصولها . وهو يقسم القول بالحلول الى قسمين يسميهما حلول خاص ، وحلول عام ، كما انه يقسم القول بالاتحاد الى قسمين يسميهما اتحادا خاصا واتحادا عاما . وفي مكان اخر يستعمل اصطلاحات اخرى فيقسم الحلول الى قسمين : الحلول المعين ، والحلول المطلق ، والشيء نفسه بالنسبة للاتحاد فهو اما اتحاد معين ، او اتحاد مطلق ، وهذا لا يبدل في المضمون لانه واحد في كلا التقسيمين على النحو التالي :

١ - الحلول الخاص او المعين : وهو حلول الله في شخص معين ، او حلول اللاهوت في الناسوت ، كحلول الماء في الاناء ، وهو قول النساطرة وقول الغالية في علي وال بيته ، وقول بعض اخر في الحاكم بأمر الله ، والحلاج ويونس ، وبعض الاولياء .

٢ - الحلول العام او المطلق : وهو قول الجهمية الذين قالوا : ان الله في كل مكان ، متخذين من الآية التالية ذريعة لقولهم وهي (وهو الله في السموات وفي الارض) .

٣ - الاتحاد الخاص او المعين : ان اللاهوت هنا والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء ، وهو قول اليعاقبة والغالية ، واليعقوبيين (١) انفصلوا بسبب هذا الرأي عن الملكانية التي

(١) اليعقوبيين هم السريان الارثوذكس .

تقول بالاتحاد من وجه دون وجه .

{ - الاتحاد العام او المطلق او وحدة الوجود : وخلصته ان الله عين الموجودات مع اختلاف في تصور هذه الوحدة ، فعلى حين يرى ابن عربي ان الله قام بالاعيان الثابتة في العدم ، لذلك يقول بالجمع من حيث الوجود والفرق من حيث الماهية والاعيان . اما القونوي فيرى ان المطلق في الكائنات بمنزلة الكلي في الجزئيات ، وبمنزلة الجنس والنوع والخاصة في سائر الموجودات ، فالمطلق عنده عبارة في الذهن فاذا تحققت كانت الخلق . كقولنا انسان الذي هو زيد وعمرو وكذا الامر بالنسبة الى الله . وعند التلمساني تصل النظرية الى تكاملها ، فالكائنات عنده اجزاء الله (1) .

فالحلاج عنده كان يقول بالحلول الخاص ، حيث حل به الله وحده دون غيره ، لكن غيره سيرى شيئاً اخر ، ولا بأس كذلك من ان ننقل عن ابن تيمية تحديده للفناء ، وهو عنده ثلاثة انواع هي :

- ١ - فناء عن عبادة السوى : وهي حقيقة التوحيد ، بأن يفنى الانسان بعبادة الله عن عبادة ما سواه .
- ٢ - فناء عن شهود السوى : وهي حالة الاصطلام او الفناء او الجمع . وتكون بأن يفنى الانسان عن شهود ما لا سوى الله كحالة ابي يزيد .

(1) انظر في ذلك مجموعة الفتاوي ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها وكذلك المرجع السابق ج ٢ ص ٦٥ وما بعدها . ونجد خلاصة رأي ابن عربي ص ١٤٠ - ١٦٣ ورأي القونوي (صدر الدين الرومي) ص ١٦١ - ١٦٨ ورأي التلمساني ص ١٦٩ - ٢٠٤ مع ملاحظة ان هذا الجزء من الفتاوي مخصص لنقد هذه المذاهب ، وخاصة نقد ابن عربي . وهو يظن ان هذه المذاهب لم تظهر الا بظهور دولة التتر ولم يسمع بها قبل ذلك الا ما ورد عن نقد ارسطو لها والحقيقة خلاف ما ظهر له .

٣ - فناء عن وجود السوى : وهو القول بالوحدة بين العبد
والرب (١) . والحلاج كان يرى انه في حالة فناء عن شهود
السوى كأبي يزيد ، وقد تردد اصطلاح الجمع معنا مما يؤيد
ذلك . بينما يعتبره ابن تيمية صاحب الفناء الثالث اي الفناء
عن وجود السوى .

(١) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

الآراء الحديثة في العلاج

اضطراب الاراء بسبب عدم تحديد الكلمات - رأي طه عبد
الباقي سرور عن العلاج المنزه المؤمن والمحب - رأي الدكتور عبد
الكريم اليافي في اسلوب العلاج التزيهي - رأي ما سنيون عن
حلولية العلاج - ونظرية هو هو والصيهور والديهور ، ونظرية
الامر والارادة ، والوحي والالهام - رأي نيكلسون - رأي زكي
مبارك والرصافي - احمد امين - نص يبين اراء العلاج .

نأتي بعد ذلك الى عرض الآراء المعاصرة ، ويمكن ان نميز ثلاثة انواع من هذه الآراء ، فقسم يرى ان الحلّاج منزّه ، وهناك من يرى انه كان من المؤمنين بوحدة الوجود كما ان بعض المؤلفين يرون ان الحلّاج حلولي او اتحادي دون تمييز او بتمييز .
والحقيقة ان الصورة التي تقدمها هذه الكتب ليست بمثل هذا الوضوح وهذه الدقة فمأسنيون يرى ان الحلّاج منزّه ، ثم يعتبره حلوليا ولما يتكلم عن مذهبه العام يعتبره اتحاديا، والاستاذان حنا فاخوري و خليل الجر يقولان بأن الحلّاج يؤمن بالاتحاد بالذات الالهية ، ويذكران له ابياتا في الاتحاد ، ثم يذكران له ابياتا في وحدة الوجود ، ناظرين الى ما يوحيه مظهر الابيات فقط (١) . واحمد امين يرى ان الحلّاج مؤمن بوحدة الوجود الا انه يعود ليردد بأن الحلّاج حلولي (٢) وكذلك نيكلسون فهو

(١) تاريخ الفلسفة العربية : حنا فاخوري و خليل الجر ص ٢٦١ .

(٢) ظهر الاسلام : احمد امين : في ج ٢ ص ٧٥ يرى انه وحدوي وفي ج ٤ ص ١٦٢ يرى انه حلولي .

بعد ان يتكلم عن الاتحاد الحلّاجي يصفه بأنه حلّولي (٣) .
ومع ذلك سوف احاول ان اعرض الموضوع منسقا ، جامعا
بين الاتجاه في الرأي ، وعارضا الرأي الشخصي بمناحيه .
ولنبدا بالقائلين ان الحلّاج منزّه فقط : فالاستاذ طه عبد
الباقي سرور يرى من نظرة في النصوص العديدة للحلّاج ان
الرجل كان موحدا ومنزها لله ، وهو بذلك يفض بصره عن
النصوص العديدة المغايرة لرأيه ، مما يصح تأويلها عنده . وهو
في محاولته هذه منسجم مع رأيه في الدفاع عن الصوفية ،
وتبرئتهم من كل التهم ، ودفع عنهم الانتساب الى اي مذهب
حلّولي او وحدوي كما فعل في كتابه عن ابن عربي اذ نفى كذلك
ان يكون قائلا بوحدة الوجود كما هو واضح في كتبه دون اي لبس ،
بل اعتبره موحدا كغيره من السنين ! و خلاصة رأيه في الحلّاج
هو ان الحلّاج شهيد ، وسمى كتابه الحلّاج شهيد التصوف
الاسلامي ، وهو قد اتهم ظلما وقتل ظلما لانه «رجل رباني ارتفع
فوق الحياة ليتخلق بأخلاق الله ، ويقتات قلبه بنوره ورضاه» (٤)
وهو عندما يكتب عن الحلّاج انما يتبع السنة النبوية لان « من
ارخ مؤمنا فكأنما احياه » كثيرا من النقل عن الشيوخ الذين حسنوا
صورة الحلّاج ، ومتجاهلا عدا ذلك ، وكما يكثر من نقل كلمات
الحلّاج الموافقة لرأيه متجاهلا ما يخالفه ليثبت انه ليس الا محب
وموحد لا غير . « وحقيقة الحب قيامك مع الحبوب بخساع
اوصافك ، واتصالك بصفاته بحيث تصير اسماء الله اوصافا
للعبد السالك » . ولكن مثل هذا الرأي يصح ان يقال في القرن
الثالث عشر ، حيث ميز ابن عربي بين الله واسمائه ، بين ذات
الله والاعيان الثابتة التي هي مجلى لاسماء الله ، وذلك في نظريته
الخاصة بوحدة الوجود ، ولا يصح مثل هذا الرأي عند الحلّاج!

(٣) الصوفية في الاسلام : نيكلسون ص ١٤٢ .

(٤) الحلّاج شهيد التصوف الاسلامي : طه عبدالباقي سرور ص ٢٥٩ .

والسرور يقسم التصوف الحلّاجي الى اربعة مراحل هي : الابتداء بالمعرفة ، والانتهاه بالفناء ، وما يعقب ذلك من بقاء ، ثم الاهتمام بارشاد المخلوقات ، حتى يصبح مرآة تتجلى فيها حقائق الكون واسراره (١) واحسبه لم يصف المرحلة الرابعة الا نتيجة لاراء ماسنيون في دعوة الحلّاج السياسية ، فأربكه لهذه الصـورة التي يقدمها عن علاقته بثورة ابن المعتز فيتساءل : كيف يمكن الجمع بين رجل ذي دعوة سياسية وله منهج صوفي شديد؟ معتبرا ذلك من الغاز التاريخ (٢) .

اما الدكتور عبد الكريم اليافي ، فلجأ الى طريق اخر اكثر عمقا ، وهو دراسة اسلوب الحلّاج ، فهو يصعد من كون التعبير الصوفي المؤرّجح بين الرمز من جهة والتجريد من جهة مقابلة ، معتبرا هذين الوجهين صورة لقضية التشبيه والتنزيه ، وعنده ان الحلّاج رفض الرمز ، فهو منزّه بالتالي ، يقول :

« وان من غرائب القضاء ان يكون الحلّاج هو صاحب هذا الاتجاه الشديد في التنزيه وانكار التشبيه بين الصوفية ، حتى لنزعم ان ذلك من اخص اسلوب بيانه ، وهو الذي اتهم بالحلول وقتل » (٣) .

ويذكر نصوصا للحلّاج ، ثم يحللها ، ليخلص الى انها مجردة وتحرص الحرص المطلق على التنزيه وليس الحلّاج عنده منزها فيما ذكر فحسب « وانما هو كذلك على الغالب في كل موقف وعند كل عبارة » (٤) . وليتخذ من تحليله هذا قاعدة لقبول او رفض ما ينسب الى الحلّاج مما عرضناه سابقا .

-
- (١) الحلّاج شهيد التصوف الاسلامي : طه عبدالباقي سرور ص ٨٠ .
 - (٢) المرجع السابق ص ٥٦ .
 - (٣) دراسات فنية : الدكتور عبدالكريم اليافي ص ٢٧٩ .
 - (٤) المرجع السابق : ص ٢٨٠ .

والمستشرق ماسنيون الذي انكب على دراسة الحلاج، محققا كتبه ومؤلفا عنها ردحا طويلا من الزمن فصل الحديث عن الحلاج. متبنيا وجهة نظر معينة ، باعتماده على مراجع مختلفة . وقد كتب ماسنيون مقدمة لكتاب الطواسين الذي حققه ، ومن هذه المقدمة سنعرض مجمل آرائه في الحلاج (١) .

الحلاج عنده صاحب مذهب كلامي ، وهو يقسم هذا المذهب الى هذه الفصول : نظرية الوحي والالهام - ونظرية ال- هو هو (اللاهوت والناسوت - نظرية الطول والعرض-السيهور والديهور) - نظرية الامر والارادة(المشيئة). وهذه خلاصة لعرضه: يرى ان الحلاج رغم ايمانه بفكرة تعالي الله يعتقد بأنه ليس بمنأى عن الانسان وهو عندما قال : هو شبيه بالقرآن لم يكن يسخر من المكى بل كان يعتبر انه ينظم في حالة من الوجد تشبه الحالة التي كان عليها محمد لدى سماعه للوحي، وكتاب الطواسين ينم عن الاعتقاد بوجود «وعي للحق» فوق الوعي الفردي ، ذلك الوعي الذي يجعلنا بين حين وآخر نقول : انا عوضا عن هو ، كما فعل محمد وابليس .

وماسنيون هاهنا يعرض ما كنا بيناه عن تجربة الحلاج وما سوف نبينه عند تحليل كتاب الطواسين ، الا انه يمضي بعد ذلك الى النقيض .

يرى ماسنيون انه نتيجة لتأثير اليهودية والنصرانية في القران بقضية الخلق ، والتي تقول بأن الله خلق الانسان على صورته ، اعتقد الحلاج بأن صورة الله هي آدم ، الذي تجلى به

(١) مقدمة الطواسين مترجمة تحت عنوان مذهب الحلاج في مجلة الاداب اللبنانية السنة الثانية عدد ٢ شباط عام ١٩٥٤ والمترجم هو شعبان بركسات ص ٢٠ الى ٢٦ .

الله ، لذلك فهذا الشخص المخلوق « هو هو » اي الحقيقية
المحمدية وعلى الانسان ان يماثل الله عن طريق التقوى ليرى
هذه الصورة ، صورة الله ، مطبوعة فيه . واودع الحلاج هذه
النظرية في الايات التالية :

سبحان من اظهر ناسوته سر سنا لاهوته الشاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا في صورة الاكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلقطة الحاجب بالحاجب
ولا يعر ماسنيون اهتماما بتشكيك ابن خفيف في نسبة هذه
الايات الى الحلاج ، وانها مقولة عليه ، بل يبني بالاعتماد عليها
هذه النظرية :

الايات محاولة لادخال اللاهوت المسيحي والسرياني في
الاسلام العربي ، وهذه الفكرة هي وجود طبيعتين في الله وهما:
اللاهوت والناسوت، وتدلان على طبيعتي المسيح : الكلمة المتجسدة
الا وهما طبيعته الالهية الخالدة ، وطبيعته الانسانية التي ظهر
فيها في التجسد .

والبيت الاول يشير الى المشهد الذي دعا فيه الله الملائكة
للاعراف بآدم على انه : هو هو بينما الايات التالية تطبيق نظرية
الشاهد الاتي على المسيح .

وناسوت الله هو الـ « هو هو » اي الانسان بطبيعته
الانسانية في الروح والجسد او العرض والطول . والله سيظهر
بناسوته اي في شكله الانساني في اليوم الاخير ليحكم بين الناس،
والفكرة ذات اصل مسيحي .

كما ان ماسنيون يرى استطرادا لهذا الحديث عن طبيعتي
الله قائلا :

« وكذلك فان الطبيعة الالهية لا تستطيع الاتحاد بالمركب
الانساني الا عن طريق الحلول كحلول الروح الانساني في الجسد
الانساني ، وهو نوع من التجسد يطبعه الله فيه وهذا ما يحمل
الحلاج على تسمية الطبيعة الالهية في هذا الاتصال باسم الروح .

وهو لا يخرج عن الفكرة المسيحية بالمسيح ويلصقها بالحلاج ، والروح الالهية عنده انما هي العقل الفعال لا العقل عند المؤلفات الافلوطينية . ويأخذ اشعار الحلاج كدليل على حلول الروح الالهية في الروح الانساني الموازيين لاتحاد اللاهوت والناسوت من مثل : انا من اهوى . . . انت بين الشفاف والقلب . . . مزجت روحي في روحي . . وهي ابيات مرت معنا .

ولا اعرف اين ستصبح نظرية الالهام او الحب الحلاجي، التي شرحها اولا في حديثه عن الله المنزه بعد هذا الكلام عن الحلول ! رادا المشكلة الحلولية الى المسيحية واليونانية او الهندية بحيث تهدم وحدة الله كما في القران على ما يقول !

وبقي ان نعرض من ارائه حول الحلاج النظريتين الاخيرتين، فالحلاج عنده كان اثيني ، فالادراك عنده امتداد وفهم ، والعالم منفصل الى روحي ومادي والاخلاق تقسم الى الفرض الديني والسنن العملية . وتهمنا بالطبع نظرية الامر والارادة فقد ابان عنها بصورة جيدة :

« يعتمد الحلاج هنا على التجربة الصوفية المباشرة لحل مشكلة الصلة بين اللطف الالهى والقضاء والقدر ، تلك المشكلة التي ترجع الى النزاع بين الخير الذي يامرنا الله به (الامر) وبين الشر الذي يتنبأ بوقوعه (الارادة) :

« ويرضى الحلاج بهذا النزاع بدلا ان يخفيه ، فهو يعلم ان لا حيلة للعلم بالوصول الى الماهية الالهية بل ان الحب هو الطريق اليها . اذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الالهى هي التي تقربنا من الله، بل انما هو خضوع القلب للامر الالهى في كل لحظة ، لان الامر غير مخلوق بينما الارادة مخلوقة .

« فهو يضع حدا للنقاش (الامر عين الجمع ، والارادة عين العلم) فكل قلب اذن يشغله السعي وراء الجزاء عن حرمة الامر، ان هو الا مرتزق وليس بخادم حق لله .

« ونمت السالمية الفكرة مستشهدة بطاسين الازل . كان

امر الله شكليا في دعوته ابليس للسجود لادم ولم تكن تلك ارادته
والا لسجد ابليس .

« فأمر الله شكلي ، وهو بحبه رغم انه يعلم ان الله اراده
ان يعصيه ، وذلك هو موضوع البلاء الذي لا مفر منه للانسان
كي يكون قديسا . وهذا ما اباه ابليس اذ لم ير في الامتثال
سوى الارادة دون الامر . . . الخ . . .

« واما العلاج فهو لم يتراجع بل رضي بالتعارض (1) . .
واخيرا ، يرى ان اثر العلاج واضح في مذهب المتكلمين
الحلاجيين ، وهو اول مذهب كلامي صوفي له اصول وفروع .

ونستطيع بعد هذا ان نختصر رأي ماسنيون بما يلي :
يرى ماسنيون العلاج منزها لله ، الا ان الله ليس بميأى
عن الانسان ، وبالحب يستطيع الانسان ان يتصل بالله ، وبما ان
الله لاهوتا وناسوتا ، والناسوت هو الانسان بجسده وروحه
فالانسان بالتقوى يصل الى حلول الله به (انا من اهوى) . . . على
انه يرى ايضا ان الابيات (وحدني واحدي . . .) تدل على مذهبه
في الاتحاد .

فهو ينظر الى العلاج من خلال نظريات ثلاث : العلاج يتصل
بالله كمحمد وهو حلولي ، وهو اتحادي كذلك ، وعلى ضوء
المسيحية .

- ٣ -

يدخل نيكلسون اعتبارات جديدة في التصوف ، بالاستناد
الى فكرة الشخصية ذات الطابع المسيحي ، وهي التي تجعل الله

(1) تمت الاستفادة من تحليل ماسنيون هذا بعرض تجربة العلاج ، وهو يتسق
مع ما سنعرضه عن « الطوابين » بعكس رأي ماسنيون الذي يفصل بين
النظرية والممارسة !

- ٢٢٢ -

منزها ومشبها في الوقت نفسه ، فتصف المعبود بصفات مشخصة بحيث لا تجرده ولا تجعله بمعزل عن عباده : فالله منزه ، ولكنه على صلة بالمخلوقات ، وباستطاعة العبد ان يقيم علاقة معه . فهو يبدأ بحدس ويرد على فون كريم الذي اعتبر الحلاج من دعاة وحدة الوجود مخالفا رايه في هذا النص التالي :

« ومن الخطأ ان نعتبر الاقوال التي صدرت عمن بعض الصوفية دليلا على اعتقادهم في وحدة الوجود كقول ابي يزيد البسطامي «سبحاني» ! ، او قول الحلاج «انا الحق» ، او قول ابن الفارض «انا هي» ، فان الصوفي لا يدين بالقول بوحدة الوجود ما دام يقول بتنزيه الله مهما صدر عنه من الاقوال المشعرة بالتشبيه . وهو اذا راعى جانب التنزيه يشاهد كل (الكل) هو الله . فالوحدة التي يقول بها وحدة شهود لا وحدة وجود . زد على ذلك اننا يجب الا نخلط بين فيض العاطفة الدينية ونظريات الفلسفة الالهية » (١) .

لكن نيكلسون بعد هذا القول يتنصل منه ، وليست القضية مجرد اصطلاحات كان نقول « وحدة شهود » ، بل ان تتمثل بالاصطلاح ونهضمه ولو سألنا نيكلسون بعد هذا عما يريد بوحدة الشهود ، اذ به يرتد الى ماسنيون واذا بوحدة الشهود نظرية اتحاد اللاهوت بالناسوت مرة والحلول مرة اخرى .

وبعد ان كان يرفض الخلط بين فيض العاطفة وبين النظرية الفلسفية اذ به يقفز فجأة ليقول :

« وضع الان ان «انا الحق» التي نطق بها الحلاج لم تكن صرخة جذب ولا كلمة شطح وانما كانت عبارة لخص فيها نظرية كاملة في الالهيات متصبغة بصبغة صوفية . ولم تكن هذه النظرية الاولى من نوعها فحسب ، بل كانت في صميمها وجوهرها

(١) في التصوف الاسلامي وتاريخه : رينولد . ا . نيكلسون ترجمة العفيفي

من صنع الحلاج نفسه « (١) !!
فالحلاج عنده ممن آمن بالنظرية اليهودية المسيحية عن خلق
ادم على صورة الله ، وان لله طبيعة ثنائية ، ومن ناسوت الله كان
الانسان بروحه وجسده ، والله بطبيعته الالهية يحل بالانسان .
ويحاول نيكلسون ان يكون رايه بعيدا عن ماسنيون فيرفض
ان يكون الحلاج مدينا بنظرية في التجسد ، بل كانت نظريته هي
نظرية في التضحية بالذات او نظرية في الايثار (٢) .
الا انه يعود مرتدا الى ماسنيون ، ويقبل بأرائه ، في كتاب
اخر ، مناقضا خطه السابق الذي ينم عن فهم لتلك الصورة
الغريبة المؤثرة .

يقول :

« واذا كان ناسوت الله يشمل طبيعة الانسان الروحي منها
والجسدي ، فان لاهوته لا يستطيع الاتحاد بهذه الطبيعة الا عن
طريق التجسد ، او كما يقول الاستاذ ماسنيون عن طريق حلول
الروح القدس التي تتخذ مكانها حين تحل الروح الجسد » (٣) .
ونظرية التجسد هذه التي يصر عليها ، هي النظرية التي تفسر
طبيعة المسيح ، وكيف تجسد الله فيه ، ونيكلسون ينقلها
كماسنيون كاملة ليلبسها للحلاج ، لا اكثر !

- ٤ -

عرضت ان فون كريم راي ان الحلاج واضح لمذهب وحدة
الوجود ، وذكرت ان نيكلسون رد عليه لان وحدة الوجود ظهرت
بعد الحلاج بزمن . الا ان هناك آخرين يعتقدون ان الحلاج ممن

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٣) الصوفية في الاسلام : نيكلسون ص ١٤١ .

قال بوحدة الوجود .

ومن هؤلاء الدكتور زكي مبارك ، الذي كان هو الآخر مؤمنا بوحدة الوجود ، ويحاول ان يجد لها تعليلا حديثا متصلا باكتشاف اللاسلكي ! مقتربا من تلك الصوفية المادية التي يتحدث عنها العلماء بروحانية مكثفة .

والحلاج عنده اشهر ضحايا نظرية وحدة الوجود ، « وهو ممن يؤمن بنظرية وحدة الوجود » . الا ان الدكتور مبارك لا يعبا بالكلمات فيضيف : او بنظرية الحلول واشعاره تشهد بذلك « (١) ويقول وكأنه يفترع الحقيقة :

« ونسب الى الحلاج انه ادعى الربوبية ، وقد نفى هذه التهمة من نفسه ، ولكننا لا نستبعدا عليه لانها تأتلف مع مذهبه كل الأتلاف . وكذلك نسب اليه انه ادعى النبوة وليس ذلك بغريب » (٢) (!) .

وللمبارك اراء تعوزها الدقة :

فالحلاج عنده شيعي « وكان يعتقد بالحقيقة العلوية فسي مكان الحقيقة المحمدية ، وقد وجد في بعض رسائله الى احد مريديه صورة فيها اسم الله تعالى مكتوب على تعويج وفي داخل ذلك التعويج مكتوب علي عليه السلام » . . . ويسرع مفسرا ذلك على هواه : « ومعنى ذلك انه يرى عليا هو الصلة بين الله وبين الوجود » (٣) .

والحلاج عنده مخبول المطامع ، وهو من اعترف بجهل قدر نفسه حين استجاز ان يكون نديما لذلك المحبوب القهار الذي

(١) التصوف الاسلامي في الاخلاق والادب : زكي مبارك ج ١ ص ٢١٢ والدكتور

مبارك مواقف صاخبة في الدفاع عن وحدة الوجود وصورتها معروضة في

مجلة الرسالة سنة ١٩٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٢ .

اغرق الاولين والآخرين في لجاج من الهدى والضلال (١) !!
وعندما قرا الشاعر معروف الرصافي كتاب الدكتور مبارك،
رد عليه بكل تواضع وصراحة ، والرصافي ممن آمن بوحدة
الوجود ايضا . يقول :

« يكون كافرا بالله كل من قال من البشر انا الله ، وذلك
لان انا جزئية المدلول والله كلي الوجود ، وكذلك كفر الحلاج لما
قال : انا الله . واني لا اشك في ان الحلاج لم يكن من الراسخين
في نظرية وحدة الوجود ، وان عدم رسوخه فيها هو الذي حمله
على هذه الشطحة المنكرة » (٢) .

ونحن - كذلك - لا نشك ان الحلاج ما قال بوحدة الوجود،
لانه كان ينكر اية فكرة تمس تعالي الله ، عدا التقرب منه بالطاعة
والمحبة .

وكان الاستاذ احمد امين يعتقد ان الحلاج من المؤمنين بوحدة
الوجود ، وفي الكتاب الذي تركه مخطوطا (اي الجزء الرابع من
ظهر الاسلام) ارتد بنفسه هذه المرة - على عكس السابقين -
 واصبح من القائلين ، بأن الحلاج حلولي .

فعنده ، ان هناك فكرتين : الاثنينية وفيها الله مستقل عن
الخلق ، ووحدة الوجود وفيها ان الله والخلق واحد، والحاكم
والمحكوم شيء واحد . كما في اقوال الحلاج (٣) .

وفي كتابه الآخر يتعرض للفناء : فناء المحب في المحبوب،
حتى لا يرى شيئا الا هو ، كما يتضح بأقوال ابي يزيد والحلاج
ثم يتابع قائلا : ولكن يظهر ان الحلاج كان يقول بالحلول اي حلول
الله في الانسان ، اي انه هو والله شيء واحد ، كما يقول بعض
النصارى في امتزاج الطبيعة الالهية بالطبيعة الناسوتية كما

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ .

(٢) رسائل التعيقات : معروف الرصافي ص ١٨ الطبعة الثانية - بيروت .

(٣) ظهر الاسلام : احمد امين ج ٢ ص ٦٠ .

يمتزج الماء بالخمر كقوله « دع الخليقة لتكون انت هو وهو انت »
وبالفعل وجد في بعض تعبيراته كلمة الناسوت واللاهوت
كالتعبيرات النصرانية (١) .

والظاهر من كل هذا ان المؤرخين والباحثين اصبحوا
يبتعدون عن نسبة وحدة الوجود الى الحلاج ، ولكن لينعتوه
بالحلول !

وبعد ، اليس هذا الاختلاف بين المفكرين حول هذه
الشخصية اختلافا كبيرا وغريبا جدا ، جزءا اخر من الاسطورة
الحلاجية ؟ !

- ٥ -

ولعله من المناسب ان اختتم هذا الفصل بنقل نص للحلاج
ليكون ردا كاملا على جميع الاراء المعروضة ، وهو واحد من
العديد من النصوص المشابهة له .

ولا بد من اعادة القول بان اكثر النصوص التي ثبت التنزيه
والنفي متبوعة بفقرات او اشعار تدل على تجربة الحلاج، والحلاج
في كل ذلك لا يخرج عن جملته « تتجلى علي حتى ظننتك الكل ،
وتسلب عني حتى اشهد بنفيك » فهو برحلته ينتشي فيلقي اقواله
واشعاره الموحية بالحلول ، بينما هي تجربة حب لا اكثر ، فاذا
ما انتهت لحظة النشوة عاد ووجد الله بعيد جدا ، والعكس صحيح
كذلك ، يكون هادئا ، فالله بعيد ، فاذا ما انفعل او تواجد يصبح
الله عنده قريب جدا .

والنص عبارة عن رسالة وجهها لاحد تلامذته وفيها يقول:
« اما بعد ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، الخارج
من حدود الاوهام وتصاوير الظنون وتخيل الفكر وتحديد الضمير

(١) ظهر الاسلام ج ٤ ص ١٦٢ .

الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .
« واعلم ان المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل الى
مواقف التوحيد . فاذا وصل اليها سقطت من عينه الشريعة
واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فاذا ترادفت عليه
اللوائح وتتابعت عليه الطوائع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة
عنده هوسا ، فبقي بلا عين ولا اثر ، ان استعمل الشريعة
استعملها رسما وان نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهرا» (١) .
فمن اراد للحلاج ان يكون منزها ، فشاهده المقطع الاول ،
ومن اراد للحلاج الحلول او الاتحاد او الوحدة فعليه بالاستشهاد
بالمقطع الثاني ! . لكن الحلاج سيبقى انسانا اخر ، وستبقى
تجربته وفكره يشيران الى ان الله البعيد يمكن ان نصل اليه
بالتجرد من المادة ، والارتقاء بالروح اليه !
ان هذا النص ببعبديه يدخلنا الى جو الحلاج ، لا ليلفي
التناقض حول افكاره فحسب بل ليرشدنا الى نوع التناقض في
ذلك الجو ، وقد سمي الحلاج هذا التناقض بالالتباس .

١) اخبار الحلاج ص ٧٣ .

دعاوي الحلاج وأرائه

- ١ - كتاب الطواسين : وصفه . غموضه . يدل على حالة غريبة . يدل على قمة تجربة الحلاج . معنى العنوان عند الباهلية وعند السهروردي .
- ٢ - بستان المعرفة : معرفة الله غير ممكنة - نقد ادلة معرفة الله - الرؤية او الطريق الوحيد لمعرفة الله - الآراء حول الرؤية في الدنيا والاخرة - تجربة موسى - معراج النبي - تفسير الحلاج لهذا المعراج . ادعاؤه انه يرى الله كالرسول .
- ٣ - السراج : محمد النور القديم - الحلاج هو هذا النور ، لذا جازت له رؤية الله ، الكلمة - العقل الفعال ، الامام عند الشيعة : تشبه فكرة السراج . نقد رأي ماسنيون حول شبهها بالحقيقة المحمدية والانسان الكامل ، السراج هو جبريل ، معرفة الحلاج كافية ، من رأني راي الاب ، نقد فكرة الحلول والاتحاد عند الحلاج .
- ٤ - الالتباس ، دفاعه عن ابليس : ابليس منزه لانه رفض السجود لغير الله . وهو في عصيانه مبتل لان الارادة شاءت له ان يعصي - كذا الحلاج في دعواه برؤية الحق وبدعواه عن انه النور المحمدي فهو ابتلاء .
- ٥ - التوحيد : الحلاج المنزه : الله لا يحد . لكنه يرى - الخلق - خلق العدم - الارادة والمشية - خلاصة . .

نشر ماسنيون كتابا للحلاج اسمه «الطواسين» سنة ١٩١٣ في ثمان وسبعين صفحة ، وشرحه وبين غوامضه . الا ان هذا الكتاب الذي لا يتجاوز العشر صفحات اذا نسخ ، يبقى اغرب كتاب .

واذا كان شعر الحلاج بمعظمه لنا هينا بعيدا عن الحوشي ، وبعيدا عن الفخامة ينطق بسهولة دون جهد كبير ، فان هذا الكتاب على النقيض تماما ، فهو كتاب مصنوع ، كتب بلفة مسجوعة ، رتيبة تؤدي الى غموض المعاني والتوائها . فهو كتاب مبهم وغير مفهوم ، والحلاج قصد ذلك فهو يقول في تضاعيفه :

« ما اظن يفهم كلامنا سوى من بلغ القوس الثاني والقوس الثاني دون اللوح ، وله حروف سوى حروف العربية ، الا حرف واحد وهو الميم » (١) ،
وهذا الكلام نفسه يحتاج الى شرح ! وان بعض ما ورد في

(١) الطواسين : تحقيق ماسنيون ص ٢٥ .

الكتاب يدل ليس على غرابته وغرابة مواضعه فحسب ، بل يدل على ان الحلاج وان تصنع في قسم كبير منه ، الا انه كتب قسما آخر وهو في حالة غريبة ايضا . وهذا مثال يوضح سجع الكتاب وغموضه وغرابة كاتبه ، وفيه يتكلم عن المعرفة :

« صاحبها واحد ، مارسها لاحد ، وارقتها رآمد ، لاصقها فاقد ، بارقتها ماكد تارقتها شاكد ، لا لا مارقتها لا قد ، صارعها خامد ، خائفها زاهد ، لا عدها واحد اطنابها اسبابها .
« كأنها كأنها كأنها كأنه كأنه . كأنها كأنها كأنه كأنه ،

كأنه أنها ، كأنه كأنه ، كأنها كأنها ، بنيانها اركانها واركانها بنيانها اصحابها اصحابها بنيانها بها ، يهابها لا هي هو ولا هو هي ولا هو الا هي ولا هي الا هو ، لا هي الا هو ، ولا هو الا هو **فالعارف من رأى والمعرفة بمن ((بقى))** . العارف من عرفانه لانه عرفانه وعرفانه هو والمعرفة ذلك ، والمعروف وراء ذلك ، بقية القصة مع القصاص ، والمعرفة مع الخواص ، والكلفة مع الاشخاص والنطق مع اهل الوسواس والفكرة مع اهل الآيات والغفلة مع اهل الاستيحاش **والحق حق والخلق خلق ولا باس** » (١) .

على هذا النحو انهى الحلاج كتابه . فليبحر الدارسون وراءه لادراك ما يريد ، وخاصة اولئك الذين يقررون بحزم ما بعده حزم ان الكتاب يحوي نظرية كاملة ومذهبا فلسفيا تاما ، لكن عليهم ان يبلغوا القوس الثاني قبل ذلك !

وعلى الرغم من هذا الغموض العجيب ، وهذه الطريقة النادرة بكتابتة ، والتي توضح ان الحلاج كتب بعضه في حالات وجدانية ، بعكس ما يحاول بعضهم تأكيده ، من انه كتب لتوضيح نظرية ، وانه بعيد عن الشطح ، فان لم يكن الشطح هذا الكلام ، فماذا يكون الشطح ؟ اقول : على الرغم من كل هذا ،

(١) الطواسين ص ٧٧ و ٧٨ . راجع ص ٤٢ ، من هذا الكتاب حيث عرضت

امثلة اخرى .

وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب ، تبقى له أهمية خاصة ، از
توضح لنا الاقسام المفهومة ، منابع فكر الحلاج ، وتوضح لنا
المشاكل التي كانت تؤرقه ، مثلما توضح جوهر فكره الصوفي
المتناسق مع تجربته التي عرفناها سابقا .

ونحن نعلم ان بعض اقسام الكتاب وهو طاسين الازل كتبه في
آخر حياته ، ومن مقارنة الكتاب مع تجربته يتأكد ان الكتاب
كله كتب في آخر حياته . ويحس بنا قبل ان ننتقل الى
الكتاب ان نعرض خلاصة لتجربة الحلاج .

بينت ان رحلة الحلاج الصوفية تطورت ونمت ، فهو في
البداية يرى الله بعيدا جدا ، الا ان الصوفي يفنى عن نفسه ،
وتبدأ علاقته بالله بخطر ثم نظرة ، فيسكر بحب الله ، على ان
حضور الله بالعلم لا بالانتقال . وهو يتجلى فيحسب الحلاج انه
الكل ويسلب عنه فيشهد بنفيه . وقد نمت هذه العلاقة ، فمرة
هو مستهلك . ومرة حائر لا علاقة له مع الله ، مطالب بالموت
ليكون معه ، الى ان يبلغ الذروة . فيدعي تلك الدعوى الضخمة
وهي انه يرى الله ولا يغيب عنه لحظة .

وكتاب الطواسين مقام على هذه النهاية لتجربته الصوفية،
وفيه يتكلم الحلاج عن نفسه وقد وصل الى هذه الحالة . وعلى
ذلك فالكتاب تحليل لقيمة تجربته الصوفية بقلمه لا اكثر .

وقبل ان ننتقل الى الكتاب ، نذكر تحليل ماسنيون لعنوانه
عن الباهلية ، ف ط و س حروف في اوائل السور (ط) يقصد
بها الحلاج طهارة المبدأ الاول او المطلق وطهورنية منذ الازل
بحيث لا يلحقه اي مكان . (س) من السناء الذي كشف عنه في
الابد وهو التجلي النهائي المطلق . فالطاء طهارته في الازل والسين
تجليه في الابد ، و (ن) تعبر عن المنحة يمنحها الحق الالهي
للنفوس والاجسام التي يحل فيها عن طريق امعان نوره وصفة

الحب حبا لها في مطلق المطلق وهو هو (أ) .

ويجدر بنا ان نذكر كذلك ، ان السهروردي استخدم هذا التعبير ايضا . ويرى كوربان ان طاسين عنده هم اهل البيت ، واراد بهم كل من وصل الى الكمال الاعلى ، وآل طاسين هي الجواهر العقلية والنفوس الفلكية ، والحروف التي هي في اوائل السور كلها اشارة الى تلك الجواهر المفردة كافراد هذه الحروف . فاذا تيسر للسالك الصعود الى الجواهر العقلية والاتصال بالنفوس الكاملة من اهل النبوة ، ان قلنا انهم المرادون بال طاسين سهل عليه مشاهدة الواحد الحق (٢) .

اذن ، فلنلج مع العلاج الى كتابه ، ولنحاول ان نراه عبر كلامه المفهوم ، وسنجدده عند ذلك في بستان واحد ، هو بستان المعرفة ، منتشيا بكلمة واحدة لا غير وهي الله . .

يحتوي الكتاب على احد عشر فصلا هي : طاسين السراج ، طاسين الفهم ، طاسين الصفاء، طاسين الدائرة، طاسين النقطة، طاسين الازل والالتباس ، طاسين المشيئة ، طاسين التوحيد ، طاسين الاسرار في التوحيد ، طاسين التنزيه (لا يوجد الا العنوان) . بستان المعرفة . وتدور حول اربعة مواضيع : المعرفة، النور المحمدي ، الالتباس ، التوحيد ، وسوف نستعرضها بما يلي :

(١) مقدمة شرح الطواسين : ماسنيون ورقه ١٧٥-١٦٧ نقلا عن الحاشية رقم

(١) من كتاب الدكتور محمد علي ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي فني

الاسلام ج ١ ص ٣٣٠ .

(٢) حاشية رقم (١) لكوربان محقق كتاب مجموعة في الحكمة الالهية

للسهروردي ص ١٠٥ .

بستان المعرفة

معرفة الله :

في نهاية كتاب الطواسين يوجد فصل بستان المعرفة .
وفيه يتعرض الحلّاج لثلاثة مواضع هي : عدم امكان المعرفة ،
ونقد النظريات التي تدعي امكانها ، ليبني بجملة واحدة فكرته
عن المعرفة وطريقها الوحيد .

ما المعرفة ؟ المعرفة ربانية ، واول ما تطلق على الله « كنب
كنزا مخفيا فأحببت ان اعرف » ما هو موضوعها ؟ ليس سوى
معرفة الله ايضا . كيف الطريق اليه ؟ لا طريق ..
كتب الحلّاج :

« المعرفة في ضمن الفكرة مخفية ، والفكرة في ضمن المعرفة
مخفية ، الفكرة صفة العارف (وحليته والجهل صورته ، فصورة
المعرفة عن الافهام غايبه آيبه كيف عرفه ولا كيف) « اين عرفه
ولا اين كيف وصل ولا وصل ، كيف انفصل ولا فصل . ما
صحت المعرفة لمحدود قط ولا لمعدود ولا لمجهود ولا لمكدود .

« المعرفة وراء الورااء وراء المدى وراء الهمة وراء الاسرار،
وراء الاخبار وراء الادراك ، هذه كلها شيء لم يكن فكان ،
والذي لم يكن ثم كان ، لا يحصل الا في مكان والذي لم يزل
قبل الجهات والعلات والالات ، كيف تضمنته الجهات وكيف
تلقه النهايات » (١) .

وهو في ذلك ، كالفيلسوف الالماني كانط ، الذي يرى ان
المعرفة الميتافيزيقية غير جائزة لان العقل الانساني محدود ، ولا

(١) الطواسين ص ٦٩ .

يستطيع ان يبنيها ، وهذا ما رمى اليه الحلاج فالانسان محدود
بالمكان والعلل فكيف يدرك ما وراء ذلك . بل انه يمضي درجة ،
فمن لا يعرف المكان نفسه كيف يمكنه ان يعرف ما عداه . يقول:
يا عجباً ممن لا يعرف شعره من بدنه كيف نبتت سوداء ام
بيضاء ، كيف تكون الاشياء ، من لا يعرف الجمل والفصل ، ولا
يعرف الاخر والاول والتصاريف والعلل والحقائق والحيل ، لا
تصح له معرفة من لم يزل :

« سبحان من حجبهم بالاسم والرسم والوسم ، حجبهم
بالمقال والحال (والكمال والجمال) عن الذي لم يزل ولا يزال ،
القلب مضغة جوفانية ، فالمعرفة لا تستقر فيها لانها ربانية » (١) .
وهو يميز بين المعرفة والفهم ، والفهم له طول وعرض
(مفهوم وما صدق) وبه نعرف العالم ، بينما ليس للمعرفة طول
وعرض لانها ربانية . وهو بجملة واحدة يقرب المفاهيم القديمة ،
مثلما قلبها كانط ايضا . فمن المعروف قبل كانط التمييز بين
العقل والفهم ، فالعقل هو الملكة التي تدرك العلاقات المنطقية ،
بينما الفهم لا يتطلب الحكم ، فلما جاء كانط عكس الامر ،
وجعل الفهم Understanding الملكة المنطقية . وهذا ما
فعله الحلاج ايضا وذلك بقوله :

« للفهم طول وعرض ، وللطاعات سنة وفرض ، والخلق كلهم
في السماء والارض ، وليست للمعرفة طول ولا عرض ولا تسكن
في السماء والارض ، ولا تستقر في الظواهر والبواطن مثل السنن
والفرض » (٢) .

وغاية الامر ان المعرفة الميتافيزيقية غير ممكنة ، لان الله من
طبيعة اخرى لا يستطيع الفهم المحدود معرفتها . يقول :
« يا هذا ، ما في الكون اقل من الذرة ، وانت لا تدركها ، فمن

(١) الطواسين ص ٧٢ .

(٢) الطواسين ص ٧٤ .

لا يعرف الذرة كيف يعرف ما هو ادق منها بتحقيق « ؟ (١) .

نقد براهين معرفة الله :

ولا يكفي الحلاج بهذا الاقرار والبرهان وحده ، مثل كانط، بل يستعرض النظريات التي تدعي معرفة الله ، فينقدها بدقة وباختصار ، معتمدا في ذلك على فكرة واحدة هي تنزيه الله وتعاليه ، فهو وراء الادراك ، ووراء الزمان والمكان ، ووراء العلى والاسباب . وهو ينقد نظرية معرفة الله بكماله ثم ينقد نظرية الخدوث ، ثم نظرية السبب ، ثم نظرية المتصوفة ، ثم نظرية النبوة (او تجربة موسى بالاحرى) . يقول :

« ومن قال عرفته بفقدي ، فالمفقود كيف يعرف الموجود ؟
« ومن قال عرفته بوجودي فقديمان لا يكونان .
« ومن قال عرفته حين جهلته . والجهل حجاب ، والمعرفة وراء الحجاب لا حقيقة لها .
« ومن قال عرفته بالاسم فالاسم لا يفارق المسمى لانه ليس بمخلوق .

« ومن قال « عرفته به فقد اشار الى معروفين .
« ومن قال «عرفته بصنعه» فقد اكتفى بالصنع دون الصانع .
« ومن قال « عرفته بالعجز عن معرفته » فالعجز منقطع، والمنقطع كيف يدرك المعروف .
« ومن قال « كما عرفني عرفته » ، فقد اشار الى العلم فرجع الى المعلوم ، والمعلوم يفارق الذات ومن فارق الذات كيف يدرك الذات .
« ومن قال « عرفته كما وصف نفسه » فقد قنع بالخبر دون الاثر .

(١) الطواسين ص ٧٥ .

« ومن قال « عرفته على حدين » فالمعروف شيء واحد لا يتميز ولا يتبعض .

« ومن قال « المعروف عرف نفسه » فقد اقر بان العارف في البين ، متكلف به لان المعروف لم يزل كان عارفا بنفسه .
« ومن قال عرفته بالحقيقة فقد جعل وجوده اعظم من وجود المعروف لان من عرف شيئا على الحقيقة ، فقد صار اقوى من معروفه حين عرفه » (١) .

فهو يذكر احد عشر دليلا ليرفضها جميعا ، وان كان من الضروري ذكر نقد لها ، فهو هذا البخل بالتعبير والضمن بالافصاح . وهو ينقد اولا راي المصطلمين من المتصوفة والذين يقولون نعرف الله بالفناء ، فيرد : انى للمفقود ان يعرف الموجود ، ان من يفقد نفسه وحواسه قاصر عن بلوغ مرماه .

وينقد قول من يرى ان وجود الله معروف لان وجودنا المحدث يقتضيه ، فمثل هذا البرهان يعطي وجودنا صفة القدم ، وقديمان لا يكونان .

اذا ، فلنقل كما سيقول ديكرت فيما بعد ، اننا نعرفه بعجزنا وجهلنا ، الا يشير عجزنا الى كمال ذاته ، والا يشير جهلنا الى كمال علمه ؟ يرفض هذا ، لان القول بان العجز والجهل دليلان على جود كامل ، من تصورنا له علمنا هذا العجز ، فاننا نكون قد وضعنا حجابا بيننا وبينه ، وانقطعنا عنه ، والمحجوب والمنقطع ان يعرف الله .

ولن نعرف الله باسمه ، الا يدل اسمه على المطلق ، وعلى المعاني اللانهائية ، والصفات العلوية ، وما الله الا هذه الاسماء . . . يرفض ذلك ، لان الاسم لا ينفصل عن المسمى ، بعكس ما سوف

(١) الطواسين ص ٧٠-٧٤ .

يقوله المتصوفة فيما بعد ، والاسم ليس مخلوقا . ومثل هذا البرهان ، البرهان التالي ، الا انه يتناوله من جانب آخر وكأنه ينقد ما سيقوله ابن عربي ، فمعرفة الله بالله تشير الى معروفين .

وكذلك ينقد دليل السببية ، والذي يبرهن على وجود الله من النظر والتأمل في الموجودات التي تقتضي صانعا ، فوجودها ينطق بوجوده ، الا انه يرى ان تأمل الموجودات يدل على انها مصنوعة ، ولن يوصلنا الى الصانع . وكأنه يردد نقد كانط حول هذا ، رافضا هذه القفزة من النهائي الى اللانهائي . . مثلما ردد قول ابن رشد حين رأى في دليل الحدوث المار ذكره ضرورة جعل العالم قديما . الا انه امتاز على ابن رشد برفضه هذا الدليل لان العالم ليس قديما .

ولن نعرف الله بالعلم لان العلم مضاف الى الذات .
ولن نعرفه كما عرفه موسى ، فقد طلب رؤية الله في سيناء ، الا ان موسى لم ير الله وقنع بما أنزل عليه الله من كلمات ، فهو قد قنع بالخبر دون النظر ، وعرف الله كما وصف نفسه ، وهذا ليس معرفة ، والنبي موسى لم يعرف الله ، لان من يقتنع بالخبر لن يعرف الله . وهو هنا يشير اشارة الى الطريق الوحيد لمعرفة الله ، اي معرفته بالنظر والرؤية .
ولن نعرف الله بصفاته وحدوده لان الله لا يتميز ولا يتبعض، فنفي عنه الصفات . وبها لا يبرهن عليه .

ومن قال نعرفه بالدين ، ففيه برهان على وجوده ، الا اننا بذلك نقر بانه لا يعرف . واذا قلنا نعرفه بالحقيقة كنا اعظم منه شأنا وهذا مستحيل . .

وهو بذلك يهدم كل الطرق الموصلة الى الله ، رافضا هذه الطرق والادلة ، مثل كانط ، ليبني طريقا وحيدا . .

وهو يعتمد على مقدمة وحيدة هي تنزيه الله ، ليصل الى النتيجة نفسها « لا طريق نحو الله بهذه الادلة . » والحق

حق والخلق خلق (١) .
وكما ان كانظ عاد للبرهنة على وجود الله بالاعتماد على
الاخلاق والشعور بالواجب ، كذلك عاد الحلاج وبنى البرهنة على
وجود الله ، الا ان الطريق مختلف .

الرؤية :

كيف نعرف الله اذا ؟ نعرفه بالرؤية . يقول :
« العارف من رأى ، والمعرفة بمن بقى ، فالمعرفة ثابتة من
جهة النص ، وفيها شيء مخصوص مثل دائرة العين
المشقوق » (٢) .

ويقول بمكان آخر من كتابه :
« فالعارف من رأى والمعرفة بمن بقى . العارف من عرفانه
لانه عرفانه . وعرفانه هو والمعرفة ذلك ، والمعروف وراء
ذلك . . » (٣) .

وهذا هو طريق الحلاج لمعرفة الله ، او البرهنة على وجوده ،
الا ان رؤية الله بالابصار قضية شائكة في الاسلام . ففي القرآن
آيات صريحة على انتفاء رؤية الله ، منها « لا تدركه الابصار ،
وهو يدرك الابصار » وهناك اجماع على ان الرؤية ممتنعة في
هذه الدنيا ، وفي الحديث عن مسلم « واعلموا ان احدا منكم لن
يرى ربه حتى يموت » وعلى هذا يفسرون الحديث « رأى محمد
ربه بفؤاد مرتين » - مسلم - على انها رؤيا وليست رؤية ،
والرؤيا جائزة ومقبولة .
اما المتصوفة فقد ساروا بطريق آخر ، وقد مرت معنا

(١) الطواسين ص ٧٨ .

(٢) الطواسين ص ٧٥ .

(٣) الطواسين ص ٧٨ .

كلمات ابي يزيد البسطامي حول ذلك ، الا ان مؤرخي الصوفية ينكرون الرؤية . يقول القشيري « فرؤية الله بالابصار على جهة الكرامة غير جائزة لحصول الاجماع عليه (١) . وينقل الطوسي رأي الخراز : « ان من يدعي الرؤية فقد غلط وضل وتاه » (٢) لانها خصوص للنبي محمد وحده (٣) .

اما الرؤية في الآخرة ، فمصدق عليها ، وهناك آية توضح ان الصالحين سيرون الله يوم القيامة وفيها « وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة » (القيمة ٢٢ - ٢٤) . وعلماء المسلمين يفسرون الآية تفسيراً واضحاً وهو رؤية الله بالابصار ، ولا يشذ الا المعتزلة ، فهم ينكرون هذه الرؤية ويرون انها رؤية مجازية لا حقيقية .

والحلاج يرى امراً ، وهو ان الرؤية جائزة في هذه الدنيا ، ويرى ان الدين يبيع ذلك ويثبته ، الا انه يخصها ، وهذا التخصيص انما عنى به الرسول محمد فقط . فمعرفة الله ليست الا للرسول . . الا انه سيضيف فيما بعد انها جائزة له ايضاً وهنا تظهر المأساة !

فنلنق نظرة الى تجربة الرسول ، بعد التعرض لتجربة موسى ، فالحلاج يعيرها اهتمامه .

يروى لنا القرآن ان موسى رأى نارا فقال لاهله « امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى ، فلما اتاها نودي يا موسى . انني انا ربك ، فاخلع نعليك ، انك بالواد المقدس طوى ، وانا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » طه (١٠ - ١٤) .

وفي سورة اخرى نعلم ان موسى طلب رؤية الله عندما لاقاه ، فخاطبه الله « لن ترني » وهذه هي الآيات : « فلما جاء

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٠ .

(٢ و ٣) اللع ص ٥٤٤ و ٥٤٦ .

موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب ارني انظر اليك ، قال لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل ، جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين « (الاعراف ١٤٣) .

واستمع موسى لكلام الله ، مكتفيا بما يوحى اليه ، دون النظر او الابصار ، ولم يرفع عينيه ليرى ذلك النور او ما وراءه . الا ان الاكتفاء بالخبر ليس من المعرفة كما مر معنا ، ويحاول العلاج تبرير موقف موسى بقوله « ليكون فرقا بينه وبين خير البشر » (١) وعلى ذلك اتبعه الاتباع لانه « اذا رضي المهتدي بالخبر فكيف (لا) يكون المقتدي على الاثر » (٢) .

اما التجربة الحقيقية ، او المعرفة الحقيقية ، والمعبرة عن الرؤية ، فهي ما وصل اليه ، محمد في معراجہ عندما كان قاب قوسين او ادنى :

(والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالا فاق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة اخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يفشى السدرة ما يفشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى) - النجم -
فهذه الآيات توضح ان الرسول رأى ربه ، الا ان علماء التفسير يختلفون حول هذه الرؤية ، فبعضهم يرون ان المقصود بهذه الآيات جبريل لا الله ، وبعضهم يرى ان رؤية الله بالفؤاد ، وبعضهم يعتبرها رؤية بصرية الا انه يسكت عن التعبير ، فاللغة عاجزة عن استيعاب مثل هذه التجربة . اما الحلج

(١ و ٢) الطواسين ص ٣٢ .

فيتناول الآيات دون وجل ، ليخلص الى انها تصور رؤية الرسول
لله يبصره .

وهو يحلل ذلك في ثلاثة فصول هي : طاسين الفهم ،
وطاسين الدائرة ، وطاسين النقطة ، على انه يمهد في كل فصل
ليبيان استحالة هذه المعرفة بأسلوب معقد ، وانها غير جائزة الا
للسول ، منعطفًا الى مراحل تلك المرحلة . وسوف نؤجل كل
هذا الحديث الى حين آخر ، مكتفين هنا بذكر تفسيره
للآيات .

يقول في طاسين الفهم :

« ان كنت تفهم فافهم . ما صحت هذه المعاني لاحد سوى
احمد-« ما كان محمد ابا احد » ، الى النبيين -
وغاب عن الثقيلين ، وغمض العين عن الاين ، حتى لم يبق
له رين ولا مين ، فكان قاب قوسين حين وصل الى
مفازة علم الحقيقة ، اخبر عن الفؤاد وخبر لما وصل الى حق
عاد فقال « سجد لله سوادي » وآمن بك فؤادي « فلما وصل
الى غاية الغايات قال « لا احصي ثناء عليك » وحين وصل الى
حقيقة الحقيقة قال « انت كما اثبت على نفسك » - جحد
الهوى فلحق المنا « ما كذب الفؤاد ما رأى عند سدره المنتهى » ،
ما التفت يمينا الى الحقيقة ولا شمالا الى حقيقة الحقيقة « ما
زاغ البصر وما طفى » (١) .

وفي طاسين النقطة يقول :

« على قلبه بات عن ربه دنى (٢) ، غاب حين رأى ، ما غاب ،
كيف حضر ما حضر ، كيف نظر ما نظر .
« تحير فابصر ، ابصر فتحير ، شوهده فشاهد وصل

(١) الطواسين ص ١٨-٢٠ .

(٢) الطواسين ص ٣٢ - ٣٥ . دنى : هكذا وردت في النص .

فانفصل ، وصل بالمراد فانفصل عن الفؤاد ما كذب الفؤاد
ما رأى .

« اخفاء فادنائه واولاه فاصفاه واروا فغذاه وصفاه فاصطفناه
ووعاه فغذاه ، وبلاه فاشفاه ووقاه فاسطاه .

« فكان قاب حين تاب واهاب ، ودعي فأجاب ، وابصر فغاب ،
وشرب فطاب ، وقرب فهاب فارق الامصار والانصار والابصار
والاثار .

« ما ضل صاحبكم » في مضافتنا ومعاملتنا . ما ضل
صاحبكم في بستان الذكر في مشاهدتنا وما غوى في جولان
الفكر . بل كان للحق في الانفاس واللحظات ذاكرة وكان على
البلايا والعطايات شاكرا ان هو الا وحي يوحى من نور السى
نور .

« اقلب الكلام وغاب عن الاوهام ، وارفع الاقدام عن الورى
والانام واقطع منه النظم والنظام ، وكن هائما مع الهيام ، واطلع
لتكون طائرا بين الجبال والاكام ، جبال الفهم واکام السلام ،
لترى ما ترى فتصير فمصام الصيام ، من مسجد الحرام . ثم
دنى كأنه دنى من معنى ثم حاجر كعاجز لا كعاجر ثم من مقام
التهذيب الى مقام التأديب ، ومن مقام التأديب الى مقام التقريب
دنا طلبا فتدلى هربا ، دنا داعيا فتدلى مناديا ، دنا مجيبا فتدلى
قريبا ، دنا شهيدا فتدلى مشاهدا .

فكان قاب قوسين يرمي « اين » بسهم بين اثبت قوسين
ليصحح اين او لغيبة العين ، ادنى بعين العين . . . »
الى آخر ذلك الكلام ، والذي يثبت حالة الحلاج الغريبة وهو
يكتب هذا الكلام بل هذه الرموز او الشطحات او **الهديان** ! على
انه يمكن ان نستخلص عدة امور هامة من النظر في هذا
النص الطويل . اولها ان المعرفة هي مشاهدة الله ، وثانيها ان
المشاهد يصبح نورا ، فالوحي من النور الى النور ، وثالثها ان
الرسول شاهد الله بعينه .

الوصول الى الرؤية :

اذا غاية الامر ، الرؤية هي معرفة الله ، ولكن كيف يتم الامر ؟ يذكر الحلاج ضرورة قطع اربعين مقاما تنتهي بمقام البداية ، وهو مقام اهل الصفاء (١) . ثم تبدأ بعد ذلك رحلة اخرى نحو الحقيقة ، وما بعد الحقيقة .

وله في ذلك تعبيرات خاصة ، ففي طاسين السراج يذكر ثلاثة مراحل تعبر نحو الحقيقة ، ثم نحو حقيقة الحقيقة ، ثم حق الحقيقة ، ويؤكد لها في طاسين الفهم ، الا انه في طاسين النقطة يورد المراحل كالاتي : مفازة الحقيقة ، حق الحقيقة ، الحق ، غاية الغايات ، وحقيقة الحقيقة . اما في طاسين الدائرة فيوغل بالرمز مستخدما الرسم ، وسنكتفي من كل هذا بايراد ما ذكره في طاسين الفهم ، وفيه تجد تشبيها جميلا :

« الفراش يطير حول المصباح ، الى المصباح . ويعود الى الاشكال فيخبرهم عن الحال بالطف مقال . ثم يمرح بالدلال ، طمعا في الوصول الى الكمال .

« ضوء المصباح علم الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول اليه حق الحقيقة .

« لم يرض بضوئه وحرارته ، فيلقى جملته فيه ، والاشكال ينتظرون قدومه ، فيخبرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشيا ، متصافرا ، متطائرا ، فيبقى بلا رسم وجسم واسم ووسم ، فلاي معنى يعود الى الاشكال وبأي حال بعد ما جاز ، صار من وصل الى النظر ، استغنى عن الخبر ، ومن وصل الى المنظور استغنى عن النظر » (٢) .

وقد مر معنا ان الحلاج يرى هذا خاصا بالرسول ، الا انه يرى كذلك ، انه وصل الى هذه الرتبة ، اي انه يرى الله ، وقد

(١) الطواسين ص ١٦ .

مر معنا أيضا خلال تحليل تجربته كيف انه يرى الله .. وهو يتابع هنا قائلا :

« لا يصح هذه المعاني للمتواني ولا الفاني ولا الجاني ولا لمن يطلب الاماني كآني كآني ، وكآني هو ، او هو آني ، لا توق عيني ، ان كنت انى . يايتها الظان لا تحسب ، انى « آنا » الآن او يكون او كان . (١)

اذآ ، فالموضوع كله يدور حول تجربة الحلاج الصوفية ، حيث يدعي انه يرى الله ، وانه في مستوى الرسول اثناء معراجة ..

- ٢ -

- السراج -

لنعد الى تحديد الحلاج للمعرفة ، بعد ان حللنا الشطر الاول منه ، ولندقق في شطره الآخر لنصل الى القصد من صرخته « آنا الحق » . يقول : « العارف من رأى ، والمعرفة بمن تبقى » وقد تبين لنا ان الرسول هو العارف الوحيد ، وان الحلاج لا يعتبر نفسه الحلاج بل هو : « كآني كآني ، وكآني هو ، او هو انى .. الخ » فماذا يقصد بهذا « الهو » ؟ وماذا يقصد بمعرفة من تبقى ؟ وهو يقول في مكان آخر « ان لم تعرفوه ، فاعرفوا آثاره » فماذا يقصد بهذه الآثار ؟

نقلت تحليل الحلاج لتجربة المعراج من طاسين النقطة ، وهو يتبع ذلك كلام ملثو غيز مفهوم عن الرسول ، وتجربة الدنو والحقيقة ، وتهمنا من ذلك جملتين يقول في اولها « ما خاطب المولى الا اهلا » وهي تعضد جملته السابقة « يوحى من

(١) الطواسين ص ١٦ و ١٨ .

نور الى نور» . اما الجملة الثانية فهي غريبة نوعا ما « من لا استاذ له ولا تلميذ ولا اختيار ولا تمييز ولا تمويه ولا تنبيه ، لا به ، لا منه ، بل فيه ما فيه ، هو فيه لا فيه فيه ، تيه في تيهه ، اية في اية » (١) ولعله يعني بذلك ما يصير اليه الذي يرى الله ، الا انه في طاسين السراج يبدو اكثر وضوحا وهو يعبر عن الموضوع نفسه .

وكاني بالحلاج يحاول تبرير تجربته ، كيف يرى الله دون البشر كلهم ؟ ولذلك يتخذ من الرسول الذي رأى الله باعتراف معظم المسلمين ، يتخذه منارا ، فاذا به شخصية اخرى بعد رؤيته الله ، واذا به نور من الله ، او لم يقل ان الوحي من نور الى نور او لم يقل ان الله لا يخاطب الا اهله ، وانه فيه . . اذا فمحمد الذي يتحدث عنه الحلاج ليس محمدا المعروف ، بل محمد النور الذي رأى ربه . وبالنتيجة الحلاج هو هذا النور « كاني هو ، او هو اني » .

فلنمض مع الحلاج في طاسين السراج لنرى من هو محمد الذي يتحدث عنه ويحلل معراجه ، والذي ابصر فخبير ، والذي رفع الله قدره ، فاذا به بدر او شمس او سراج . يقول :

« ما ابصره احد على التحقيق سوى الصديق ، لانه رافقه ثم رفاقه ، لئلا يبقى بينهما فريق ، ما عرفه عارف الا جهل وصفه » (٢) .

اذا ، فما يتحدث عنه الحلاج ليس الرسول المعروف ، وهذا يأتلف مع حديث موضوع ومتداول ، وفيه ان الرسول لم يخبر احدا عن حقيقة دعواه الا لابي بكر الصديق . . وهو حديث موضوع ، الا ان ما يهمنا من هذا هو ان الناس كلهم يجهلوناه ، اما صفاته فهي :

(١) الطواسين ص ٣٨ .

(٢) الطواسين : طاسين السراج ص ٩ - ١٥ .

« انوار النبوة من نوره برزت . . . الخ
« همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم واسمه سبق
القلم ، لانه كان قبل الامم . . الخ
« وهو سيد البرية ، الذي اسمه احمد ، ونعته اوجد ،
وذاته اوجد . . الخ .
« لم يزل ، كان . . كان مشهورا قبل الحواديث والكواين
والاكوان . ولم يزل كان مذكورا قبل القبل وبعد البعد
والجواهر والالوان . . الخ . .
« قبيلته « لا مشرقى ولا مغربى . . الخ
« باشارته ابصرت العيون ، به عرفت السرائر والضمائر ،
والحق انطقه . .
« هو الذي بكلام قديم لا تحدث ولا مقولة ولا مفعول ، بالحق
موصول غير مفضول ، الخارج عن المعقول . . الخ « **العلوم كلها**
قطرة من بحره » . .
« الحق به وبه الحقيقة .
« ما وصل الى علمه عالم ولا اطلع على فهمه حاكم ، الحق
ما اسلمه الى خلقه لانه هو انى هو هو وهو هو . . الخ . . (1)
وخلاصة هذا الكلام ان محمدا نور قديم ، به كانت النبوات
الا ان قدمه ليس كقدم الله لان الحق انطقه ، وهو بالحق ، والحلاج
هو . . وبالطبع ليس الحلاج المعروف مثلما ان نور محمد ليس
محمدا . وكان هذا النور استقر في محمد المعروف ثم استقر
في الحلاج المعروف ، فجاز لهما ان يريا الله وان يعرفاه .
فالسراج اذا ، فكرة عرضها الحلاج ليجيز لنفسه تجربته ،
الا انها فكرة غريبة عن الاسلام . ونجد لها اصولا عديدة .
فهي على صلة بالكلمة الواردة في مطلع انجيل يوحنا :
« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة

(1) الطواسين : طاسين السراج ص ٩ - ١٥ .

الله ، هذا كان في البدء عند الله ، وكل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ، فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . « فالكلمة من الله ومنها صدر كل شيء ، فهي اشبهه بالسراج لولا انها كانت سببا للحياة .

كما ان فكرة السراج او نور محمد ذات صلة وثيقة بفكرة الائمة عند الشيعة ، فالامام عندهم ملهم ، متصل بالله ، يوحى اليه ، وهو معصوم ، ويرث العلم الالهي ، وشفيع الناس يوم القيامة عارف بالماضي والمستقبل ، ونور من الله . . الى غير ذلك عن وجوده السابق (1) .

وتجد مثيلا لها عند الفلاسفة ، فالعقل الفعال عند الفارابي (الذي يصفر الحلاج بثلاث عشرة سنة والذي توفي بعده بثلاثين سنة) وجود مفارق يهب الصور ، وينقل الاشياء من القوة الى الفعل ، والعقل الفعال مصدر الالهام والوحي والنبوة . الا ان ما يسميه الحلاج سراجا ليس مفارقا كالعقل الفعال ، الا انه يملك مثله المقولات في ذاته .

وقد ذهب ماسنيون مذهباً خاصاً حول هذا الموضوع ، فالفكرة عنده نظرية تسمى « هو هو » وهي تعتمد على ان لله

(1) وتزداد الصلة احكاما عندما ننظر في الائمة عند غلاة الشيعة ، واستعارتهم للابحاث الفنوصية لتكوين افكارهم عن توحيد الله وصدور الائمة عنه ، بما هم فيه من الالوهية واستعارتهم بالنور الفنوصي لتكوين فلسفة متكاملة . والمراجع التي في ايدينا لا تنبئ عن تطور هذه الافكار ، بل تقدم لنا نظرية متكاملة . الائمة فيها اول ما صدر وبهم كان الوجود . ولذا لا يمكن ان تحكم على مدى تاثر الحلاج بافكار الشيعة الغلاة ما دام سراجهم ليس مصدرا للوجود وللحياة مثلما الائمة عند هؤلاء . على اننا نستطيع ان نؤكد ، ان الحلاج وهو يضع آراءه لا يبني نظرية عامة ، ولا يبني نظرية دوغمائية على غرار غلاة الشيعة لان حسه الاسلامي ظل بارزا تجاه اقواله ، وهذا ما سوف نوضحه في بحث الالتباس .

لاهوتا وناسوتا ، والهوهو عبارة عن ناسوت الله الذي ظهر في آدم . . ويعتبرها اساس نظرية ابن عربي عن الحقيقة المحمدية ونظرية الجيلي عن الانسان الكامل . .

الا ان الاختلاف كبير بين سراج الحلاج والحقيقة المحمدية وان كان هناك اتفاق بين الموضوعين . واساس الاختلاف يرجع الى تصور الله عند الحلاج وعند ابن عربي ، فالحلاج ينزه الله ، اما ابن عربي فقد وحد بين صفات الله والعالم بواسطة الاعيان الثابتة . ولذا فسراج الحلاج مصدر الكلام والنبوة فقط ، اما الحقيقة المحمدية فمبدأ كل الحياة .

وسراج الحلاج يختلف كذلك عن الانسان الكامل ، فهذا ايضا مبدأ الحياة والعلة الاولى لكل المخلوقات ، بل اننا نلمح في طياته ، انه القانون الذي تسيّر عليه الحياة عدا عن كونه الخليفة نفسها ، وهو صورة الله ايضا .

وعلى هذا الاساس نرفض نظرية ماسنيون ، فاذا اقمنا وقبلنا بتقسيم الله الى لاهوت وناسوت ، وان الناسوت هو « هو هو » فمعنى ذلك ان « هو هو » الانسان بطبيعته - الجسمية والروحانية - وسراج الحلاج لا يصل الى هذا الحد بل هو مجرد مصدر للالهام والوحي فقط ، ثم لا ننسى انه مخصوص ، وليس عاما ، بمعنى انه ليس كالحقيقة المحمدية مصدرا لكل انسان .

وقد قال ماسنيون ان السراج هو العقل الفعال ، الا انه من الضروري التذكير ، بما يناسب هذه الفكرة في الدين الاسلامي نفسه ، اي دور جبريل كواسطة للعلم والنبوة . ان الفكرة اصطنعت لتبرير رؤية الله ، او الالهام عامة ، فالحلاج يضع نفسه بجانب الرسول ، لكن باب النبوة اغلق نهائيا ، وقطع نسل الانبياء ، فكيف يضع نفسه هذا الوضع ؟ اوجد فكرة السراج ، واعتبر نبوة محمد ازلية وانه نور من الله ، فآين دور جبريل ؟ الفتي ، وادغم بهذا السراج ، واصبح نور

محمد ، وبه رأى الله ، وبه كان الوحي ، وبما انه ازلي حق للحلاج ان يدعي انه هو ، اي ان نور محمد فيه .

وقد ذكر الحلاج في آخر طاسين السراج « الحق مسا اسلمه الى خلقه لانه هو ، واني هو ، وهو هو » فهو السراج ايضا اي هو محمد او نوره . وهذا يأتلف مع كون جبريل مصدر النبوات .

ولاعتقاده انه السراج جاز له ان يقول « انا الحق » اي انا نور الله ، او السراج او نور محمد . والدليل على ذلك انه يقول ايضا « انه لم تعرفوه فاعرفوا آثاره » اي اذا لم تعرفوا الله فاعرفوا نوره او سراجة ، وسراجة هو الحلاج ، لذا يتابع قائلا « وأنا ذلك الاثر » وهو لم يقصد ب « انا الحق » : انا الله الخالق كما ذهب ماسنيون لان الله الخالق متعال عند الحلاج ، والدليل على ذلك قوله « وانا ذلك الاثر ، وانا الحق لانني ما زلت ابدأ بالحق ايضا » (١) فالأثر او السراج هو الحق ، وهو غير الله ، بل بالله .

وبما ان الحلاج هو الاثر او السراج لذا صحت له الرؤية الخاصة بالرسول ، واصبحت جائزة ومقبولة ، ما دام هو الرسول نفسه ، نعم ان الانسان العادي لا يستطيع رؤية الله ، الا ان من كان السراج او نور محمد فسيراه ، بل وسينسب نفسه الى الله .

وكأنه أراد بهذه الشطحة الفكرية ، الا يحل مشكلته فحسب ، بل ان يحل مشكلة المعرفة ايضا ، فاذا كانت معرفة الله جائزة له ، فهي غير جائزة لغيره ، ولذا يقترح بعد ان صعد عاليا ، على الناس الذين يريدون معرفة الله ان يكتفوا بمعرفته ، « فالمعرفة بما تبقى » و « ان لم تعرفوه فاعرفوا آثاره . وانا هذا الاثر . . انا الحق . . » ..

(١) الطواسين ص ٥١ .

وهو بذلك ينقل قول المسيح « من رأني فقد رأى الاب »
وينسب الى الرسول محمد حديثا مشابها لكنه موضوع .
ويهمنا في هذا كله ان نقف مع الحلّاج الذي نشد رؤية
الله دون اجنحة ، ان يوحد الله توحيدا لم يصح الا لرسوله ،
والذي لم يرض بضوء المصباح وحرارته بل القى بنفسه في
النور ، ليخبر عما شاهد .

فهل يمكن ان ننعت هذا الكلام بانه اتحاد او حلول ؟ وحتى
يستقيم السؤال يجب ان نستفهم : هل اعتبر محمد في معرّاجه
اتحاديا وحوليا ؟ هل ادعى مؤلف ان مشاهدة الرسول لربه كان
اتحادا او حولا ؟ ما من شخص قال ان محمدا اتحد بالله ، والكل
متفقون على انه رأى الله فحسب . وكذا الامر بالنسبة للحلاج .
وكذا يجب ان يكون الموضوع . لذا نرفض كل الدعاوي التي
تعتبره حوليا او اتحاديا .

ظل الحلّاج ينمو حتى وصل الى رتبة محمد ، فرأى الله ،
هذه هي دعواه ، وقد حاول تبرير ذلك بالسراج او النور
المحمدي ، ليجعل نفسه بمستوى محمد لا غير .

ثم ان الحلّاج نفسه رفض الحلول او الاتحاد قائلا « من يظن
ان الالهية تمتزج بالبشرية ، والبشرية تمتزج بالالهية فقد كفر ،
فان الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ولا
يشبههم بوجه من الوجوه .

ويقول ايضا : فالله مترائي عن كل هيكل وصورة من غير
مماسة ومزاج »

الا انه وهو يضع نفسه بجانب محمد ، مدعيا رؤية الله ،
منشدا اشعاره المخالفة لهذه الاقوال ، وضع نفسه موضعا
خطرا ، لان الله لا يظهر « الا في حال الالتباس » ، نعم انه يتجلى
لمن شاء ، والتجلي ليس حولا ولا اتحادا . بيد ان الموقف
محير . ولم يكن الحلّاج جاهلا بهذا ، لذا مضى قدما بتصوير
حاله الفريية .

الالتباس

وهذا طاسين آخر ، سماه : طاسين الازل والالتباس ، وفيه كما في طاسين المشيئة ، يعرض لنا الحلّاج آراء غريبة كذلك ، مخالفا فيه الاعراف والتفاسير والآراء ، وكان هذا الكتاب حوى كل غريب سواء بأسلوبه او غموضه او افكاره ، مضيفا الى شخصية الحلّاج الغريبة ، والى حياته وقلته ، والآراء فيه صفحة اخرى من صفحات الاسطورة !

وقد مر معنا حتى الآن ، انه ينفي معرفة الله لانه يعرف بالرؤية ، والرؤية غير جائزة الا لمحمد ، فهي لا تصح لغيره ، فصنع الحلّاج فكرته عن السراج ليبرهن على انها جائزة له ، وهنا تبدو مأساته . فالحلّاج وان وضع هذه الفكرة ، الا انه يدرك ان الرؤية باب مسدود اغلقه محمد ، والعلماء المسلمون من بعده الى الابد . فاذا اخترق الحلّاج الحجاب تكرر الالتباس الذي وقع ابليس فيه في الازل ، ويكون الابتلاء .

كيف يدعي مثل هذه النظرية عن النور المحمدي ، وكيف يتبادي انه هذا النور ؟ وبالتالي كيف يقول انه الحق . ؟ انسه لا يستطيع الا ان يدعي هذا ، وان خالف الشرع ، وكأنه مجبر على ذلك ، واجباره هو موضوع الالتباس مثلما كان عدم سجود ابليس لادم موضوعا لالتباس آخر . فابليس والحلّاج رضيا بهذا البلاء لانه خارج عن ارادتهم ، وكان الحلّاج بذلك يريد ان يقول : انني لم اكن لاصبح نور محمد او انسي لم ار الله لو لم يشأ الله ذلك وان نص على خلافه .

والذي يستوقف هنا ، ان الحلّاج يعي مشكلته ، ويدرك جوانبها المعقدة ، مثلما يدرك نتائجها القاسية . انه يعرف انه صاحب دعوى ضخمة ، لذا يحاول ها هنا ان يبرر من جديد

ما وصل اليه . فيضع مقدمة غريبة يبين فيها ان ابليس استاذ المنزهين لله ، وانه في عصيانه لله كان ذاك المنزه ايضا . ليصل الى فكرة الالتباس التي وقع فيها ابليس ثم فرعون ثم الحلاج نفسه ، مندفعاً الى آخر ما يستطيع ليدافع عن نفسه وعن فكرته : رؤيته الله ، وكونه النور المحمدي .

وقد جعل الحلاج الموضوع في بعضه حواراً ، وفي بعضه الآخر سرداً روائياً ، وهو في كل هذا يكتب بأسلوب عاطفي ، وكأنه يعطف على اشخاصه العطف الكبير ، فيبتعد عن الفكر الجاف . والحوار الاول يدور بين الله وابليس في الازل .

قال له : اسجد .

قال (ابليس) : لا غير .

قال له : وان عليك لعنتي .

قال : لا غير . . . مالي الى غيرك سبيل واني محب ذليل .

قال له : استكبرت

قال : لو كان لي معك لحظة ، لكان يليق بي التكبر والتجبر ، وانا الذي عرفتك في الازل « انا خير منه » لان لي قدمة فسي الخدمة ، وليس في الكونين اعرف مني بك ، ولي فيك ارادة ، ولك في ارادة ، ارادتك في سابقة . . ان سجدت لغيرك . فان لم اسجد ، فلا بد لي من الرجوع الى الاصل ، لانك خلقتني من النار ، والنار ترجع الى النار ولك التقدير والاختيار (1) ويزداد رأي الحلاج بابليس وضوحاً في الحوار الثاني ، ويدور هذا الحوار بين موسى وابليس في الطور .

قال له موسى : يا ابليس ! ما منعك عن السجود ؟

فقال : منعني الدعوى بمعبود واحد . ولو سجدت له لكنت

مثلك ، فانك نوديت مرة واحدة « انظر الى الجبل » فنظرت .

ونوديت انا الف مرة ان اسجد فما سجدت لدعواي .

(1) الطواسين ص ٤٣-٤٥ .

فقال له : تركت الامر ؟
قال : كان ذلك ابتلاء لا امرا .
فقال له : لا جرم قد غير صورتك .
قال : يا موسى ذا وذا تلبيس ، والحال لا معول عليه فانه
يحول ، لكن المعرفة الصحيحة كما كانت وما تغيرت وان
الشخص قد تغير .

فقال موسى : الآن تذكره .
فقال : يا موسى الفكرة لا تذكر ، انا مذكور وهو مذكور ،
ذكره ذكري ، وذكري ذكره ، هل يكون الذاكرون الا معا ؟ خدمتي
الآن اصفى ووقتي اخلى ، وذكري اجلى لانني كنت اخدمه فسي
القدم لحظي والآن اخدمه لحظه ..

الى ان يقول : حيرني طردني لئلا اختلط مع المخلصين ،
ما نعني عن الاغيار لغيرتي ، غيرني لحيرتي ، حيرني لغربتي ...
وينهي الحوار بقوله :

- وحقه ما اخطأت في التدبير ولا رددت التقدير .. ان
عذبني بناره ابد الابد ، ما سجدت لاحد ، ولا اذال لشخص
وجسد ، ولا اعرف ضدا ولا ولدا ، دعواي دعوى الصادقين وانا
في الحب من الصادقين (1) .

وخلاصة هذا الحوار ، ان ابليس يؤمن بمعبود واحد هو
الله ، وانه لا يسجد الا لهذا المعبود ، وقد طلب منه الله ان
يسجد لادم مع ان السجود غير جائز الا للمعبود ، فوقع بالتباس
وحيرة ، ايطيع امر الله ، ام يستمر بافراد عبوديته لله ؟ وهو
التباس مر ، ولما كان ابليس اعرف المخلوقات بالله ، واكثرهم
توحيدا له ، لذا رفض الامر ، وهو ليس امرا بالاحرى ، انه
ابتلاء . وقد طرده الله ولعنه لانه غار على التوحيد ! ويزداد
الامر تعقيدا ان ابليس - والذي كان يسمى عزازيل - كان يعرف

(1) الطواسين ص ٢٦ .

ماذا سيحدث ، وهو يقول في مناظرة اخرى مع الله :
« وأنا قرأت في كتاب مبين ما يجر عليّ ياذا القوة
المتين » (١) . فبفضل علمه باللوح المحفوظ الذي سطر عليه ما كان
وما سيكون عرف انه قد كتب عليه الا يسجد . ولذا يتابع الحلاج
موضحا هذا . قال الحق لابليس :

« الاختيار لي . لا لك .

فيرد ابليس : الاختيارات كلها ، واختياري لك ، قد
اخترت لي يا بديع ، وان منعتني عن سجوده فانت المنيع ، وان
اخطأت في المقال فلا تهجرني ، فانت السميع ، وان اردت ان
اسجد له فانا المطيع . لا اعرف فسي العارفين اعرف بك
مني (٢) .

فالحلاج يفرق بين الارادة الالهية الازلية ، وهي التي
اقتضت عدم سجود ابليس ، وبين الامر الذي طالبه بالسجود .
فاطاع ابليس الارادة وعصى الامر . . ولذا يقول ايضا :

« لو علمت ان السجود ينجيني لسجدت ، ولكن قد علمت
ان وراء تلك الدائرة الدوائر فقلت في خالي (!) هب نجوت من
هذه الدائرة كيف انجو من الثانية والثالثة والرابعة . . (٣)
والدائرة التي عناها هي مشيئة الله ، والثانية حكمته والثالثة
قدرته ، والرابعة معلوماته وازليته . . (٤) .

اذا موضوع الالتباس كون ابليس موحدًا ، وكونه يعرف
ان الله كتب عليه الا يطيع امره ، ويحاول الحلاج ان يجد تعليلا
لهذه الارادة الالهية او المشيئة التي اقتضت عدم سجود عزازيل،
فيورد رأيا اخر اشد غرابة في ذاك العالم الاسلامي المطمئن السى
دينه ، فهو حتى في شره وعدم طاعته موحد ايضا لان الاشياء

(١ و ٢ و ٤) الطواسين الصفحات على التوالي ص ٥٣ ص ٥٣ ص ٥٧ ص ٥٦ .

لا تعرف الا بضدها ، ونحن لن نعرف الله الا اذا عرفنا نقيضه .
يقول :

« وفي احوال عزازيل اقاويل ، احدها انه كان في السماء
داعيا وفي الارض داعيا ، في السماء دعا الملائكة بربهم المحاسن ،
وفي الارض دعا الانس بربهم القبائح .

« لان الاشياء تعرف بأضدادها . . . ومن لا يعرف القبيح
لا يعرف الحسن » (١) .

والسؤال بعد ذلك ، ما الهدف من هذا الدفاع عن ابليس؟
هل هو مجرد فكرة وردت للحلاج يريد فيها اعتبار ممثل الشر
منزها فقط ؟ ان عنوان الفصل هو الالتباس ، ولذا نجد ان
الهدف وراء ذلك ، وكان كل هذا مقدمة ليصل الحلاج الى نفسه
موضحا ان ما وقع فيه من دعاو هو من جنس دعوى ابليس ،
اي انه **ذاك المنزه وان ادعى انه يرى الله** . وهذه هي العلاقة التي
تجمع الاثنين لبعضهما . وخص هذا الموضوع بحوار آخر يدور
بينه وبين ابليس وفرعون ، وكلهم من جامعة الفتوة ، والفتوة
عبارة انتشرت بين فئات المتصوفة ، كرمز للانسان الخالي من
كل شيء ما عدا الله .

« قال ابو عمارة الحلاج وهو العالم الغريب : تناظرت مع
ابليس وفرعون في الفتوة فقال ابليس : ان سجدت سقط عني
اسم الفتوة .

وقال فرعون : ان آمنت برسوله وقولي سقطت من بساط
الفتوة .

وقلت انا : ان رجعت عن دعواي وقولي سقطت من بساط
الفتوة .

وقال فرعون : ما علمت لكم من اله غيري . حين لم يعرف

(١) الطواسين ص ٩ .

قومه من يميز بين الحق والباطل .

وقلت انا : ان لم تعرفوه فاعرفوا اثاره . وانا ذلك الاثر،
وانا الحق لانني ما زلت ابدا بالحق حقا .

فصاحبي واستاذي ابليس وفرعون . وابليس هدد بالنار،
وما رجع عن دعواه وفرعون اغرق في اليم وما رجع عن دعواه،
ولم يقر بالواسطة البتة .

وان قتلت (او صلبت) او قطعت يداي ورجلاي وما رجعت
عن دعواي (١) .

وضح الامر اذا ، فالقضية من اولها الى اخرها ، تدور حول
تجربة الحلاج الصوفية لا غير . فنحن امام انسان تحرر من كل
الفيود ووقف وجهها لوجه امام الله ، بعد عذاب وقلق وهجرة ،
فأصبح فوق مقام موسى ، الى جانب محمد ، مدعيا انه يرى الله
مثله ، والمعرفة ليست سوى هذه الرؤية لا غير . ولكن كيف
سمح لنفسه ان يقف هذا الموقف ؟ دبر الامر مدعيا انه نور محمد
فالذي رأى الله هو نور محمد القديم سواء في المعراج او في قول
الحلاج انا الحق . ولكن - مرة اخرى - كيف اجاز مثل هذه
الدعوة ؟ دبر الامر من جديد مدعيا ان القضية قضية التباس ،
فكما ان ابليس ابتلي بين ان ينزه الله ولا يسجد لغيره ، وبين
السجود لآدم ، فرفض السجود ، ولو شاء الله له ان يسجد
لسجد . . انه ابتلاء بصيفة امر . . والحلاج مثله منزه . . ويعلم
انه لا يجوز ادعاء رؤية الله . . لكنه رأى الله . . فهو في ابتلاء
ايضا ، بين ان يطيع الامر الشرعي، وبين ان يعبر عن ارادة الله
التي شاءت له ان يرى كمحمد ، وقد اختار طاعة الارادة على
طاعة الامر الشرعي ، ولو ادى ذلك الى تلك المأساة المروعة ،
والتي نطن ان الحكام كانوا يهددونه بها الى ان نفذوها .

(١) الطواسين ص ٥٠-٥٢ .

- التوحيد -

حاولت في الصفحات السابقة ان اعرض الجوانب المفهومة من الكتاب الغريب ، وقد اشتمل ذلك على عرض موضوع واحد هو تجربة الحلاج ، وقد اتخذت اشكالا ثلاثة تتم بعضها ، من كون المعرفة هي رؤية الله ، الى جواز رؤية الله من قبل النور المحمدي ، معتبرا نفسه هذا النور ، الى الابتلاء الذي يعتقد انه وقع به لهذا الاعتقاد الغريب والمرفوض دينيا .

ولعله ليس هناك افضل من ان ننهي هذا الكتاب بالحديث عن الحلاج الموحد والمنزه صاحب الرؤية ، وهذا ما يقتضيه سياق البحث ، ولم يبق من الطواسين الا فصلان عن التوحيد يجب ان نتعرض لهما ، لاكمال النواقص من اخباره ، فيكون هذا عود الى بدء ، يللم اطراف تجربة الحلاج الصوفية بعد ان اشبعناها تحليلا .

الحلاج من المؤلفين بتنزيه الله ، ولننظر في هذه الجملة التي يقولها «الحق واحد، احد ، وحيد ، موحد» . . (١) ولننظر في الجملة التالية ، والتي يتحدث فيها عن اسرار التوحيد، والتي يمكن اعتبارها تنمة للاولى « هي حد . والحد لا يستثنى عليه احديته ، واوصاف الحد الى المحدود ، والموحد لا يحد» . . (٢) فهو يرى ان الله واحد ولا يحد . وهذا يأتلف مع فكرته عن المعرفة ، لان معرفة الله لا تكون ، وهو هنا يرى ان توحيد الله لا يكون ، ولذا يقول «التوحد صفة الموحد لا صفة الموحد» (٣) .

(١) الطواسين ص ٥٨ .

(٢) الطواسين ص ٦٠ .

(٣) الطواسين ص ٥٨ .

وشبيهه بذلك قوله في طريقه الى الصليب « حسب الواجد افراد له » والتي ما سمعها شيخ من شيوخ بغداد الا واستحسنها و « قيل للحلاج : اهو هو ؟ قال : بل هو وراء كل هو ، وهو عبارة ملك ما لا يثبت له شيء منه » .

فالله لا يعرف ولا يحد ، فالحق حق والخلق خلق ، بيد انه يصف الله بصفة واحدة وهي كونه قديما . فالفرق بين الانسان وربّه ، كون الله قويا وكون الانسان محدثا مخلوقا . والحلاج ينفي كل الصفات عن الله واصلا الى النفي المطلق . لننظر الى هذا النص الطويل والذي يقدم له بأحوال المخلوق ليحكم المقارنة بينه وبين الحق . يقول :

« الزم الكل الحدث لان القدم له . فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه ، والذي بالاداة اجتماعه فقواها تمسكه والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه ، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي اليه ، ومن اداه محل ادركه اين ومن كان له جنس طالبه كيف .

« انه سبحانه لا يظله فوق ، ولا يقله تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده امام ، ولم يظهره قبل ، ولم يفتيه بعد ، ولم يجمعه كل ، ولم يوجد له كان ، ولم يفقده لبس ، وصفه لا صفة له ، وفعله لا علة له ، وكونه لا امد له ، تنزه عن احوال خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ولا من فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم ، ان قلت متى سبق الوقت كونه ، وان قلت هو فالهاء والواو خلفه ، وان قلت اين تقدم المكان وجوده ، فالحروف اياته ووجوده اثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه . ما تصور في الاوهام فهو بخلافه ، كيف يحل به ما منه بدا او يعود اليه ما هو انشأه ، لا تماثله العيون ولا تقابله الظنون .

« قربه كرامته وبعده اهائه ، علوه من غير توغل ، ومجيئه

من غير تنقل ، هو الاول والاخر والظاهر والباطن ، القريب البعيد ، الذي ليس كمثل شئ وهو السميع البصير » (١) .
فهو كالمعتزلة ينفي الصفات ، ويهمننا ما يختلف الحلاج عنهم وذلك واضح في المقطع الثالث ، اي قوله « قربه كرامته . . » وما هذا القرب الا الرؤية . وحتى لا نحسب انه الحلول او الاتحاد يقول « مجيئه من غير تنقل » .
واليك نص آخر يؤكد هذا . يقول الحلاج مكفرا من يقول بالحلول :

« من ظن ان الالهية تمتزج بالبشرية ، او البشرية تمتزج بالالهية ، فقد كفر ، فان الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الاشياء ، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث ، ومن زعم ان البارئ في مكان او على مكان او متصل بمكان ، او يتصور على الضمير ، او يتخايل في الاوهام او يدخل تحت الصفة والنعت فقد اشرك (٢) .

ورب قائل ، لم لا تكون هذه النصوص مقولة على الحلاج ؟ اولم نضعه ضمن الاسطورة ؟ ونحن لا نقصد من هذا الاستشهاد ان نجعل الحلاج منزها فحسب ، بل ان ما نهدف اليه يتفق مع اسطورته ، ان نفي الاتحاد او الحلول ، لا يعني حذف التناقض في قضيته ، لجعله منزها وكأنه ابن تيمية ، بل المقصد شيء واحد هو جر هذا التناقض الى الوضع الذي تصوره لنا تجربته ، والى الوضع الذي عبر عنه بالطواسين ، فالله منزه الا ان « قربه كرامته » والقرب هو الدنو ، وقد ذكر الحلاج في الطواسين انه بحث في الدنو ، والدنو عنده هو الرؤية . . والرؤية ممنوعة . . هذه هي دعواه على الرغم من ان الله لا

(١) الرسالة القشيرية ص ٤ واخبار الحلاج ص ٣١ .

(٢) اخبار الحلاج ص ٤٧ .

يوصف ولا يعرف .

وقد ذكرت ان الحلاج يبتدىء نصوصه بالتنزيه فاذا اطمأنت نفسه وسكنت وطاب له الجو اتبعه بنص آخر ، او اتبعه بابيات تصف تجربته ، وهذا مثال آخر من بين الامثلة العديدة ، منها الى ضرورة تناول النص باكملة كوحدة واحدة ، دون فصل القسم الاول ، وهو يدور حول تنزيه الله عن القسم الثاني ويدور حول الرؤية :

عن احد رواته : . . . « فقلت له : كيف الطريق الى الله تعالى ؟ قال : الطريق بين اثنين ، وليس مع الله احد . فقلت : بين ؟ قال : من لم يقف على اشاراتنا لم ترشده عباراتنا ، ثم قال :

أنت أم أنا هذا في الهين

حاشاك حاشاك من اثبات اثنين

هوية لك في لائتي ابدا

كلي على الكل تلبس بوجهين

فأين ذاتك عني حيث كنت أرى

فقد تبين ذاتي حيث لا أين

وأين وجهك مقصود بناظري

في باطن القلب أم في ناظر العين

بينني وبينك اني يزاحمني

فارفع بانيك انيسي من البين

« فقلت : هل لك ان تشرح هذه الابيات . قال : لا يسلم

لاحد معناها الا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) استحقاقا ولي تبعاً . (١) .

وكاني بالحلاج يلخص كل تجربته بهذه الابيات وبهذه

الاجابات ، فوالله لا يعد ، ولا طريق اليه الا انه يراه مطالباً

(١) اخبار الحلاج ص ٧٥ .

بالتخلص من حياته ليكون مع الله ، وهذا ما لا يصح فهمه الا للرسول وحده ، ثم للحلاج كتابع نال النور المحمدي .
والعجيب ان الذين يريدون ان يكون الحلاج منزها ، يأخذون قوله الاول على انه مثال فريد للتنزيه « الطريق بين اثنين وليس مع الله احد » اما الذين يريدون ان يكون الحلاج ملحدا ، فيثبتون ذلك من تحليل البيت الاخير ، اخذ القول الاول الدكتور عبدالكريم اليافي ليثبت اسلوب الحلاج التنزيهي ، وافتى ابن تيمية بعد تحليل البيت الاخير ان الحلاج ملحد يستحق القتل ، دون ان ينتبها لهذه العلاقة التي تربط طرفي النص .
نعم انه نزه الله . . الا ان الله يسمح للبعض كالرسول وكالحلاج برؤيته ، لذا قلما يفصل الله المنزه عن الرؤية في في معظم نصوصه (١) .

ومن هنا نفهم حديثه عن التوحيد ، وتقسيمه الشرع الى ظاهر وباطن ، الظاهر للعوام والباطن للعارفين .
« سئل : ما معنى لا اله الا الله ؟ قال : كلمة شغل بها العامة لثلا يخلطوا مع اهل التوحيد ، وهذا شرع ، ومن رأي الشرع ، ثم احمرت وجنتاه ، وقال اقول بجملة . قلت : بلى . قال : من زعم انه يوحد فقد اشرك «لانه» اذا وحد ربه ، قد اثبت نفسه ، ومن اثبت نفسه ، وصل الى الشرك الخفي » .

وتدخر اخباره بمثل هذا الكلام من ذلك « ان لسان العوام : الله لا تدركه الابصار ، ومن ذلك ايضا «واما باطن الحق فظاهره الشريعة ومن يحقق في ظاهر الشريعة يكتشف له باطنها وباطنها المعرفة بالله » اي رؤيته . ومن ذلك « وان الكفر والايمان يفرقان من حيث الاسم واما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما » .

(١) انظر الى نصوص اخرى تثبت ذلك في اخبار الحلاج ص ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ٢١ ، ١٦ ، ٥ . ١١٣ . ١١٤ . ١١٧ .

ويعرف الحلاج التوحيد بقوله « تمييز الحدث عن القديم ،
ثم الاعراض عن الحدث والاقبال على القديم وهذا احسن
التوحيد ، اما محضه فالفناء بالقدم عن الحدث ، واما حقيقة
التوحيد ليس لاحد اليه سبيل الا رسول الله » وبالطبع للحلاج
ايضا !

★ ★ ★

ومما يتصل بتنزيه الله حديث الحلاج عن الخلق ، فبعد ان
فرق بين العالمين ، رد الثاني للاول عن طريق الخلق يقول « لا
فرق بيني وبين ربي الا بصفتين : وجودنا منه وقوامنا به » ولكن
ما يجب ان نسأل عنه ، هل خلق الله النور الحمدي ام انه هو
نفسه ؟ وحتى يزول اللبس يذكر الحلاج ان الله خلق نور محمد
قبل كل شيء ، وان اول ما اوجد ذرة محمد ، واول ما هوى
به القلم لا اله الا الله ومحمد رسول الله . وعلى هذا يجب اعتبار
قدم نور محمد دون قدم الله اي كاول محدث .
ويذكر قضية الخلق بنص ، الحقه ماسنيون بالطواسين ،
وهذا هو :

« قال الحسين بن منصور اول ما خلق الله تعالى ذكره ،
ستة اشياء في ستة وجوه ، قدر ذلك تقديرا ، الوجه الاول المشيئة
خلقها على النور ، ثم خلق النفس ثم الروح ثم خلق الصورة ثم
الاحرف ثم الاسماء ثم اللون ثم الطعم ثم الرائحة ثم خلق
المقدار ثم خلق العماء ثم خلق النور ثم الحركة ثم السكون ثم
الوجود ثم العدم . ثم على هذا خلقا بعد خلق ، على الوجوه
الآخر اول ما خلق الله تعالى الدهر ثم القوة ثم الجوهر ثم
الصورة ثم الروح وهكذا خلقا بعد خلق . في كل وجه من الستة
خلقهم في غامض علمه لا يعلمه الا هو قدرهم تقديرا واحصى
كل شيء علما » (1) .

(1) الطواسين ص ١٤٨ و١٤٩ .

ويستلقت النظر امرين ، الاول مضيه بالتنزيه الى الغاية القصوى ، جامعلا المشيئة مخلوقة ، وكأنه يباري المعتزلة في هذا التنزيه ، وهم الذين يعتبرون المشيئة عين ذات الله ، فصفت الله مخلوقة عنده !

وثاني ما يلفت النظر ، هذه الدقة التي بلغها في نظريته ، فأدى به ذلك الى رأي غريب الا وهو ان العدم مخلوق . وكأنه رأى ان هذه اللفظة وان دلت على اللاوجود ، لا بد ان تكون مخلوقة ما دامت ليست هي الله ، اذ ان ما عدا الله مخلوق ، دون ان يستثني اية كلمة تخطر على البال ، اذ ان قديمين لا يكونان ، وان دل هذا على شيء ، فهو يدل على تعلقه الكبير بتنزيه الله . وعلى كل فان هذا الخلق للعدم سيلعب دورا هاما في الفلسفة الصوفية فيما بعد ، وستكون اساس نظرية ابن عربي عن الاعيان الثابتة (١) .

ومما يتصل بخلق المشيئة قضية الخير ، وقد حاول الحلّاج

(١) الاصل في خلق العدم مطرد عن المعتزلة لقولهم ان العدم شيء . وابن حزم يميز بين اهل السنة وطوائف من المرجئة كالاشعرية وغيرهم ، وهؤلاء جميعا يقولون ان العدم ليس شيئا ، وبين هشام بن عمرو الفوطي القائل ان العدم شيء ، والخياط الذي يرى ان «العدم جسم في حال عدمه الا انه ليس ساكنا ولا متحركا ولا مخلوقا ولا محدثا في حال عدمه.

الملل والاهواء والنحل : ابن حزم ج ٥ ص ٣ مكتبة الخياط .

ويرى الشهرستاني ان الخياط غالى في اثبات ان العدم شيء ، واطلق على العدم لفظ الثبوت ، كما يذكر ان الجبائي عبد السلام كان يرى ان العدم شيء .

الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٩٧ هامش الكتاب السابق . وعارضهم الاشعري الذي كان يقول ان العدم ليس شيئا .

الشهرستاني : المرجع السابق ص ١٠٨ .

وبالطبع يختلف الحلّاج عن الخياط بقوله ان العدم مخلوق . .

حل هذه المشكلة المستعصية في تاريخ الفكر الاسلامي ، فيفرق بين الامر الالهي وبين الارادة الالهية ، والامر شكلي لانه قد لا ينفذ على حين الارادة حتمية ، وعلى ذلك فسر عصيان ابليس ، وفسر دعواه الفريية ، وكأنه لم يكتف بهذا التفريق النظري ، بل جعل حياته مدارا للفكرة ، فيما انه في موقف الالتباس الا انه مباح الدم « ان قتلي قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة ، فمن تجاوز الحدود اقيمت عليه الحدود » وهو في مأساته تجسيد كامل لوعي حي بالمسؤولية المقررة بذنب لا يكفر عنه الا بالموت ، وقد ابنت سابقا ان طلبه الموت ذو حدين ، فهو يطلبه لشعوره بالذنب ، لانه يخالف الشريعة ويطلبه لان روحه ستتحرر بالموت من قيودها ، وينتقل الى السماء ليكون مع الله ، ليراه ، والجماعة اجازت هذا .

وعلى الرغم من كل هذه الاراء نجد من يقول بان العلاج من دعاة وحدة الوجود ، وليس المهم ان نجد اشارات تنطق بمذهب بشكل ملتبس ، بقدر ما نكتشف في هذا الفكر العناصر والنتائج التي يقتضيها هذا المذهب .

ولعل اهم ما تقتضيه وحدة الوجود هو القول بالوجود الواحد ، ونفي الخلق كخروج من العدم ، والقول بقدم العالم ، ونفي فكرة الشر ، وبالتالي نفي الثواب والعقاب . وفي هذا القسم وجدنا العلاج على النقيض من هذه الافكار ، فكان عرضها رد على هذه الدعوى ، فدعاوي العلاج تكفيه !!

فقد قال بتعالى الله ، وميز بين العالم المحدث وعالم الله القديم . واعتبر المحدث مخلوقا لله ، ورد الذنب للانسان ، واعتبره مسئولا عن عمله وان اقتضت الارادة عمله . وهذا نقيض وحدة الوجود التي ترى ان الخطأ خطأ باعتبار ، لا بالحقيقة .

خلاصة الامر :

الله منزه ، ولا يعرف ، الا انه اجاز رؤية نفسه لمحمد ،
والرؤية هي المعرفة ، والحلاج يدعي انه نور محمد ، لذا فهو
يرى الله ، والرؤية مرادفة للحب ، والحب هو العذاب فسي
المحبوب ، وما حياة الحلاج الا هذا الجهاد للوصول اليه ، فهو
انسان مشتاق لوعه حبه . وما كتبه كتبه ذلك العاشق الذي
اضناه الوجد ، فهو صبوة وجوى ، وهو كآثر العاشقين لا يكتفي
بالنظرة ، بل يريد ان يكون مع حبيبه في الابد والى الابد .
شعره همسات قلب تسأل عن الحبيب ، وربما كانت ابياته
خفقان قلبه المتألم ، في ذلك الصمت الذي يعقب انطفاء النور ،
وربما كانت صيحاته صراخ ذلك المتبجح الذي اراد التشهير
بنفسه ! والمحب يحلو له ان يتودد الى محبوبه ، فيقول له انت
نفسي كما قال مجنون بني عامر عندما سئل عن اسمه قال : ليلي .
فأنا الحق من حيث الحب ، فالصادق العاطفة يفقد نفسه ،
وينسى اسمه ورسمه ويصبح ارادة محبوبه . ولن يبق الا الادراك ،
ادراك الحبيب ، فكأنه لم يبق الا الحبيب . وعند اليقظة في
تلك اللحظة بالذات لا يكون الا احساس واحد ، هو الاحساس
بالنفس ، فلا شيء مدرك الا وجود الذات ، وقد اصبح الشعور
بها مرهفا ، كشعور الانسان وهو يستيقظ من نوم بعد حلم
سعيد ، ما ان يفتح عينيه الا ويشعر شعورا غريبا ، ان لجسده
حيزا وثقلا . وهناك لم يبق الا الحبيب وهنا لم تبق الا الذات ،
وبين لحظة الغياب ولحظة الشعور فاصل لا يدرك ، فتصبح
الذات هي الحبيب ، فأنا هو ولا انفصام ولا اتصال . . الا ان هذا
لا يدوم ، فهي هنيهة من النشوة ثم يعود الانسان انسانا ، ويعود
الله ليكون بعيدا . بيد انه يبقى عبير من الذكرى ، فينسج
الحلاج ترانيم الوجد والصبوة ، وينشد تراويل الحب ، وما هو
الا انسان محب انتشى بصورة حبيبه التي يراها فيتواجد .
الا انه كان مغرورا ، فأحب ان يرى حبيبه كل دقيقة ، ولم

يتمالك نفسه ، فاخذ يصرخ شاهرا قصته ، وسمعه الاغراب ، فلم
يضحكوا لهذا العاشق ، ولم يتألموا لهواه ، فالعشيق محرم ،
والرؤية محال ، وهو يدرك هذا ، الا انه اعتبره بلاء . فخاض
المعركة فقطع واحرق وصلب وكانت تلك المأساة الروعة . .
وغابت القصة ، واصبحت قصة ذاك الملحد الكافر ،
فانتفخت القصة وامتألت ، وكلما عادت للظهور بدت اكثر طولا ،
واكثر صفحات ، وهكذا نملك اليوم قصة محزنة ، قصة غريبة ،
تسمى : اسطورة الحلاج . . اسطورة انسان عاش بوهم عريض . .

المراجع

- ١ - الطواسين : الحلاج ، تحقيق ماسنيون .
- ٢ - ديوان الحلاج ، تحقيق ماسنيون .
- ٣ - الاصول الاربعة عن الحلاج ، تحقيق ماسنيون سنة ١٩١٤
باريس .
- ٤ - اخبار الحلاج او مناجيات الحلاج . تحقيق ماسنيون
وكراموس سنة ٣٦ ١ باريس وهو الاصل الرابع فسي
الكتاب السابق بتحقيق جديد فيه اضافات كانت ناقصة
بالكتاب السابق .
- ٥ - مقدمة الطواسين : ماسنيون وهي مترجمة في مجلة الاداب
عام ١٩٥٤ العدد الثاني باسم مذهب الحلاج ص ٢٠ - ٢٦
والمترجم : شعبان بركات .
- ٦ - المنحنى الشخصي لحياة الحلاج : ماسنيون . وهذه الدراسة
ترجمها الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه شخصيات
قلقة في الاسلام .
- ٧ - الحلاج : تأليف الاستاذ طه عبدالباقي سرور .
- ٨ - الحلاج : قصة شعبية لا مؤلف لها ومطبوعة في حلب .

- ٩ - تاريخ الرسل والملوك : الطبري القسم الرابع / ١٣ نشر
مكتبة الخياط ببيروت .
- ١٠ - تاريخ بغداد : للخطيب المجلد الثامن . مكتبة الخانجي -
القاهرة - ١٩٣١ .
- ١١ - الكامل في التاريخ : ابن الاثير الجزء : ٧ و ٨ الطبعة
الازهرية سنة ٣١٠١ هـ .
- ١٢ - صلة تاريخ الطبري : عريب بن سعد . مطبعة الاستقامة
- القاهرة - ١٩٣٩ .
- ١٣ - البداية والنهاية : ابن كثير . الجزء ١١ مطبعة السعادة .
- ١٤ - الفهرست : ابن نديم - مكتبة الخياط .
- ١٥ - وفيات الاعيان : ابن خلكان الجزء الاول .
- ١٦ - شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي الجزء الثاني المكتبة
التجارية ببيروت .
- ١٧ - تاريخ الاسلام : الجزء الثالث . حسن ابراهيم حسن الطبعة
٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ .
- ١٨ - تاريخ الشعوب الاسلامية : بروكلمان : الجزء الثاني .
- ١٩ - ظهر الاسلام : احمد امين ، الجزء الثاني والرابع .
- ٢٠ - في التصوف الاسلامي : نيكلسون : ترجمة ابو العلا العفيفي
- ٢١ - الصوفية في الاسلام : نيكلسون : ترجمة نورالدين شريه
- ٢٢ - التصوف الاسلامي في الاخلاق والادب : زكي مبارك
الجزء الاول .
- ٢٣ - شطحات صوفية : ابو يزيد البسطامي : تحقيق الدكتور
عبدالرحمن البدوي .
- ٢٤ - اللمع : الطوسي تحقيق طه عبدالباقي سرور سنة ١٩٦٠
مصر .
- ٢٥ - الرسالة القشيرية : القشيري . طبعة مصر .
- ٢٦ - مشكاة الانوار : الغزالي
- ٢٧ - المنقذ من الضلال : الغزالي .

- ٢٨ - احياء علوم الدين : الغزالي المطبعة المصرية : مصطفى
البابي الحلبي .
- ٢٩ - فتاوى ابن تيمية : الجزء الثاني والحادي عشر : مطبعة
الرياض .
- ٣٠ - مجموعة رسائل ومسائل : ابن تيمية ، دار المنار بمصر .
الطبعة الثانية .
- ٣١ - تاريخ الفلسفة الاسلامية : حنا فاخوري و خليل الجر .
- ٣٢ - دراسات فنية في الادب العربي : الدكتور عبدالكريم
اليافي - دمشق .
- ٣٣ - مجموعة في الحكمة الالهية : السهروردي : تحقيق كوربين
- مجلد اول - استانبول ١٩٤٥ .
- ٣٤ - تاريخ ابن خلدون : المجلد الثالث - القسم الاول - دار
الكتاب اللبناني ١٩٥٧ .
- ٣٥ - مروج الذهب : المسعودي ، ج ٤ تحقيق محمد محي الدين
عبدالحميد .
- ٣٦ - ضحى الاسلام : احمد امين : ج ١ وج ٢ وج ٣ .
- ٣٧ - الاعلام : الزركلي .
- ٣٨ - ابن المعتز : احمد كمال زكي .
- ٣٩ - فضائح الباطنية : الغزالي ، تحقيق الدكتور عبدالرحمن
بدوي .
- ٤٠ - فصوص الحكم : ابن عربي ، تحقيق وشرح ابو العلا
العفيفي .
- ٤١ - ٤٢ الملل والاهواء والنحل : ابن حزم وبهامشه الملل والنحل
لشهرستاني ، مطبعة الخياط .
- ٤٣ - رسائل التعليقات : الرصافي .
- ٤٤ - مبادئ الامراض النفسية : الدكتور عمر شاهين والدكتور
يحيى الرضاوي . كلية الطب جامعة القاهرة .
(قسم الامراض النفسية) - مكتبة النصر الحديثة .

- ٤٥ - علم الطباع : الدكتور سامي الدروبي .
- ٤٦ - السهروردي : سامي الدهان .
- ٤٧ - روح الحضارة العربية : هانز شيدر ، ترجمة الدكتور
عبدالرحمن بدوي .
- ٤٨ - تلبيس ابليس : ابن الجوزي ، تحقيق خيرالدين العلمي .
طبعة بيروت .
- ٤٩ - السهروردي المقتول : مؤسس الذهب الاشرافي : هنري
كوربان . والبحث ترجمه الدكتور عبدالرحمن البدوي في
كتابه شخصيات قلقة في الاسلام .
- ٥٠ - تفسير الجلالين وتفسير الخازن .
- ٥١ - حضارة الاسلام : جوستاف ا . فون جرونباوم ترجمة
عبدالعزيز توفيق جاويد . نشر مكتبة مصر .
- ٥٢ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري او عصر
النهضة في الاسلام تأليف آدم متز . ترجمة محمد عبد
الهادي ابو ريدة ، طبعة ثانية - القاهرة ١٩٤٧ لجنة
التأليف والترجمة والنشر .
- ٥٣ - الانسان الكامل : الجيلي .
- ٥٤ - الانسان الكامل في الاسلام : عبدالرحمن بدوي -
النهضة بمصر .

الفهرس

٥	١ - المقدمة
١٣	٢ - موجز حياة الحلاج
١٩	٣ - شخصيته
٤٩	٤ - تجربته الصوفية
١٠١	٥ - الحلاج والسياسة
١٣٥	٦ - محاكمته وقتله
١٥٣	٧ - اسطورة الحلاج
١٨٥	٨ - اصدقاءه ومؤيدوه
٢٠٥	٩ - اعداؤه ومكفروه
٢١٥	١٠ - الآراء الحديثة فيه
٢٢٩	١١ - دعاوي الحلاج واراؤه
٢٦٨	١٢ - المراجع

منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

هذا الكتاب

ما نعرفه عن الحلاج يكتنفه الغموض والأضطراب. صحيح ان المكتبة العربية تحتوي على العديد من الدراسات عنه ولكنها تنطلق من منهج مثالي وفهم غيبي لا يستقيمان مع الفكر والنهج العلميين. فالخبرة الصوفية بالمنهج المثالي من طبيعة لا تخضع للبحث العقلي. وهكذا يتم عزل الأفكار عن السياق التاريخي والاجتماعي وعزل العقل عن اداء دوره التحليلي.

وهذا الكتاب عن الحلاج (الصوفي) محاولة من المؤلف لدراسة الحلاج بما هو كائن اجتماعي في مجتمع محدد يبحث عن تعزية في وهم متخيل بطريقة فردية كادت ان تصل الى طريقها الصحيح في خاتمة الامر. لقد أستطاع الحلاج بشخصيته الفذة وتجربته الدينية الفريدة أن ينبو تارة بالأستناد الى خصوصية نفسيته الغريبة وتارة بالأستناد الى عمق تجربته الصوفية، والتي رحل بعيداً فيها متسلقاً أحياناً وطائراً اكثر الأحيان بخياله بل وبفكره الذي لا يقل إبداعاً عن خياله حتى ليغدو وكأنه أصبح خارج مجتمعه وخارج التاريخ. وقد أصبح أسطورة.

ويُعتبر هذا الكتاب من أفضل الدراسات العلمية عن هذه الأسطورة!